مكتبة

إليزابيث فون أرنيم

أبريل الساحر

رواية

ترجمة: إيناس التركي

لا يُسمح بتداول وقراءة هذه النسخة من الكتاب
لعملاء الاحتلال وأذنابه من سلطة التنسيق الأمني

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

أبريل الساحر

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabook
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤
دار الكرمة ٢٠٢٤
العنوان الأصلي: The Enchanted April
إليزابيث فون أرنيم ١٩٢٢

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
حقوق الترجمة © إيناس التركي

مكتبة
t.me/soramnqraa

فون أرنيم، إليزابيث.
أبريل الساحر: رواية / إليزابيث فون أرنيم؛ ترجمتها عن الإنجليزية إيناس التركي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٣١٢ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك: 9789779603032
١- القصص الإنجليزية.
أ- التركي، إيناس (مترجمة).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٠٦٨ / ٢٠٢٤

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

إليزابيث فون أرنيم

أبريل الساحر

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمتها عن الإنجليزية
إيناس التركي

الكرمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

١

بدأ الأمر في نادٍ نسائي في لندن بعد ظهيرة أحد أيام فبراير – نادٍ غير مريح، وبعد ظهيرة بائسة – عندما أتت السيدة ويلكنز من هامبستيد للتسوق وتناولت الغداء في ناديها، والتقطت صحيفة «التايمز» من على الطاولة في غرفة التدخين، وجرت بعينيها الخاملتين أسفل عمود مشكلات القرَّاء، ورأت الآتي:

إلى أولئك الذين يقدِّرون الوستارية والشمس المشرقة. قلعة إيطالية صغيرة من العصور الوسطى على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، للإيجار مفروشة لشهر أبريل. سوف يبقى الخدم الضروريون. ز، صندوق ١٠٠٠، صحيفة «التايمز».

كانت هذه هي بداية الفكرة، ومع ذلك، كما هي الحال بالنسبة إلى عديد من الأشخاص الآخرين، لم تكن صاحبتها على دراية بذلك في تلك اللحظة.

لم تكن السيدة ويلكنز مدركة قَطُّ أن كيفية قضائها لشهر أبريل في ذلك العام قد تقررت في التو والحال، إلى درجة أنها أسقطت الصحيفة بحركة غلب عليها الانزعاج والاستسلام في الوقت نفسه، وتوجَّهت نحو النافذة، وحدقت في كآبة إلى الشارع الذي تقطر به الأمطار.

لم تكن قلاع العصور الوسطى لها، حتى تلك التي وُصِفت بأنها صغيرة على وجه الخصوص. كما لم تكن شواطئ البحر المتوسط في شهر أبريل لها، ولا الوستارية والشمس المشرقة. هذه المباهج للأثرياء فقط. مع ذلك،

فقد كان الإعلان موجهًا إلى الأشخاص الذين يقدِّرون هذه الأشياء، لذا كان بطريقة ما موجهًا إليها هي أيضًا، إذ إنها كانت تقدِّرها بكل تأكيد، أكثر مما يدري أي شخص، وأكثر مما صرحت من قبل. لكنها كانت فقيرة. كل ما تملكه في العالم بأسره هو تسعون جنيهًا فقط، ادخرتها من عام إلى عام، جمعتها بحرص جنيهًا وراء جنيه، من الميزانية المخصصة لشراء ملابسها. جمعت هذا المبلغ بناءً على اقتراح زوجها، كدرع وملاذ من يوم ممطر. كانت الميزانية المخصصة لشراء ملابسها، التي يمنحها والدها إياها، تبلغ مائة جنيه إسترليني سنويًّا، بحيث وصف زوج السيدة ويلكنز الذي يحثها على الادخار ملابسَها بأنها محتشمة ولائقة. وعندما كان معارفها يتبادلون الحديث عنها فيما بينهم، إذا تحدثوا عنها على الإطلاق، وهو أمر نادر الحدوث لأنها لم تكن جديرة بالاهتمام بدرجة كبيرة، كانوا يقولون إن مظهرها مثالي.

كان السيد ويلكنز، المحامي، يشجع على الاقتصاد، باستثناء إذا ما تعلق الأمر بطعامه، فلم يكن يطلق على ذلك مُسمَّى «الاقتصاد»، بل يصفه بسوء التدبير المنزلي. لكن بالنسبة إلى الاقتصاد الذي توغَّل مثل العثة في ملابس السيدة ويلكنز وأفسدها، فقد كان لديه الكثير من الثناء. قال:

- لا تعرفين أبدًا متى سيأتي يوم مطير، وقد تشعرين بالسعادة الغامرة حينها عندما تجدين لديك مدخرات. في الواقع، ربما يشعر كلانا بالسعادة.

في أثناء نظر السيدة ويلكنز من نافذة النادي إلى شارع شافتسبري - كان ناديها نادياً اقتصادياً، لكنه كان مناسباً لهامبستيد، حيث تعيش، ولمتجر [illegible] سوق بعد أن وقفت هناك بعض الوقت في كآبة شديدة، [illegible] بعين الخيال البحر الأبيض المتوسط في شهر أبريل، وأشجار الوستارية، والفرص التي يُحسَد عليها الأثرياء، بينما تراقب بعين الواقع المطر الكريه للغاية حقًّا بلون السخام وهو ينهمر بثبات على المظلات المتسارعة والحافلات العامة التي تنثر الرذاذ، تساءلت فجأة عما إذا كان

هذا هو اليوم الممطر الذي كثيرًا ما شجعها ميلرش - كان ميلرش هو السيد ويلكنز - على الاستعداد له، وما إذا كان من المحتمل أن الهروب من مثل هذا الطقس إلى القلعة الصغيرة التي تعود إلى العصور الوسطى هو ما كانت الأقدار تريدها أن تفعله بمدخراتها منذ البداية. جزء من مدخراتها بالطبع: ربما جزء ضئيل للغاية. وبما أن القلعة تعود إلى العصور الوسطى، فقد تكون متداعية أيضًا، ومن المؤكد أن ما هو متهدم رخيص التكلفة. لن تمانع أبدًا وجود بعض التداعي، لأن المرء لا يدفع ثمن الخراب الموجود بالفعل، بل على العكس من ذلك، فمن خلال تقليل السعر الذي يتعين عليك دفعه، كان الخراب هو الذي يدفع لك في الواقع. لكن يا له من هراء، هذا الذي تفكر فيه.

ابتعدت عن النافذة بنفس إيماءة الغضب الممتزج بالاستسلام التي نحَّت بها صحيفة «التايمز» جانبًا، وعبرت الغرفة باتجاه الباب وهي تنوي جلب معطفها الواقي من المطر ومظلتها، والتوجه إلى إحدى الحافلات العامة المزدحمة، والذهاب إلى متجر شولبريد في طريقها إلى المنزل وشراء بعض سمك موسى لعشاء ميلرش. كان ميلرش صعب الإرضاء فيما يتعلق بالسمك، ولا يفضِّل إلا سمك موسى، باستثناء سمك السلمون. حينها رأت السيدة أربوثنوت، وهي امرأة تعرفها بالشكل فقط، وتعرف أنها تعيش أيضًا في هامبستيد وتنتمي إلى النادي، وهي جالسة إلى الطاولة الكائنة في منتصف الغرفة التي توضع فوقها الصحف والمجلات، وهي مستغرقة بدورها في الصفحة الأولى من صحيفة «التايمز».

لم تكن السيدة ويلكنز قد تبادلت الحديث من قبل مع السيدة أربوثنوت، التي تنتمي إلى واحدة من مجموعات الكنيسة المختلفة، والتي تعمل على تحليل وتصنيف وتقسيم وتسجيل الفقراء، في حين أنها هي وميلرش، عندما يخرجان، كانا يذهبان إلى حفلات الرسَّامين الانطباعيين، الذين يوجد الكثير منهم في هامبستيد. كان لميلرش أخت تزوجت واحدًا منهم

وتعيش في هيث، وبسبب هذه المصاهرة انجذبت السيدة ويلكنز إلى دائرة فائقة الغرابة بالنسبة إليها، وتعلمت الرهبة من اللوحات. كان عليها أن تقول أشياء عنهم، ولم تكن تعرف ماذا تقول. اعتادت الغمغمة قائلة «رائع»، والشعور بأن ذلك ليس كافيًا. لكن لم يهتم أحد، ولم يستمع أحد. لم ينتبه أي أحد للسيدة ويلكنز. كانت من ذلك النوع من الأشخاص الذي لا يحظى بالانتباه في الحفلات. جعلتها ملابسها الموبوءة بالتقتير تكاد تكون غير مرئية للعيان، وكان وجهها غير لافت للنظر، وحديثها مترددًا، وتتسم هي بالخجل. فكرت السيدة ويلكنز التي كانت على دراية بأوجه القصور لديها، أنه إذا كانت ملابس المرء ووجهه وحديثه جميعها غير جديرة بالاهتمام، فما الذي يتبقى منه في الحفلات إذن؟

كما أنها كانت دومًا بصحبة ويلكنز، ذلك الرجل الحليق، حسن المظهر، الذي يضفي على الحفل جوًّا رائعًا بمجرد الحضور إليه. كان ويلكنز محترمًا للغاية، ومن المعروف أنه محل تقدير كبير من قِبل شركائه الأكبر في العمل، كما حظي بالإعجاب وسط دائرة معارف شقيقته. كان يطلق أحكامًا بارعة بما فيه الكفاية على الفن والفنانين، ويتصف بالبلاغة والحكمة، ولا يتفوَّه بكلمة واحدة زائدة على الإطلاق، ومن ناحية أخرى، لم يكن يتحدث بأقل مما يجب قَطُّ. خلق انطباعًا بأنه يحتفظ بنسخ من كل ما ينطق به، وبدا من الواضح للغاية أنه جدير بالثقة، إلى درجة أنه حدث في كثير من الأحيان أن الأشخاص الذين التقوا به في هذه الحفلات صاروا مستائين من محاميهم، وبعد فترة من القلق خلصوا أنفسهم منهم وذهبوا إلى ويلكنز.

بطبيعة الحال، طمس ذلك وجود السيدة ويلكنز. قالت شقيقة السيد ويلكنز وفي أسلوبها شيء من إطلاق الأحكام والاقتضاب والحسم:

- يجب أن تبقى في المنزل.

لكن ويلكنز لم يستطع ترك زوجته في المنزل. كان محاميًا عائليًّا،

وجميع من مثله لديهم زوجات ويظهرون بصحبتهن. كان يذهب مع زوجته إلى الحفلات خلال الأسبوع، ويذهب معها إلى الكنيسة في أيام الآحاد. ونظرًا إلى أنه كان لا يزال شابًّا نوعًا ما - كان في التاسعة والثلاثين من عمره - ويطمح إلى اكتساب عميلات من السيدات العجائز، اللاتي لم يفُز بعدد كافٍ منهن بعدُ في عمله، لم يكن في إمكانه تحمُّل تفويت ارتياد الكنيسة، وهناك تعرَّفت السيدة ويلكنز على السيدة أربوثنوت، وإن لم تتبادلا الحديث قَطُّ.

رأتها ترشد أبناء الفقراء إلى مقاعد الكنيسة. كانت تأتي على رأس المسيرة من مدرسة الأحد قبل خمس دقائق بالضبط من الجوقة، وتُجلس أولادها وبناتها بعناية في المقاعد المخصصة لهم، وتجعلهم يجثون على ركبهم الصغيرة خلال صلاتهم الافتتاحية، ثم ينهضون على أقدامهم مرة أخرى عندما تتعالى نغمات الأرغن، وينفتح باب خزانة الكنيسة ويظهر الجوقة ورجال الدين، وهم بادو الأهمية بسبب الصلوات والوصايا التي هم على وشك طرحها. بدا وجهها حزينًا، لكن كان من الواضح أنها كفءٌ في عملها. أثار هذا المزيج تساؤل السيدة ويلكنز، إذ كان ميلرش يخبرها في تلك الأيام التي لم تنجح فيها إلا في الحصول على سمك البلايس بأن المرء لن يشعر بالاكتئاب إذا اتصف بالكفاءة، وأنه إذا أدى عمله جيدًا فسوف يصبح مرحًا ونشطًا بصورة تلقائية.

لم يكن هناك أي شيء من المرح والنشاط في السيدة أربوثنوت، على الرغم من أن كثيرًا من أسلوب تعاملها مع أطفال مدرسة الأحد اتسم بالتلقائية، لكن عندما ابتعدت السيدة ويلكنز عن النافذة ولمحتها في النادي، لم تكن تتصرف بتلقائية قَطُّ، بل كانت تنظر بثبات إلى أحد أجزاء الصفحة الأولى من صحيفة «التايمز»، وهي تمسك الصحيفة بثبات تام من دون أن تتحرك عيناها. أخذت تحدق فحسب، وبدا وجهها كالعادة مثل وجه السيدة العذراء وقد ارتسم عليه الصبر وخيبة الأمل.

انقادت لنزوة تعجبت لها حتى وهي تمتثل لها، وبدلًا من أن تمضي السيدة ويلكنز الخجول والمترددة قُدمًا إلى حجرة إيداع المعاطف، كما كانت تنوي، ومن هناك تتوجه إلى متجر شولبريد بحثًا عن السمك من أجل ميلرش، توقفت عند الطاولة وجلست مباشرة مقابل السيدة أربوثنوت، التي لم يسبق قَطُّ أن تبادلت معها الحديث طوال حياتها.

كانت واحدة من تلك الطاولات الطويلة والضيقة في قاعة الطعام، ما جعلهما قريبتين جدًّا من بعضهما.

مع ذلك، لم ترفع السيدة أربوثنوت نظرها. استمرت في التحديق إلى نقطة واحدة فحسب في صحيفة «التايمز»، بعينين بدتا حالمتين.

راقبتها السيدة ويلكنز للحظة، وهي تحاول استجماع الشجاعة اللازمة للتحدث إليها. أرادت أن تسألها عما إذا كانت قد شاهدت الإعلان. لم تعرف سبب رغبتها في سؤالها عن هذا، لكنها أرادت ذلك. يا لها من حماقة، ألا تكون قادرة على التحدث إليها. بدت لطيفة للغاية، وبدت تعيسة جدًّا. لماذا لا يمكن لشخصين تعيسين الترويح عن بعضهما في طريقهما عبر دروب الحياة المتربة هذه، من خلال تبادل حديث قصير، حديث حقيقي وطبيعي، عن مشاعرهما، وما الذي يريدانه، وما الذي ما زالا يحاولان التمسك بالأمل فيه؟ لم تستطع منع نفسها من التفكير في أن السيدة أربوثنوت أيضًا كانت تقرأ الإعلان نفسه. كانت عيناها على الجزء نفسه من الصحيفة. هل كانت هي أيضًا تتخيل كيف ستبدو الألوان والروائح والضوء، والارتطام الناعم لأمواج البحر بين الصخور الصغيرة الساخنة؟ الألوان والروائح والضوء والبحر، بدلًا من شارع شافتسبري، والحافلات العامة الرطبة، وقسم الأسماك في متجر شولبريد، والمترو إلى هامبستيد، والعشاء، والشيء نفسه غدًا، والشيء نفسه بعد غدٍ، والشيء نفسه دومًا...

فجأة وجدت السيدة ويلكنز نفسها تميل عبر الطاولة، وسمعت نفسها تسأل:

- هل تقرئين عن القلعة التي تعود إلى العصور الوسطى وأشجار الوستارية؟

بطبيعة الحال، اندهشت السيدة أربوثنوت، لكن دهشتها لم تكَد تضاهي قدر دهشة السيدة ويلكنز من نفسها لإقدامها على السؤال.

لم تكن عينا السيدة أربوثنوت، على حد علمها، قد وقعتا بعدُ على الهيئة الزرية النحيلة غير المهندمة الجالسة قبالتها، بوجهها الصغير المغطى بالنمش، وعينيها الرماديتين الواسعتين اللتين تكادان تختفيان أسفل قبعة مجعدة مضادة للمطر، وحدقت إليها لحظة من دون إجابة. كانت تقرأ عن قلعة القرون الوسطى وأشجار الوستارية، أو بالأحرى قرأت عنها قبل عشر دقائق، ومنذ ذلك الحين سرحت في الأحلام، عن الضوء والألوان والروائح، والارتطام الناعم لأمواج البحر بين الصخور الصغيرة الساخنة...

قالت بصوتها الرصين، إذ إن تعليمها للفقراء وتعلمها منهم جعلاها جادة وصبورًا:

- لماذا تسألينني هذا السؤال؟

تخضب وجه السيدة ويلكنز بالحمرة، وبدا عليها الخجل والخوف بصورة مفرطة. تلعثمت قائلة:

- أوه، لأنني رأيته أنا أيضًا فحسب، وفكرت أنه ربما... فكرت أنه بطريقة ما...

عندئذٍ، بما أن ذهن السيدة أربوثنوت اعتاد تصنيف الناس في قوائم وأقسام، فقد فكرت بحكم العادة، وهي تتأمل السيدة ويلكنز بإمعان، في أفضل عنوان يمكن وضعها تحته، بافتراض أنه يتعين عليها تصنيفها.

تابعت السيدة ويلكنز الحديث، وكانت مثل كل من يتسمون بالخجل، فما إن بدأت الكلام حتى استمرت في الاندفاع، وأدى بها خوفها إلى مزيد ومزيد من الحديث بفعل وقع آخر ما تفوَّهت به على أذنيها.

- كما أنني أعرفك بالشكل... كل يوم أحد... أراكِ كل يوم أحد في الكنيسة.

رددت السيدة أربوثنوت:

- في الكنيسة؟

- ويبدو هذا أمرًا رائعًا للغاية... هذا الإعلان عن أشجار الوستارية، و...

قطعت السيدة ويلكنز، التي كانت تبدو في الثلاثين من عمرها على الأقل، قطعت حديثها، وتلوَّت في مقعدها بحركة كما لو أنها تلميذة مرتبكة تشعر بالحرج.

تابعت في نوع من الاندفاع:

- يبدو ذلك رائعًا للغاية، كما أن... اليوم بائس جدًّا بالفعل...

ثم جلست تنظر إلى السيدة أربوثنوت بعينَي كلب حبيس.

فكرت السيدة أربوثنوت، التي أمضت حياتها في مساعدة الآخرين والتخفيف عنهم: «هذه المسكينة في حاجة إلى النصيحة».

وبناءً على ذلك، أعدت نفسها بصبر لإسداء النصح.

قالت بلطف وانتباه:

- إذا كنتِ تشاهدينني في الكنيسة، فسأفترض أنك تعيشين في هامبستيد أيضًا؟

قالت السيدة ويلكنز:

- أوه، أجل.

ثم كررت القول، وقد تدلى رأسها قليلًا فوق عنقها الطويلة النحيلة، كما لو أن ذكرى هامبستيد قد أحنتها:

- أوه، أجل.

سألتها السيدة أربوثنوت، التي كانت بطبيعة الحال تشرع في جمع الحقائق أولًا عندما يستدعي الأمر إسداء النصح:

- أين؟

لكن السيدة ويلكنز وضعت يدها بهدوء ورِقة على ذلك الجزء من صحيفة

«التايمز» حيث كان الإعلان، كما لو أن مجرد كلمات الإعلان المطبوعة ثمينة، وقالت فقط:

- ربما لذلك يبدو هذا\رائعًا للغاية.

تناست السيدة أربوثنوت الحقائق، وتنهدت بصوت خافت قائلة:

- لا، أعتقد أن ذلك رائع على أي حال.

- كنت تقرئينه بالفعل، إذن؟

قالت السيدة أربوثنوت، وقد صارت عيناها حالمتين مرة أخرى:

- أجل.

تمتمت السيدة ويلكنز:

- ألن يكون الأمر رائعًا؟

قالت السيدة أربوثنوت:

- رائع.

تلاشى إشراق ملامحها التي عاد الصبر يرتسم فوقها، وتابعت قائلة:

- رائع للغاية، لكن لا جدوى من أن يضيِّع المرء وقته في التفكير في مثل هذه الأشياء.

كان رد السيدة ويلكنز السريع والمفاجئ:

- أوه، لكن هناك جدوى بالفعل.

كان الرد مفاجئًا لأنه يختلف بدرجة كبيرة عن بقية مظهرها: المعطف والتنورة اللذين يفتقران إلى أي طابع، والقبعة المجعدة، وخصلة الشعر المترددة المتناثرة. واصلت قائلة:

- كما أن مجرد التفكير فيها أمر يستحق في حد ذاته... يا له من تغيير كبير عن هامبستيد... وأنا أومن أحيانًا... أومن حقًّا... أن المرء ينال الأشياء إذا فكر فيها بدرجة كافية.

تأمَّلتها السيدة أربوثنوت بصبر. في أي فئة ستضعها، إذا افترضت أنها مضطرة إلى ذلك؟

قالت وهي تميل قليلًا إلى الأمام:

- ربما يمكنك إخباري باسمك. إذا كنا سنصير صديقتين...

ابتسمت ابتسامتها الرصينة، وتابعت قائلة:

- كما آمل أن نصير، فمن الأفضل أن نبدأ من البداية.

قالت السيدة ويلكنز:

- أوه، أجل، يا له من لطف منك. أنا السيدة ويلكنز.

ثم تخضب وجهها عندما لم تقل السيدة أربوثنوت شيئًا، وأضافت قائلة:

- لا أفترض أن ذلك يعني لك أي شيء. في بعض الأحيان... يبدو أنه لا يعني لي شيئًا أنا أيضًا. لكن...

تلفتت حولها كمن يبحث عن العون، وواصلت:

- أنا السيدة ويلكنز.

لم تكن تحب اسمها. كان اسمًا دنيئًا وضئيلًا، وبنوع من الفكاهة الملتوية، فكرت أن نهايته الملتفة نحو الأعلى تشبه انحناءة ذيل كلب البج. لكن كان هذا هو الوضع، على أي حال، ولم يكن هناك ما يمكن عمله بشأن ذلك. كان اسمها ويلكنز، وسيظل ويلكنز، وعلى الرغم من أن زوجها كان يحثها على أن تعلن عنه في جميع المناسبات بوصفها السيدة ميلرش ويلكنز، فإنها كانت تفعل ذلك عندما يكون على مرمى السمع فحسب، إذ كانت تعتقد أن اسم «ميلرش» يزيد اسم «ويلكنز» سوءًا ويوضحه، كما أن اسم «تشاتسوورث» على أعمدة بوابة إحدى الفيلّات، يوضح الفيلّا نفسها.

عندما اقترح عليها لأول مرة إضافة اسم «ميلرش»، احتجت للسبب المذكور أعلاه، وبعد برهة من الصمت - إذ كان ميلرش حكيمًا بدرجة أكبر من أن يتحدث إلا بعد برهة من الصمت، التي من المفترض أنه يدوِّن خلالها في ذهنه ملاحظات دقيقة لعبارته القادمة - قال باستياء شديد:

- لكنني لست فيلًّا.

ونظر إليها كما ينظر من يأمل، ربما للمرة المائة، أنه لم يتزوج حمقاء.

أكدت له السيدة ويلكنز أنه ليس فيلًا بالطبع، وأنها لم تفترض قَطُّ كونه كذلك، ولم تكن لتجرؤ على أن تعني ذلك... بل كانت تفكر فحسب...

كلما أمعنت في الشرح ازداد ميلرش جدية في أمله الذي بات مألوفًا له حينها، إذ مضى عليه عامان وهو متزوج، بألا يكون قد تزوج حمقاء بأي حال من الأحوال. وخاضا جدالًا مطولًا، إذا أمكن إطلاق لفظ «جدال» على ما دار في صمت مهيب من جانب، واعتذار مخلص من جانب آخر، حول ما إذا كانت السيدة ويلكنز تعمدت الإيحاء بأن السيد ويلكنز فيلًا أم لا.

عندما انتهى الأمر أخيرًا - وقد استغرق وقتًا طويلًا - فكرت قائلة لنفسها: «أعتقد أن أي زوجين سيتشاجران حول أي شيء إذا لم يفترقا عن بعضهما يومًا واحدًا طوال عامين كاملين. ما يحتاج إليه كلانا هو عطلة».

تابعت السيدة ويلكنز حديثها إلى السيدة أربوثنوت، في محاولة لإلقاء بعض الضوء على نفسها:

- زوجي محامٍ. إنه...

بحثت عن شيء يمكن أن تقوله للتوضيح عن ميلرش، وكان ما عثرت عليه هو:

- إنه فائق الوسامة.

قالت السيدة أربوثنوت بلطف:

- حسنًا، لا بد أن ذلك من دواعي سرورك البالغ.

سألتها السيدة ويلكنز:

- لماذا؟

قالت السيدة أربوثنوت، التي فوجئت بعض الشيء، لأن حديثها المستمر مع الفقراء جعلها تألف قبول أقوالها من دون سؤال:

- لأن الجمال - الوسامة - هبة مثل أي هبة أخرى، وإذا استُغلت على نحو صحيح...

تناقصت كلماتها حتى صمتت. ثبتت السيدة ويلكنز عينيها الرماديتين الواسعتين عليها، وبدا للسيدة أربوثنوت فجأة أنها ربما أَلِفت عادة الشرح، والتوضيح بطريقة مربيات الأطفال، من خلال وجود مستمعين لا يسعهم إلا الاتفاق معها، وسيشعرون بالخوف في حال ما إذا رغبوا في المقاطعة، كما يتسمون بالجهل، وكانوا في الواقع تحت رحمتها.

لكن السيدة ويلكنز لم تكن تنصت. ففي تلك اللحظة، على الرغم من غرابة الأمر، ومضت في ذهنها صورة، وكان بها شخصان جالسان معًا أسفل شجرة وستارية متدلية ضخمة امتدت عبر أغصان شجرة لم تكن تعرفها، وكانت هي والسيدة أربوثنوت، رأتهما، رأتهما. وخلفهما، في ضوء الشمس المشرقة، كانت هناك جدران رمادية قديمة - قلعة العصور الوسطى - رأت ذلك، وكانتا هناك...

لذا حدقت إلى السيدة أربوثنوت، ولم تسمع كلمة مما قالته. كما حدقت السيدة أربوثنوت أيضًا إلى السيدة ويلكنز، وقد أسرها التعبير المرتسم على وجهها، الذي غلبت عليه إثارة ما رأته، وبدا مضيئًا ومرتعشًا تحت وقعه، كالماء في ضوء الشمس عند اضطرابه لهبوب الريح. في هذه اللحظة، لو كانت في إحدى الحفلات، لنظرت الأعين إلى السيدة ويلكنز باهتمام.

حدقتا إلى بعضهما، السيدة أربوثنوت بدهشة وتساؤل، والسيدة ويلكنز بعينَي شخص شاهد رؤيا. بالطبع، هكذا يمكن القيام بالأمر. هي نفسها، بمفردها، لا يمكنها تحمُّل التكلفة، ولن تكون قادرة على الذهاب إلى هناك وحدها، حتى لو استطاعت تحمُّل التكاليف، لكن هي والسيدة أربوثنوت معًا...

مالت عبر الطاولة، وهمست:

- لماذا لا نحاول الحصول عليه؟

ازدادت عينا السيدة أربوثنوت اتساعًا، وكررت قائلة:

- الحصول عليه؟

قالت السيدة ويلكنز، كما لو أنها تخشى أن يسمعها أحد:

- نعم، لا يجب أن نكتفي بالجلوس هنا فحسب، ونقول كم هو أمر رائع، ثم نعود إلى المنزل في هامبستيد من دون أن نحرك ساكنًا. نذهب إلى المنزل كالمعتاد، ونتولى أمر العشاء والسمك، تمامًا كما نفعل منذ سنوات وسنوات، وكما سنستمر سنوات وسنوات.

تابعت السيدة ويلكنز الحديث وقد تخضبت بالحمرة حتى فروة رأسها، إذ إن وقع ما تقوله، والحديث المنسال منها، أخافها، ومع ذلك لم تستطع التوقف.

- في الواقع، لا أرى نهاية للأمر. ليس هناك حد لذلك. لذا يجب أن تكون هناك استراحة، يجب أن تكون هناك أوقات فاصلة، من أجل مصلحة الجميع. في الحقيقة، سيكون من الإيثار أن نبتعد وننعم بالسعادة بعض الشيء، لأننا سنعود ألطف كثيرًا. كما ترين، بعد فترة، يحتاج الجميع إلى عطلة.

سألتها السيدة أربوثنوت:

- لكن... ما الذي تعنينه بالحصول عليه؟

قالت السيدة ويلكنز:

- نأخذه.

- نأخذه؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- نستأجره، نكتريه، نحصل عليه.

- لكن... هل تقصدين أنا وأنت؟

- أجل، فيما بيننا، نتشاركه. عندها سيتكلف النصف فقط، كما أنك تبدين... تبدين كما لو أنك ترغبين في الأمر تمامًا مثلما أفعل أنا... كما لو أنك في حاجة إلى نيل بعض الراحة، وإلى أن يحدث لك شيء سعيد.

- لكننا لا نعرف بعضنا.

- لكن فكري فحسب كم سنعرف بعضنا جيدًا، إذا ذهبنا معًا لمدة شهر! وقد وفرتُ بعض المال ليوم مطير، وأتوقع أنك فعلت المثل، وها هو ذا اليوم المطير بالفعل، فلتنظري إليه!

فكرت السيدة أربوثنوت قائلة لنفسها: «إنها غير متزنة». ومع ذلك، شعرت بإثارة غريبة.

- فكري في الابتعاد شهرًا كاملًا عن كل شيء... والذهاب إلى الفردوس...

فكرت السيدة أربوثنوت: «لا ينبغي لها أن تقول أشياء من هذا القبيل. الكاهن...». ومع ذلك، شعرت بإثارة غريبة. سيكون من الرائع حقًّا الحصول على قسط من الراحة، والتوقف.

لكنها استعادت توازنها مرة أخرى بحكم العادة، وجعلتها سنوات من الحديث إلى الفقراء تقول، بنبرة التعالي الطفيف لمن يقدم توضيحًا، على الرغم من تعاطفها:

- لكن كما ترين، فإن الفردوس ليس موجودًا في مكان آخر، بل هو موجود هنا والآن. هذا ما قيل لنا.

غلبت عليها الجدية الشديدة، تمامًا كما كانت تصير عندما تحاول بصبر مساعدة الفقراء وتنويرهم. قالت بصوتها الخفيض الرقيق:

- الجنة بداخلنا، وقد قيل لنا هذا من أشد المصادر ثقة. كما أنك تعرفين الأبيات التي تدور حول النقطتين المتصلتين، أليس كذلك...

قاطعتها السيدة ويلكنز بنفاد صبر:

- أوه، بلى، أعرفها.

تابعت السيدة أربوثنوت، التي اعتادت إكمال عباراتها:

- النقطتين المتصلتين، الفردوس والمنزل. الفردوس كائن في منازلنا.

قالت السيدة ويلكنز بشكل مفاجئ مرة أخرى:

- الأمر ليس كذلك.

فوجئت السيدة أربوثنوت، ثم قالت بلطف:

- أوه، لكنه كذلك. إنه موجود إذا اخترنا، إذا جعلناه كذلك.

قالت السيدة ويلكنز:

- لقد اخترت هذا، وجعلته كذلك، وهو غير موجود.

عندها التزمت السيدة أربوثنوت الصمت، إذ كانت تساورها هي أيضًا بعض الشكوك أحيانًا فيما يتعلق بالمنازل. جلست ونظرت بقلق إلى السيدة ويلكنز، وتزايد شعورها بالحاجة إلى تصنيفها بدرجة أكثر فأكثر. أحست أنها إذا تمكنت فقط من تصنيف السيدة ويلكنز، ووضعها بسلام تحت العنوان الملائم، فسوف تتمكن هي نفسها من استعادة توازنها، الذي بدا كما لو أنه كله ينزلق جانبًا على نحو غريب للغاية. لم تكن هي أيضًا قد حظيت بعطلة منذ سنوات، ودفعها الإعلان عندما شاهدته إلى أحلام اليقظة، كما كانت حماسة السيدة ويلكنز حول هذا الأمر معدية، وراودها إحساس وهي تستمع إلى حديثها الغريب المتهور وتراقب وجهها الذي أشرق بأنها تستفيق من سبات.

بدا من الواضح أن السيدة ويلكنز غير متزنة، لكن السيدة أربوثنوت سبق أن قابلت من قبل من يتصفون بعدم الاتزان - وفي الواقع دومًا ما كانت تقابلهم - ولم يكن لهم أي تأثير في اتزانها هي قَطُّ، في حين أن هذه أشعرتها بارتباك بالغ، كما لو أن الرحيل والابتعاد بعيدًا عن نقاط بوصلتها المتمثلة في الرب والزوج والمنزل والواجب - لم تشعر كما لو أن السيدة ويلكنز تنوي أن يأتي السيد ويلكنز أيضًا - والتمتع بالسعادة لمرة واحدة فحسب، ستكون شيئًا جيدًا ومرغوبًا فيه. في حين أن الأمر لم يكن كذلك بالطبع. بكل تأكيد، لم يكن كذلك بالطبع. كان لديها هي أيضًا مبلغ ادخرته، استثمرته بالتدريج في دفتر توفير البريد، لكن افتراض أنها ستنسى واجبها إلى حد سحبه وإنفاقه على نفسها كان بالتأكيد أمرًا سخيفًا. بالتأكيد، لم يكن في وسعها ذلك، ولن تقدِم أبدًا على مثل هذا

الشيء. من المؤكد أنها لن تفعل، ولن تتمكن أبدًا من نسيان الفقراء، ونسيان البؤس والمرض تمامًا على هذا النحو. لا شك أن الرحلة إلى إيطاليا ستكون ممتعة بشكل غير عادي، لكن هناك الكثير من الأشياء المبهجة التي يود المرء أن يفعلها، ولماذا وُهب المرء القوة إن لم يكن ذلك لمساعدته على عدم الإقدام عليها؟

كانت الحقائق الأربع الكبرى في الحياة ثابتة بالنسبة إلى السيدة أربوثنوت كثبات نقاط البوصلة: الرب، والزوج، والمنزل، والواجب. كانت قد حسمت أمرها بشأن هذه الحقائق منذ سنوات، بعد فترة من البؤس الشديد، وأراحت رأسها فوقها كوسادة، وصار لديها تخوف كبير من أن يوقظها أحدهم من مثل هذا الوضع المريح، فائق البساطة. لهذا فتشت بهمة عن تصنيف تضع تحته السيدة ويلكنز، وبهذه الطريقة ترشد ذهنها وتساعده على الاستقرار. وبينما هي جالسة هناك تنظر إليها بقلق بعد ملاحظتها الأخيرة، وتشعر بنفسها وقد تأثرت وباتت غير متزنة أكثر فأكثر، قررت في الوقت الحالي، كما يقول الكاهن في الاجتماعات، تصنيفها تحت عنوان «الأعصاب المتعبة». كان من المحتمل تمامًا أنه يجب إرسالها مباشرة إلى فئة الهستيريا، التي غالبًا ما تكون مجرد غرفة انتظار للجنون، لكن السيدة أربوثنوت تعلمت ألا تسرع بوضع الناس في فئاتهم النهائية، بعد أن اكتشفت بجزع في أكثر من مناسبة أنها ارتكبت خطأً، وكم كان من الصعب إخراجهم مرة أخرى، وكم شعرت بأنها محطمة مع أفظع شعور بالندم.

أجل، أعصاب متعبة. فكرت السيدة أربوثنوت أنها على الأرجح لم تكن منشغلة بالعمل من أجل الآخرين بانتظام، ولم يكن لديها عمل من شأنه أن يلهيها عن همومها الشخصية. بدا من الواضح أنها بلا دفة، تدفعها العواصف والنزوات. من شبه المؤكد أنها تنتمي إلى فئة الأعصاب المتعبة، أو ستصير هكذا في القريب العاجل إذا لم يمد إليها أحد يد العون.

فكرت السيدة أربوثنوت وقد عاد إليها توازنها يدًا بيد مع شعورها بالشفقة: «يا للمسكينة الصغيرة»، بينما عجزت عن رؤية طول ساقَي السيدة ويلكنز بسبب الطاولة. كل ما رأته هو وجهها الصغير المتلهف الخجول، وكتفاها النحيفتان، ونظرة الشوق الطفولي في عينيها إلى شيء كانت متأكدة أنه سيجعلها سعيدة. لا، مثل هذه الأشياء لا تجعل الناس يشعرون بالسعادة، مثل هذه الأشياء العابرة. علمت السيدة أربوثنوت خلال حياتها الطويلة مع فريدريك - زوجها الذي تزوجته في العشرين من عمرها، وقد باتت الآن في الثالثة والثلاثين - المكان الوحيد الذي يمكن العثور فيه على السعادة الحقة. صارت تعرف الآن أنها لا يمكن العثور عليها إلا في العيش من أجل الآخرين في كل يوم، وكل ساعة، ولا يمكن العثور عليها إلا عند قدمَي الرب: ألم تأخذ خيباتها وإحباطاتها إلى هناك مرارًا وتكرارًا، ثم عادت وهي تشعر بالعزاء؟

كان فريدريك من ذلك النوع من الأزواج الذي تلوذ زوجته بنفسها عند قدمَي الرب منذ وقت مبكر. كانت الخطوة التي قطعتها بينه وبين تلكما القدمين قصيرة، لكنها مؤلمة. بدت لها قصيرة عند النظر إلى الأمر في وقت لاحق، لكنها في الواقع استغرقت العام الأول من زواجهما بأكمله، وكان كل شبر من الطريق بمنزلة صراع، وشعرت حينها بأن كل شبر منه ملطخ بدماء قلبها. انتهى كل ذلك الآن، ووجدت السلام منذ فترة طويلة. وبعد أن كان فريدريك عريسها الذي أحبته بشغف، وزوجها الشاب الذي تعبده، بات يحتل المرتبة الثانية بعد الرب في قائمة واجباتها وأحلامها. ظل معلقًا هناك، في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، كشيء فقد دماءه وقد نزف حد الشحوب التام بفعل صلواتها. طوال سنوات، لم تتمكن من الشعور بالسعادة إلا من خلال نسيان السعادة، وأرادت أن تظل على هذا النحو. أرادت استبعاد كل ما يذكرها بالأشياء الجميلة، التي قد تثير شوقها ورغبتها مرة أخرى...

قالت بجدية:

- أحب كثيرًا أن نصير صديقتين. هلَّا أتيت لزيارتي، أو سمحت لي بالقدوم لزيارتك أحيانًا؟ في أي وقت تشعرين فيه بالرغبة في تبادل الحديث. سأعطيك عنواني، ولن تنسي حينها.

فتشت في حقيبة يدها، وعثرت على بطاقة ثم مدت يدها بها.

تجاهلت السيدة ويلكنز البطاقة.

قالت السيدة ويلكنز، تمامًا كما لو أنها لم تسمعها:

- الأمر غريب جدًّا، لكنني أرانا - أنا وأنت - في شهر أبريل المقبل في تلك القلعة التي تعود إلى العصور الوسطى.

عادت السيدة أربوثنوت إلى الشعور بالاضطراب، وبذلت جهدًا للحفاظ على توازنها تحت النظرة الحالمة للعينين الرماديتين اللامعتين، وقالت:

- حقًّا؟ حقًّا؟

سألتها السيدة ويلكنز:

- ألا يحدث أبدًا أن تشاهدي الأشياء في نوع من الوميض قبل وقوعها؟

قالت السيدة أربوثنوت:

- نعم، لا يحدث ذلك على الإطلاق.

حاولت الابتسام؛ حاولت أن تبتسم تلك الابتسامة المتعاطفة الحكيمة المتسامحة التي اعتادت رسمها وهي تستمع إلى آراء الفقراء المتحيزة والمنقوصة بالضرورة. لكنها لم تنجح، وارتجفت الابتسامة.

قالت بصوت خفيض، كما لو أنها تخشى تقريبًا أن الكاهن وبنك التوفير ينصتان إليها:

- بالطبع سيكون ذلك جميلًا للغاية، جميلًا للغاية...

قالت السيدة ويلكنز:

- حتى لو كان الأمر خاطئًا، فلن يكون إلا لمدة شهر فقط.

شرعت السيدة أربوثنوت في الحديث بوضوح تام عن جدارة وجهة النظر هذه بالاستنكار:

- هذا...

لكن السيدة ويلكنز أوقفتها قبل أن تتمكن من الانتهاء.

قاطعتها السيدة ويلكنز قائلة:

- على أي حال، أنا على يقين أنه من الخطأ استمرار المرء في كونه صالحًا فترة طويلة للغاية، حتى يصير بائسًا. وفي وسعي أن أرى أنك ظللت صالحة طوال سنوات وسنوات، لأنك تبدين تعيسة جدًّا.

فتحت السيدة أربوثنوت فمها للاحتجاج، بينما واصلت السيدة ويلكنز الحديث:

- وأنا، لم أفعل شيئًا سوى أداء الواجبات والقيام بأشياء للآخرين، منذ أن كنت فتاة صغيرة، ولا أعتقد أن هناك من أحبني بسبب ذلك بدرجة أكبر بعض... بـ... بعض الشيء. وأنا أتوق - أوه، لكَم أتوق - إلى شيء آخر... شيء آخر...

هل كانت على وشك البكاء؟ أحست السيدة أربوثنوت بالانزعاج والتعاطف بدرجة فائقة. تمنت ألا تبكي، ليس هناك، ليس في تلك الغرفة الباردة مع وجود غرباء يروحون جيئة وذهابًا.

لكن السيدة ويلكنز، بعد أن جذبت بحدة منديلًا عاندها وهي تحاول إخراجه من جيبها، نجحت أخيرًا في مسح أنفها به فحسب، ثم رمشت بعينيها بسرعة كبيرة مرة أو مرتين، ونظرت إلى السيدة أربوثنوت بسحنة مرتعشة بدا عليها الاعتذار الذي تردد ما بين الخنوع والخوف، وابتسمت.

همست وهي تحاول تثبيت فمها، وقد بدا واضحًا أنها تشعر بالخجل من نفسها على نحو كبير:

- هل تصدقين أنني لم يسبق أن تحدثت إلى أي شخص في حياتي من قبل بهذه الطريقة؟ لا أستطيع التفكير، ولا أدري ببساطة ما الذي اعتراني.

قالت السيدة أربوثنوت وهي تومئ برأسها بجدية:

- إنه الإعلان.

مسحت السيدة ويلكنز عينيها خلسة، وقالت:

- أجل، وكوننا...

مسحت أنفها بعض الشيء مرة أخرى، وواصلت:

- بائستين للغاية.

٢

بالطبع، لم تكن السيدة أربوثنوت بائسة. سألت نفسها كيف يمكن أن تكون كذلك، في حين أن الرب يتولى العناية بها؟ لكنها تركت الملاحظة تمر في الوقت الحالي من دون إنكار، بسبب قناعتها بأن هناك مخلوقًا آخر في حاجة ماسة إلى مساعدتها، ولم يكن الأمر يتطلب مجرد أحذية وبطانيات وترتيبات صحية أفضل هذه المرة، لكنها كانت مساعدة أكثر دقة تتطلب الفهم، والعثور على الكلمات المناسبة تمامًا.

ما لبثت أن اكتشفت الكلمات المناسبة تمامًا، فبعد أن جربت عديدًا من الكلمات عن العيش من أجل الآخرين، والصلاة، والسلام الذي يمكن للمرء العثور عليه من خلال وضع نفسه من دون تحفظ بين يدَي الرب، كانت لدى السيدة ويلكنز كلمات في مقابل جميع تلك الأخرى، وبدت كلماتها غير مترابطة، ومع ذلك، في الوقت الحالي على الأقل، كان من الصعب الإجابة عنها حتى يسنح للمرء مزيد من الوقت، لذا كانت الكلمات المناسبة تمامًا هي اقتراح أن الرد على الإعلان لن يضر. مجرد استفسار، غير ملزم. وما أزعج السيدة أربوثنوت بشأن هذا الاقتراح هو أنها لم تقدمه لمجرد تهدئة السيدة ويلكنز، بل قدمته بسبب توقها الغريب إلى القلعة التي تعود إلى العصور الوسطى.

بدا هذا مزعجًا للغاية. فها هي ذي، وقد اعتادت التوجيه والقيادة وتقديم المشورة والدعم - باستثناء فريدريك، حيث تعلمت منذ زمن طويل أن تترك

أمر فريدريك للرب - تجد نفسها منقادة وخاضعة لتأثير الغير وقد فقدت اتزانها، من خلال إعلان فحسب، ومن قِبل إنسانة غريبة ذات حديث غير مترابط. كان هذا مزعجًا حقًّا. فشلت في فهم توقها المفاجئ إلى ما كان في النهاية مجرد انغماس في الملذات، في حين لم تدخل قلبها مثل هذه الرغبة منذ سنوات.

قالت بصوت خفيض، كما لو أن الكاهن وبنك التوفير وجميع الفقراء المنتظرين والمعتمدين عليها ينصتون ويدينونها:

- لا ضير من مجرد السؤال.

قالت السيدة ويلكنز بصوت خفيض أيضًا:

- ليس الأمر كما لو أننا التزمنا بأي شيء.

لكن صوتها أتى مرتعشًا.

نهضتا في الوقت نفسه - اندهشت السيدة أربوثنوت من مدى طول قامة السيدة ويلكنز - وتوجهتا إلى طاولة للكتابة، وكتبت السيدة أربوثنوت إلى ز، صندوق ١٠٠٠، صحيفة «التايمز»، للحصول على التفاصيل. سألت عن جميع التفاصيل، لكن المعلومة الوحيدة التي رغبتا فيها حقًّا هي تلك المتعلقة بالإيجار. شعرتا بأن السيدة أربوثنوت هي التي يجب أن تكتب الرسالة وتتولى الشق المالي، إذ لم تعتَد التنظيم والتزام الطابع العملي فحسب، بل كانت أيضًا أكبر سنًّا، وبالتأكيد أكثر هدوءًا، كما لم يساورها شك أنها أيضًا أكثر حكمة. ولم يكن لدى السيدة ويلكنز أيضًا أي شك في ذلك، حيث إن الطريقة التي فرقت بها السيدة أربوثنوت شعرها توحي بهدوء شديد لا يمكن إلا أن يكون نابعًا من الحكمة.

لكن إذا كانت أكثر حكمة، وأكبر سنًّا، وأكثر هدوءًا، مع ذلك بدا للسيدة أربوثنوت أن صديقتها الجديدة هي التي تدفعها. بدا حديثها غير مترابط، وعلى الرغم من هذا كانت هي التي تدفعها. بصرف النظر عن حاجتها إلى المساعدة، بدا أنها تتمتع بشخصية مربكة، إذ كانت تصيب المرء

بعدواها على نحو غريب، وتستدرجه. أما الطريقة التي يقفز بها عقلها غير المستقر إلى الاستنتاجات، الاستنتاجات الخاطئة بالطبع؛ فلتلاحظ ذلك الاستنتاج بأن السيدة أربوثنوت بائسة، كانت تلك الطريقة التي تقفز بها إلى الاستنتاجات مقلقة.

أيًّا ما كانت، وأيًّا ما كان عدم اتزانها ومهما بلغت شدته، وجدت السيدة أربوثنوت نفسها تشاركها حماسها وشوقها. وعقب وضع الرسالة في صندوق البريد في الردهة، وعندما لم يعد من الممكن فعليًّا استعادتها مرة أخرى، أحست هي والسيدة ويلكنز بنفس الشعور بالذنب.

قالت السيدة ويلكنز بصوت هامس وهما تبتعدان عن صندوق البريد:

- هذا يظهر فحسب كم التزمنا الصلاح التام طوال حياتنا، ففي المرة الأولى التي فعلنا فيها شيئًا من دون أن يعرف زوجانا، شعرنا بالذنب.

احتجت السيدة أربوثنوت بلطف، وهي تشعر بشيء من عدم الارتياح بسبب هذا المثال الجديد على النجاح في القفز إلى الاستنتاجات، لأنها لم تتفوَّه بكلمة واحدة عن شعورها بالذنب.

- أخشى أنني لا أستطيع القول إنني التزمت الصلاح التام.

- أوه، لكنني متأكدة أنك فعلت - أنا أراك وأنت تلتزمين الصلاح - ولهذا السبب فأنت لست سعيدة.

فكرت السيدة أربوثنوت: «لا ينبغي لها أن تقول أشياء من هذا القبيل، يجب أن أحاول مساعدتها حتى لا تفعل ذلك».

ثم قالت بصوت مرتفع، بنبرة جدية:

- لا أعرف لماذا تصرين على أنني لست سعيدة. عندما تعرفينني بشكل أفضل، أعتقد أنك ستجدين أنني أنعم بالسعادة. وأنا متأكدة أنك لا تعنين حقًّا أن الصلاح، إذا كان في إمكان المرء تحقيقه، يجعله غير سعيد.

قالت السيدة ويلكنز:

- نعم، أعني ذلك. إن نوع الصلاح الذي نلتزمه يعني ذلك. لقد حققناه، وها نحن أولاء غير سعيدتين. هناك أنواع بائسة من الصلاح، وأنواع مبهجة، والنوع الذي سنناله في القلعة، على سبيل المثال، هو النوع المبهج.

قالت السيدة أربوثنوت بحزم:

- هذا بافتراض أننا ذهبنا إلى هناك.

شعرت بأن السيدة ويلكنز في حاجة إلى من يكبح جماحها، وتابعت قائلة:

- في النهاية، لقد كتبنا لمجرد السؤال. ويمكن لأي شخص أن يفعل ذلك. أعتقد أنه من المرجح للغاية أن نجد الشروط مستحيلة، وحتى لو لم تكن كذلك، فربما لن نرغب غدًا في الذهاب.

أجابت السيدة ويلكنز عن ذلك قائلة:

- أرانا هناك.

كان كل هذا دافعًا إلى أن يفقد المرء اتزانه بدرجة كبيرة. ما لبثت السيدة أربوثنوت أن خاضت وسط المياه في الشوارع التي تقطر بالمطر، متجهة في طريقها إلى اجتماع كان من المقرر أن تلقي فيه كلمة، وكانت في حالة ذهنية مضطربة بشكل غير عادي. تمنت أن تكون قد ظهرت أمام السيدة ويلكنز بمظهر فائق الهدوء، وعملي ورصين للغاية، بدرجة تخفي شعورها بالإثارة. لكنها في الواقع تأثرت على نحو غير عادي، وشعرت بالسعادة، وأحست بالذنب، وانتابها الخوف، وغمرتها كل المشاعر التي تعتري امرأة انصرفت من لقاء سري مع حبيبها، على الرغم من أنها لم تكن على دراية بذلك. وفي الواقع، فقد بدت كذلك عندما وصلت متأخرة إلى منصتها، حيث كادت هي، ذات الملامح الصريحة، تبدو ماكرة عندما وقعت عيناها على الوجوه الجامدة المحدقة، في انتظار سماعها وهي تحاول إقناعهم بالمساهمة في التخفيف من الاحتياجات الملحة لفقراء هامبستيد، في حين أن كلًّا منهم مقتنع أنه هو نفسه في حاجة إلى المساعدات. بدت كأنها تخفي شيئًا فاضحًا، ولكنه ممتع. ومن المؤكد أن تعبيرها الصريح المعتاد غاب،

وحل محله نوع من السعادة المكبوتة الخائفة، الأمر الذي كان من شأنه أن يقود جمهورًا أكثر ميلًا إلى التفكير الدنيوي إلى القناعة الفورية بأنها مارست الحب مؤخرًا، بصورة متقدة على الأرجح.

الجمال، الجمال، الجمال... ظلت الكلمات ترن في أذنيها وهي تقف على المنصة تتحدث عن أشياء حزينة في الاجتماع الذي لم يحضره إلا القليل. لم يسبق أن ذهبت إلى إيطاليا من قبل. هل هذا حقًّا ما ستنفق عليه مدخراتها في نهاية المطاف؟ وعلى الرغم من أنها لم تستطع الموافقة على الطريقة التي قدمت بها السيدة ويلكنز فكرة حتمية القدر في مستقبلها القريب، تمامًا كما لو أنها لا تملك أي خيار، أو كما لو أن مجرد المقاومة أو التفكير لا جدوى لهما، فإنها تأثرت بالأمر. بدت عينا السيدة ويلكنز كعينَي عرَّافة، وكانت السيدة أربوثنوت تعرف أن هناك بعض الناس على هذا النحو، لذا إذا كانت السيدة ويلكنز قد رأتها بالفعل في قلعة تعود إلى العصور الوسطى، فمن المحتمل أن تكون المقاومة مضيعة للوقت. ومع ذلك، هل تنفق مدخراتها على الانغماس في الملذات؟ كان أصل هذه المدخرات فاسدًا، لكنها افترضت على الأقل أن غايتها ستكون حميدة. هل تصرف هذه المدخرات بعيدًا عن وجهتها المقصودة، والتي بدت السبب الوحيد الذي برر لها الاحتفاظ بها، لتنفقها على إسعاد نفسها؟

استمرت السيدة أربوثنوت في الحديث مطولًا، حيث اعتادت مثل ذلك النوع من الخطابات إلى حدٍّ كبير، إلى درجة أنها كان في وسعها إلقاء الخطاب بأكمله خلال نومها. وعند نهاية الاجتماع، كانت عيناها منبهرتين بالرؤى السرية الخاصة بها، حتى إنها لم تكَد تلاحظ أن أي شخص لم يتأثر بأي شكل من الأشكال، ولا سيما من ناحية تقديم المساعدات.

لكن الكاهن لاحظ، وأحس بخيبة الأمل. عادة ما كانت صديقته المقربة وداعمته السيدة أربوثنوت تحقق نجاحًا أفضل من ذلك. كما لاحظ أن الأمر الأكثر غرابة حتى هو أنها لم يبدُ عليها الاكتراث.

قال لها بنبرة انفعال وهما يفترقان، حيث أحس بالانزعاج منها ومن الجمهور:

- لا أستطيع تخيل ما الذي سيؤول إليه أمر هؤلاء الناس، إذ يبدو أنه لم يعد هناك ما يؤثر فيهم.

اقترحت السيدة أربوثنوت قائلة:

- ربما كانوا في حاجة إلى إجازة.

ظنها الكاهن إجابة غريبة، غير مرضية.

صاح في إثرها قائلًا بسخرية:

- في فبراير؟

التفتت السيدة أربوثنوت قائلة من فوق كتفها:

- أوه، لا، ليس حتى أبريل.

فكر الكاهن: «هذا غريب، غريب جدًّا حقًّا». ثم عاد إلى المنزل، وربما عامل زوجته بغير ما تقتضيه تعاليم المسيحية تمامًا.

تلك الليلة، طلبت السيدة أربوثنوت الإرشاد خلال صلاتها. شعرت بأنه يجب عليها أن تطلب بشكل مباشر وصريح أن يكون شخص ما قد استأجر قلعة العصور الوسطى بالفعل، وهكذا يُحسم الأمر برمته، لكن خانتها شجاعتها. لنفترض أن صلاتها استُجيبت؟ لا، لا يمكنها أن تطلب ذلك، لا تستطيع المجازفة بالأمر. وفي النهاية - كادت توضح هذا للرب - إذا أنفقت مدخراتها الحالية على إجازة، فسرعان ما ستتمكن من جمع مدخرات غيرها. كان فريدريك يصمم على منحها المال، وسيعني ذلك فقط أن مساهماتها الخيرية في الأبرشية سوف تقل بعض الشيء فترة من الوقت، إلى أن تجمع مدخرات أخرى. ومن ثَمَّ يمكن أن تصير المدخرات التالية هي التي تتخلص من فساد مصدرها الأصلي من خلال الغاية التي ستخصص لها أخيرًا.

لم تكن السيدة أربوثنوت تمتلك مصدر دخل خاصًّا بها، مما اضطرها إلى العيش على عائد عمل فريدريك، وكانت مدخراتها ثمرة خطايا قديمة

نضجت بعد وفاة مرتكبي الخطايا. كانت الطريقة التي يكسب بها فريدريك لقمة عيشه واحدة من المحن الدائمة في حياتها، حيث كان يكتب، بانتظام في كل عام، مذكرات ذات شعبية كبيرة، عن عشيقات الملوك. اشتمل التاريخ على عديد من الملوك الذين لديهم عشيقات، كما كان هناك عدد أكبر من العشيقات اللاتي كان لديهن ملوك، بحيث تمكن من نشر كتاب مذكرات خلال كل سنة من سنوات حياته الزوجية، ومع ذلك ظلت هناك أكوام كبيرة أخرى من هؤلاء السيدات، في انتظار التعامل معها. أحست السيدة أربوثنوت بالعجز، وسواء أأعجبها ذلك أم لا، اضطرت إلى العيش على العائدات. قدم لها ذات مرة أريكة بشعة، بعد نجاح كتابه الخاص بمذكرات مدام دو باري، وكانت لها وسائد منتفخة وجلسة ناعمة ومريحة، وبدا لها أنه من البائس أن يتباهى هناك، في منزلها، بهذا التجسيد لامرأة فرنسية قديمة آثمة مُتوفاة.

بكل بساطة، كانت صالحة بطبيعتها، ومقتنعة بأن الأخلاق هي أساس السعادة، لذا فإن حقيقة كونها هي وفريدريك يستمدان لقمة عيشهما من الإثم، مهما طهره مرور القرون، كانت أحد الأسباب السرية لحزنها. وكلما تركت المرأة التي كُتبت عنها المذكرات العنان لنفسها، زادت نسبة قراءة الكتاب الذي يدور حولها، وزاد كرم فريدريك مع زوجته. وقد أنفقت كل ما منحها إياه على مساعدة الفقراء، بعد إضافة القليل إلى مدخراتها، لأنها كانت تأمل وتعتقد أن الناس قد يتوقفون يومًا ما عن رغبتهم في القراءة عن الشر، وحينها سيحتاج فريدريك إلى الدعم. إذا أخذنا عينة عشوائية، فسنجد الأبرشية ازدهرت بسبب سوء سلوك السيدات من أمثال مدام دو باري، وماركيزة مونتيسب، ومدام دو بومبادور، ونينون دي لانكلوس، وحتى مدام دو مانتينون المتعلمة. كان الفقراء بمنزلة المرشِّح الذي تمر من خلاله الأموال، حتى تخرج، كما أملت السيدة أربوثنوت، وقد صارت نقية. لم يكن في وسعها فعل المزيد. حاولت في السابق التفكير في الموقف لاكتشاف المسار الصحيح الذي عليها أن تسلكه، لكنها وجدت الأمر

فائق الصعوبة، مثلما وجدت فريدريك أيضًا، فتركته للرب، كما تركت له فريدريك. لم تنفق شيئًا من هذا المال على منزلها أو لباسها، اللذين ظلَّا بسيطين، باستثناء الأريكة الضخمة الناعمة. كان الفقراء هم المستفيدين، وكانت الأحذية التي يرتدونها ذاتها مثقلة بالخطيئة، لكن كم بدا الأمر صعبًا. تلمست السيدة أربوثنوت طريقها طلبًا للإرشاد، وصلَّت من أجل ذلك حتى أصابها الإرهاق. هل عليها أن ترفض لمس المال، وتتجنبه كما كانت ستتجنب الآثام التي هي مصدر هذه الأموال؟ لكن ماذا عن أحذية الرعية في الأبرشية؟ سألت الكاهن عن رأيه، ومن خلال لغة دقيقة للغاية ومراوغة وحذرة، بدا أخيرًا أنه يميل إلى اختيار الأحذية.

على الأقل تمكنت من إقناع فريدريك، عندما بدأ مسيرته المهنية الرهيبة الناجحة - التي لم يبدأها إلا بعد زواجهما، إذ كان موظفًا بريئًا ملحقًا بمكتبة المتحف البريطاني عندما تزوجته - بنشر المذكرات تحت اسم مستعار، كي لا يفتضح علنًا. قرأ الناس في هامبستيد الكتب ببهجة، من دون أن تكون لديهم أدنى فكرة أن كاتبها يعيش بينهم. كان فريدريك غير معروف تقريبًا في هامبستيد، حتى بالشكل. لم يذهب إلى أي تجمعات هناك على الإطلاق، وأيًّا كان ما يفعله من أجل الاستجمام، فقد كان يقوم به في لندن، لكنه لم يتحدث قَطُّ عما فعله أو من رآه. ربما كان بلا أصدقاء تمامًا، حيث لم يذكر أحدًا منهم لزوجته قَطُّ. وحده الكاهن كان يعرف مصدر الأموال لرعية الأبرشية، وقال للسيدة أربوثنوت إنه يعتبر عدم ذكر الأمر مسألة شرف.

على الأقل لم يكن منزلها الصغير مسكونًا بالنساء المنحلات، حيث كان فريدريك يمارس عمله بعيدًا عن المنزل. كانت لديه غرفتان بالقرب من المتحف البريطاني، كانتا المسرح الذي ينبش فيه قبور الأموات، وكان يذهب هناك كل صباح، ويعود بعد فترة طويلة من نوم زوجته. في بعض الأحيان، لم يكن يعود على الإطلاق، وأحيانًا تمر عدة أيام من دون أن تراه، إلى أن يظهر فجأة عند الإفطار، بعد أن يكون قد فتح الباب لنفسه بمفتاحه في

الليلة السابقة، وهو مرح للغاية ومعتدل المزاج وكريم، ويسعد إذا سمحت له بإعطائها شيئًا. كان رجلًا سمينًا، راضيًا عن العالم، مرحًا وقويًّا وقانعًا. وكانت هي لطيفة على الدوام، وحريصة على أن تكون قهوته بالشكل الذي يحبه.

بدا سعيدًا للغاية. كثيرًا ما فكرت أن الحياة، مهما حاول المرء تنظيمها، كانت لا تزال لغزًا. دائمًا ما يكون هناك بعض الأشخاص الذين يستحيل فهمهم، وكان فريدريك أحدهم. لم يبدُ أنه يحمل أدنى شبه بفريدريك الأصلي، ولم يبدُ أن لديه أدنى احتياج إلى تلك الأشياء التي اعتاد القول إنها مهمة وجميلة للغاية: الحب، والسكن، والتواصل الكامل للأفكار، والانغماس الكامل في اهتمامات بعضهما. وبعد تلك المحاولات المبكرة المؤلمة لرفعه إلى النقطة التي بدآ منها معًا يدًا بيد على نحو رائع، وهي محاولات أُصيبت فيها هي نفسها بأذى شديد وتعرض فريدريك، الذي افترضت أنها تزوجته، للتشوه حتى لم يعد من الممكن التعرف عليه، علقته في نهاية المطاف بجانب فراشها بوصفه الموضوع الرئيسي لصلواتها، وفيما عدا ذلك تركته تمامًا للرب. أحبت فريدريك بعمق شديد، إلى درجة أنها لم تعد قادرة الآن على فعل أي شيء سوى الصلاة من أجله. لم تكن لديه أي فكرة أنه لم يخرج من المنزل قَطُّ من دون أن تصحبه مباركتها أيضًا، وهي تحوم مثل صدى صغير لحب انقضى، حول رأسه ذاك الذي كان عزيزًا عليها في يوم من الأيام. لم تجرؤ على التفكير فيه كما كان، كما بدا لها في تلك الأيام الأولى الرائعة من حبهما وزواجهما. مات طفلها، ولم يعد لديها شيء أو شخص خاص بها لتغمره بمحبتها، لذا صار الفقراء أولادها، والرب موضع محبتها. كانت تسأل نفسها أحيانًا ما الذي يمكن أن يكون أسعد من مثل هذه الحياة، لكن وجهها، ولا سيما عينيها، ظل حزينًا.

كانت تفكر بحزن: «ربما عندما نتقدم في السن... ربما عندما يتقدم كلانا في السن بدرجة كبيرة...».

٣

كان مالك قلعة القرون الوسطى رجلًا إنجليزيًّا، يُدعى السيد بريجز، وكان في لندن حينها، وكتب أن بها أَسِرَّة تكفي ثمانية أشخاص، غير الخدم، وثلاث غرف جلوس، وشرفات مُفرَّجة، وأقبية، وضوء كهربائي. كان الإيجار ستين جنيهًا إسترلينيًّا للشهر، علاوة على أجور الخدم، كما كان يريد رسائل تزكية شخصية، فقد أراد التأكد أن النصف الثاني من الإيجار سوف يُدفع، في حين كان النصف الأول مقدمًا، وأراد تأكيدات بالاحترام من محامٍ أو طبيب أو رجل دين. بدا فائق التهذيب في رسالته، موضحًا أن رغبته في الحصول على رسائل تزكية شخصية هي أمر معتاد، ويجب اعتبارها مجرد إجراء شكلي.

لم تفكر السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز في أمر رسائل التزكية الشخصية، ولم تحلما أنه يمكن أن يكون هناك إيجار مرتفع إلى هذا الحد. طافت في ذهنيهما مبالغ أقرب إلى ثلاثة جنيهات في الأسبوع، أو أقل، نظرًا إلى أن المكان كان قديمًا وصغيرًا.

ستون جنيهًا مقابل شهر واحد.

أذهلهما ذلك.

ظهرت أمام عينَي السيدة أربوثنوت الأحذية: آفاق بلا نهاية، كل الأحذية المتينة التي يمكن شراؤها بستين جنيهًا. وإلى جانب الإيجار، ستكون هناك أجور الخدم، والطعام، ورحلات السكك الحديدية ذهابًا وإيابًا. أما بالنسبة

إلى رسائل التزكية الشخصية فقد بدت بالفعل حجر عثرة، فلم يبدُ من الممكن تقديم أي رسائل تزكية شخصية من دون الإفصاح عن خطتهما بدرجة أكثر مما انتَوتَا. اعتقدتا - حتى السيدة أربوثنوت، التي رضخت للإغراء وابتعدت مرة عن الصراحة التامة، عندما أدركت مدى ما ستوفره من المتاعب والمشاق الناتجة عن تقديم تفسير ناقص - اعتقدتا أنها ستكون خطة جيدة لو أشاعت كلٌّ منهما وسط دائرتها الخاصة أنها ستقيم مع صديقة لديها منزل في إيطاليا، ومن حسن الحظ أن لهما دوائر معارف منفصلة. سيكون ذلك حقيقيًّا إلى حدٍّ ما - أكدت السيدة ويلكنز أنه سيكون صحيحًا تمامًا، لكن السيدة أربوثنوت ظنت أنه لن يكون كذلك بالتحديد - وقالت السيدة ويلكنز إنها الطريقة الوحيدة لإسكات ميلرش تقريبًا. كان إنفاقها جزءًا من أموالها لمجرد الذهاب إلى إيطاليا من شأنه أن يثير سخطه، وفضلت السيدة ويلكنز عدم التفكير فيما سيقوله إذا علم أنها تستأجر جزءًا من قلعة من العصور الوسطى لحسابها الخاص. سيستغرق الأمر أيامًا حتى يفرغ من قول كل شيء، وهذا على الرغم من أنه مالها الخاص، ولم يكن بنس واحد منه ملكًا له.

قالت:

- لكنني أتوقع أن زوجك مثله تمامًا، وأتوقع أن يكون كل الأزواج متشابهين على المدى الطويل.

لم تقل السيدة أربوثنوت شيئًا، لأن سبب عدم رغبتها في معرفة فريدريك بالأمر كان على العكس تمامًا. سيسعد فريدريك للغاية بسفرها، أو على الأقل لن يمانع، وفي الواقع سيستحسن مثل هذا المظهر من مظاهر الانغماس في الملذات الدنيوية بسرور مؤلم، وسيحثها على قضاء وقت ممتع وعدم الاستعجال في العودة بلامبالاة موجعة. فكرت أنه من الأفضل كثيرًا أن يفتقدها ميلرش، عن أن يستعجل فريدريك رحيلها. فكرت أنه من الأفضل أن يفتقدك أحدهم ويحتاج إليك، مهما كان الدافع، عن أن تعاني الوحدة التامة الناتجة عن عدم افتقادك أو الحاجة إليك على الإطلاق.

لذا لم تقل شيئًا، وتركت السيدة ويلكنز تقفز إلى استنتاجاتها من دون رادع. لكنهما شعرتا طوال يوم كامل بأن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو التخلي عن قلعة العصور الوسطى، وبوصولهما إلى هذا القرار المرير، أدركتا حقًّا شدة توقهما إلى القلعة.

ثم عثرت السيدة أربوثنوت، التي تدرَّب عقلها على إيجاد طرق للخروج من الصعوبات، على مخرج من صعوبة الحصول على رسائل التزكية الشخصية، وفي الوقت نفسه، عنَّت للسيدة ويلكنز رؤيا كشفت لها كيفية تقليل الإيجار.

كانت خطة السيدة أربوثنوت بسيطة وناجحة تمامًا. أخذت بنفسها الإيجار بالكامل إلى المالك، بعد أن سحبته من مدخراتها في البنك - وبدا عليها المكر والاعتذار مرة أخرى، كما لو أن الموظف سيعرف أنها تريد المال بغرض الانغماس في الملذات الشخصية - ثم توجهت إلى العنوان الكائن بالقرب من برومبتون أورتوري حيث يعيش المالك، وبحوزتها في حقيبة يدها ست ورقات مالية من فئة «عشرة جنيهات»، وقدمتها له متنازلة عن حقها في دفع النصف فقط. وعندما رآها بشعرها المفروق وعينيها الداكنتين الهادئتين وملابسها الرصينة، وسمع نبرة صوتها الجادة، قال لها ألا تزعج نفسها بالكتابة لطلب رسائل التزكية الشخصية تلك.

كتب إيصالًا بقيمة الإيجار، وقال:

- سيكون كل شيء على ما يرام. هلَّا جلست؟ الطقس سيئ اليوم، أليس كذلك؟ ستجدين أن القلعة القديمة بها الكثير من أشعة الشمس، بصرف النظر عن أي شيء آخر تفتقر إليه. هل سيذهب زوجك؟

بدت السيدة أربوثنوت، التي لم تعتَد أي شيء سوى الصراحة، منزعجة من هذا السؤال، وشرعت تغمغم على نحو غير واضح، فخلص المالك على الفور إلى أنها أرملة - أرملة حرب بالطبع، حيث كانت الأرامل الأخريات كبيرات في السن - وأنها كانت حماقة منه ألا يخمن ذلك.

تضرج وجهه بالحمرة حتى حدود شعره الأشقر، وقال:

- أوه، أنا آسف. لم أقصد... همم، همم، همم...

جرى بعينيه على الإيصال الذي كتبه، ونهض وناولها إياه قائلًا:

- أجل، أعتقد أن هذا مناسب.

ثم تناول الورقات المالية الست التي مدتها نحوه، وابتسم لأن السيدة أربوثنوت كانت تسر النظر، وأضاف قائلًا:

- الآن، ها قد صرتُ أكثر ثراءً، وصرتِ أنتِ أكثر سعادة. لديَّ المال، ولديكِ سان سالفاتوري، أتساءل أيهما أفضل؟

قالت السيدة أربوثنوت بابتسامتها العذبة:

- أعتقد أنك تعرف.

ضحك، وفتح لها الباب. كان من المؤسف أن المقابلة انتهت. ودَّ أن يطلب منها تناول الغداء معه. جعلته يفكر في والدته، وفي مربيته، وفي كل الأشياء اللطيفة والمريحة، بالإضافة إلى جاذبية عدم كونها والدته أو مربيته.

أمسك بيدها دقيقة عند الباب قائلًا:

- آمل أن يعجبك ذلك المكان القديم.

بدا ملمس يدها، حتى من خلال قفازها، مطمئنًا. فكر أن هذا هو نوع اليد التي يرغب الأطفال في الإمساك بها في الظلام. تابع قائلًا:

- في أبريل، كما تعلمين، يصبح المكان ببساطة كتلة من الزهور، كما أن هناك البحر. لا بد أن ترتدي اللون الأبيض، ستنسجمين مع المكان على نحو ملائم للغاية. توجد هناك عدة لوحات لكِ.

- لوحات؟

- للسيدة العذراء، كما تعلمين. هناك واحدة عند الدرج تشبهكِ تمامًا بالفعل.

ابتسمت السيدة أربوثنوت، وودعته وشكرته. من دون أدنى عناء، صنفته في الحال تحت الفئة الملائمة له: كان فنانًا ذا مزاج حماسي.

صافحته ورحلت، وتمنت لو أنها لم تفعل. بعد رحيلها، فكر أنه كان عليه أن يطلب رسائل التزكية الشخصية تلك، كي لا تظن أنه خالف المهنية بدرجة كبيرة حينما لم يفعل، لكن كان من الأسهل بالنسبة إليه طلب رسائل تزكية شخصية من قديس له هالة، عن أن يطلبها من تلك السيدة الرصينة اللطيفة.

روز أربوثنوت.

كانت رسالتها، التي حددت فيها الموعد، موضوعة على الطاولة.

اسم جميل.

أمكن التغلب على هذه العقبة إذن، لكن كانت لا تزال هناك تلك الأخرى، وهي التأثير المدمر حقًّا للمصاريف التي ستتكبدها المدخرات، ولا سيما مدخرات السيدة ويلكنز، والتي كان حجمها مقارنة بحجم مدخرات السيدة أربوثنوت يشبه حجم بيضة طائر الزقزاق مقارنة بحجم بيضة البطة. وقد تغلبتا على هذه العقبة بدورها من خلال الرؤيا التي عنَّت للسيدة ويلكنز، والتي كشفت لها عن الخطوات التي يجب اتخاذها لتجاوز هذه العقبة. بعد أن حصلتا على قلعة سان سالفاتوري - فتنهما الاسم الديني الجميل - ستؤديان دورهما بالإعلان في عمود المشكلات الشخصية في صحيفة «التايمز»، وستطلبان سيدتين أخريين، لديهما اهتماماتهما نفسها، للانضمام إليهما وتقاسم النفقات.

سينخفض الضغط على المدخرات في الحال من النصف إلى الربع. كانت السيدة ويلكنز على استعداد للإلقاء بمدخراتها كاملة في هذه المغامرة، لكنها أدركت أنه إذا تكلف الأمر ستة بنسات فحسب علاوة على التسعين جنيهًا التي تمتلكها، فسيكون موقفها رهيبًا. تخيلت ذهابها إلى ميلرش قائلة: «أنا مدينة بالمال». سيكون الأمر مروعًا بما يكفي إذا أجبرتها الظروف يومًا ما على أن تقول: «ليست لديَّ مدخرات»، لكن على الأقل ستدعمها في مثل ذلك الموقف معرفتها بأن المدخرات كانت ملكها. لذلك فعلى الرغم من استعدادها لدفع آخر بنس تمتلكه في هذه المغامرة، فلم تكن على استعداد

للإلقاء بربع بنس إضافي لا تمتلكه بوضوح، وشعرت بأنه إذا خُفض نصيبها من الإيجار إلى خمسة عشر جنيهًا فقط، فسيصبح لديها هامش آمن للنفقات الأخرى. كما أنه يمكنهن الاقتصاد كثيرًا في الطعام، حيث يستطعن جمع الزيتون من أشجارهن وتناوله، على سبيل المثال، وربما صيد السمك.

وبالطبع، كما أوضحتا لبعضهما، يمكن أن تقللا الإيجار إلى مبلغ ضئيل لا يُذكر تقريبًا عن طريق زيادة عدد المشاركات، حيث يمكن أن تكون لديهما ست سيدات إضافيات، بدلًا من اثنتين، بالنظر إلى أن هناك ثمانية أسِرَّة. لكن بافتراض أن الأسِرَّة الثمانية وُزعت على أزواج في أربع غرف، فلن يكون الأمر تمامًا كما أرادتا، إذا وجدتا نفسيهما حبيستين في الليل مع شخصين غريبين. علاوة على ذلك، اعتقدتا أن الأمر ربما لا يكون هادئًا تمامًا في وجود مثل هذا العدد من الأشخاص. ففي النهاية، كانتا ذاهبتين إلى سان سالفاتوري من أجل الهدوء والراحة والبهجة، وربما يتعارض وجود ست سيدات أخريات مع ذلك نوعًا ما، ولا سيما إذا دخلن غرفة نوم المرء.

ومع ذلك، بدا أن هناك سيدتين فقط في إنجلترا في تلك اللحظة لديهما الرغبة في الانضمام إليهما، لأنهما لم تتلقَّيا سوى ردين فقط على إعلانهما.

تعافت السيدة ويلكنز سريعًا، إذ إنها تخيلت تدافعًا شديدًا، وقالت:

- حسنًا، لا نريد إلا اثنتين فحسب.

قالت السيدة أربوثنوت:

- أعتقد أنه كان من الجيد توفر حرية الاختيار.

- تقصدين لأننا لم نكن سنحتاج حينها إلى الليدي كارولين ديستر.

احتجت السيدة أربوثنوت بلطف:

- لم أقل ذلك.

قالت السيدة ويلكنز:

- لا داعي لقبولها، فمجرد شخص واحد فقط سيساعدنا كثيرًا في الإيجار، ولسنا ملزمتين بقبول شخصين.

- لكن لماذا لا نقبلها؟ فهي تبدو في الواقع كما نريد تمامًا.

قالت السيدة ويلكنز بشك:

- أجل، تبدو كذلك من رسالتها.

أحست أنها ستشعر بالخجل الشديد من الليدي كارولين، فعلى الرغم من أنه قد يبدو أمرًا لا يُصدق، بالنظر إلى أنهم يشاركون في كل شيء، فإن السيدة ويلكنز لم يسبق أن صادفت أيًا من أعضاء الطبقة الأرستقراطية.

أجرتا مقابلة مع الليدي كارولين، كما أجرتا مقابلة مع المتقدمة الأخرى، وهي السيدة فيشر.

جاءت الليدي كارولين إلى النادي الواقع في شارع شافتسبري، وبدا أنه استحوذت عليها بالكامل رغبة واحدة عظيمة، وهي الرغبة في الابتعاد عن جميع الأشخاص الذين عرفتهم على الإطلاق. عندما رأت النادي والسيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز باتت متأكدة أن هذا هو ما تريده تمامًا. ستكون في إيطاليا، وهو مكان تعشقه، ولن تكون في الفنادق، وهي أماكن تمقتها، كما لن تقيم مع أصدقاء، وهم أشخاص لا تحبهم، بل ستكون بصحبة غرباء لن يذكروا أبدًا شخصًا واحدًا تعرفه، لسبب بسيط هو أنهم لم ولا يمكن أن يعرفوهم، ولن يصادفوهم. طرحت بعض الأسئلة عن المرأة الرابعة، وقنعت بالإجابات. كانت السيدة فيشر أرملة، تسكن في برينس أوف ويلز تيراس، ولن تكون هي أيضًا على دراية بأيٍّ من أصدقائها. لم تكن الليدي كارولين تعرف حتى أين يقع برينس أوف ويلز تيراس.

قالت السيدة أربوثنوت:

- إنه في لندن.

قالت الليدي كارولين:

- حقًّا؟

بدا كل شيء مريحًا للغاية.

لم تتمكن السيدة فيشر من القدوم إلى النادي، لأنها، كما أوضحت

في رسالتها، لا تستطيع المشي من دون عصا، لذلك ذهبت إليها السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز.

تساءلت السيدة ويلكنز بصوت مرتفع:

- لكن إذا لم تكن تستطيع القدوم إلى النادي، فكيف سيمكنها الذهاب إلى إيطاليا؟

قالت السيدة أربوثنوت:

- سنسمع ذلك منها.

لم تسمعا من السيدة فيشر، ردًّا على سؤالهما الدقيق، إلا أن الجلوس في القطارات ليس كالسير في أرجاء المكان، وكانتا تعرفان ذلك بالفعل.

باستثناء العصا، بدت كأنها شخص رابع مرغوب فيه للغاية: هادئة، ومتعلمة، وعجوز. كانت أكبر بكثير في السن منهما أو من الليدي كارولين - أبلغتهما الليدي كارولين أنها في الثامنة والعشرين من عمرها - لكنها لم تكن كبيرة جدًّا إلى درجة أن ذهنها لم يعد نشطًا. وكانت فائقة الاحترام بالفعل، إذ كانت لا تزال ترتدي ملابس سوداء بالكامل على الرغم من وفاة زوجها، كما أخبرتهما، قبل أحد عشر عامًا. امتلأ منزلها بصور فوتوغرافية موقَّعة لأموات لامعين من العصر الفيكتوري، قالت إنها كانت تعرفهم جميعًا إبان طفولتها. كان والدها ناقدًا بارزًا، وقد رأت في منزله كل من له أهمية تقريبًا في مجال الأدب والفن. عبس كارليل في وجهها، وأجلسها ماثيو أرنولد على ركبته، وشاكسها تينيسون بصوت جهوري بخصوص طول ذيل حصانها. عرضت عليهما بحماس الصور المعلقة في كل مكان على جدرانها، مشيرة إلى التوقيعات بعصاها، ولم تقدم أي معلومات عن زوجها كما لم تطلب أي معلومات عن زوجَي زائرتيها، وهو الأمر الذي كان مريحًا للغاية. في الواقع، بدت كأنها تعتقد أنهما أيضًا أرملتان، فعند الاستفسار عن السيدة الرابعة، وعندما قيل لها إنها الليدي كارولين ديستر، قالت:

- هل هي أرملة أيضًا؟

وعندما أوضحتا لها أنها ليست كذلك، لأنها لم تتزوج بعد، قالت بلطف وهي شاردة:

- كل شيء في الوقت المناسب.

لكن شرود السيدة فيشر في حد ذاته - وقد بدا أنها سارحة بشكل رئيسي في الأشخاص المثيرين للاهتمام الذين كانت تعرفهم وفي صورهم التذكارية، وانقضى جزء كبير من المقابلة في تذكر حكايات كارليل وميريديث وماثيو أرنولد وتينيسون ومجموعة من الآخرين - كان شرودها هذا في حد ذاته بمنزلة توصية لصالحها. قالت إن كل ما تطلبه هو السماح لها بالجلوس في هدوء في الشمس، واجترار الذكريات. وكان هذا هو كل ما تطلبه السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز ممن سيشاركهما. كانت فكرتهما عن الشريكة المثالية هي أن تجلس بهدوء في الشمس وتجتر الذكريات، وتنهض في أمسيات السبت في الوقت المناسب لدفع حصتها. قالت السيدة فيشر أيضًا إنها مغرمة جدًّا بالزهور، وذات مرة عندما كانت تقضي عطلة نهاية الأسبوع مع والدها في بوكس هيل...

قاطعتها السيدة ويلكنز قائلة:

- من الذي كان يعيش في بوكس هيل؟

حيث أنصتت باهتمام إلى ذكريات السيدة فيشر، وقد تحمست بشدة للقاء شخص كان يعرف بالفعل كل أولئك العظماء حقًّا من دون شك، ورآهم في الواقع وسمعهم يتحدثون، ولمسهم.

نظرت إليها السيدة فيشر من فوق حافة نظارتها وقد فوجئت بعض الشيء. ففي خضم حماس السيدة ويلكنز للوصول إلى قلب ذكريات السيدة فيشر على نحو سريع، وخوفها من أن السيدة أربوثنوت قد تأخذها بعيدًا في أي لحظة ولن تسنح لها الفرصة لسماع نصف الحديث، سبق أن قاطعتها بالفعل عدة مرات بأسئلة رأتها السيدة فيشر بادية الجهل.

قالت السيدة فيشر بفظاظة نوعًا ما:

- ميريديث بالطبع.
ثم تابعت قائلة:
- أذكر عطلة نهاية أسبوع محددة. كثيرًا ما كان والدي يصطحبني، لكنني لطالما تذكرت عطلة نهاية الأسبوع هذه على وجه الخصوص...
قاطعتها السيدة ويلكنز بحماس:
- هل كنت تعرفين كيتس؟
بعد برهة من الصمت، قالت السيدة فيشر بنبرة متحفظة لاذعة إنها لم تكن تعرف كلًّا من كيتس وشكسبير.
تضرج وجه السيدة ويلكنز بالحمرة، وصاحت قائلة:
- أوه، بالطبع، يا لها من سخافة مني! هذا لأن...
ارتبكت في الحديث، ثم تابعت مؤكدة للسيدة فيشر، التي طالعتها من فوق حافة نظارتها:
- هذا لأن الخالدين يبدون بطريقة ما كما لو أنهم لا يزالون على قيد الحياة، أليس كذلك؟ كما لو أنهم موجودون هنا، وسيدخلون الغرفة في غضون دقيقة، وينسى المرء كونهم أمواتًا. في الواقع، يعرف المرء جيدًا أنهم لم يموتوا، مثلما لم نمت أنا وأنت الآن.
واصلت السيدة ويلكنز حديثها غير المترابط، مدفوعة بنظرة السيدة فيشر إليها من فوق نظارتها:
- ظننت أنني رأيت كيتس منذ عدة أيام، في هامبستيد، وهو يعبر الطريق أمام ذلك المنزل الذي كان يعيش فيه، كما تعلمين...
قالت السيدة أربوثنوت إن عليهما الرحيل.
لم تفعل السيدة فيشر شيئًا لمنعهما.
احتجت السيدة ويلكنز، وهي تناشد واحدة ثم الأخرى لتصديقها، بينما تخضب وجهها، ولم تستطع التوقف عن الحديث قَطُّ بسبب نظارة السيدة فيشر، والعينين الثابتتين اللتين تطالعانها من فوق حافتها:

- اعتقدت حقاً أنني رأيته. أعتقد أنني رأيته بالفعل، كان يرتدي...

حتى السيدة أربوثنوت وجَّهت إليها نظرها الآن، وقالت بأرق صوت لديها إنهما ستتأخران على الغداء.

حينها، طلبت السيدة فيشر الحصول على رسائل تزكية شخصية، إذ لم ترغب في أن تجد نفسها حبيسة لمدة أربعة أسابيع مع شخص تتراءى له الخيالات. من الصحيح أنه توجد هناك ثلاث غرف جلوس، إلى جانب الحديقة والشرفات في سان سالفاتوري، بحيث تكون هناك فرص للانسحاب من صحبة السيدة ويلكنز، لكن السيدة فيشر ستجد الأمر مستهجناً على سبيل المثال لو أن السيدة ويلكنز أكدت فجأة أنها رأت السيد فيشر. كان السيد فيشر قد مات، فلتدعه يبقَ هكذا. لم ترغب في أن يُقال لها إنه يتجول في الحديقة. كانت رسالة التزكية الشخصية الوحيدة التي تريدها في الواقع، هي المتعلقة بصحة السيدة ويلكنز، إذ كانت كبيرة جدًّا في السن وراسخة تمامًا في مكانتها في هذا العالم، بدرجة أكبر من أن تكترث بأمر الرفقاء المشكوك في أمرهم. هل كانت صحتها طبيعية تمامًا؟ هل كانت امرأة عادية طبيعية متزنة؟ شعرت السيدة فيشر بأنها لو حصلت على عنوان واحد حتى، فسوف تتمكن من معرفة ما تحتاج إليه. لذا طلبت الحصول على رسائل تزكية شخصية، وبدا أن زائرتيها فوجئتا بشدة - وفي الواقع انتبهت السيدة ويلكنز على الفور - فأضافت السيدة فيشر قائلة:

- هذا أمر معتاد.

استعادت السيدة ويلكنز قدرتها على الحديث أولًا، وقالت:

- لكن، ألسنا نحن من يجب أن نطلب منك بعض رسائل التزكية الشخصية؟

وبدا للسيدة أربوثنوت أيضًا أن هذا هو الموقف الصحيح، فبالتأكيد كانتا هما من تقبلان السيدة فيشر في جماعتهما، وليست السيدة فيشر هي التي تقبلهما في جماعتها؟

للإجابة عن ذلك، اتكأت السيدة فيشر على عصاها، وتوجهت إلى المكتب، وبيد ثابتة خطَّت ثلاثة أسماء وقدمتها إلى السيدة ويلكنز، وكانت الأسماء فائقة الاحترام، بل وأكثر من ذلك، كانت بالغة الأهمية، وتكاد تكون مبجلة، حتى إن مجرد قراءتها كان كافيًا: رئيس الأكاديمية الملكية للفنون، ورئيس أساقفة كانتربري، ورئيس بنك إنجلترا. من عساه يجرؤ على إزعاج تأملات هذه الشخصيات المهمة للاستفسار عما إذا كانت شخصية إحدى صديقاتهم كما ينبغي لها أن تكون؟

قالت السيدة فيشر:

- لقد عرفوني منذ أن كنت صغيرة.

بدا أن الجميع يعرفون السيدة فيشر منذ أن كانت صغيرة، أو إبان طفولتها.

انفجرت السيدة ويلكنز قائلة:

- لا أعتقد أن رسائل التزكية الشخصية شيء لطيف على الإطلاق بين النساء العاديات المحترمات.

وقد تشجعت لشعورها بأنها في موقف حرج، حيث كانت تعلم جيدًا أن المرجع الوحيد الذي يمكن أن تقدمه من دون الوقوع في المتاعب هو متجر شولبريد، ولم يكن لديها سوى قدر ضئيل من الثقة في ذلك، إذ سيعتمد الأمر كليًّا على أسماك ميلرش. تابعت قائلة:

- نحن لسنا رجال أعمال. لا حاجة بنا إلى الشك في بعضنا.

وقالت السيدة أربوثنوت بكبرياء لا تخلو من اللطف:

- أخشى أن رسائل التزكية الشخصية تضفي على خطتنا للعطلة جوًّا يخالف ما نريده تمامًا، ولا أعتقد أننا سنأخذ رسائلك، أو نعطيك أي رسائل من طرفنا، لذلك أفترض أنك لن ترغبي في الانضمام إلينا.

ثم مدت يدها على سبيل الوداع.

حينها حوَّلت السيدة فيشر نظرتها إلى السيدة أربوثنوت، التي كانت توحي بالثقة والإعجاب، حتى لدى موظفي مترو لندن، وشعرت بأنها

ستكون حماقة منها لو أضاعت فرصة الوجود في إيطاليا في هذه الظروف المحددة المتاحة، وأنها بالتأكيد ستتمكن هي وهذه المرأة الهادئة معًا من كبح جماح تلك الأخرى عندما تتعرض لإحدى نوباتها. لذا تناولت يد السيدة أربوثنوت الممدودة، وقالت:

- حسنًا إذن، سأتنازل عن رسائل التزكية الشخصية.

لقد تنازلت عن رسائل التزكية الشخصية.

في أثناء سيرهما في طريقهما إلى المحطة في شارع كينزينجتون، لم يسعهما إلا التفكير في أن طريقتها هذه في التعبير عن الأمر بدت متعالية للغاية. وحتى السيدة أربوثنوت، الكريمة في البحث عن أعذار للهفوات، ظنت أن السيدة فيشر كان بمقدورها استخدام كلمات أخرى. وعندما وصلت إلى المحطة، وبعد أن باتت دماؤها حامية بفعل السير والصراع مع مظلات الآخرين على الرصيف المزدحم، اقترحت السيدة ويلكنز في الواقع التنازل عن السيدة فيشر.

قالت بحماس:

- إذا كان هناك أي تنازل سيتم، فلنكن نحن من نتنازل.

لكن السيدة أربوثنوت، كالعادة، كبحت جماح السيدة ويلكنز، وبعد قليل، عندما هدأت أعصابها على متن القطار، أعلنت السيدة ويلكنز أن السيدة فيشر ستلين في سان سالفاتوري، وقالت وعيناها متألقتان بشدة:

- أراها وهي تلين هناك.

حينها، جلست السيدة أربوثنوت عاقدة يديها، وقلبت في ذهنها بحثًا عن أفضل طريقة يمكنها من خلالها مساعدة السيدة ويلكنز على عدم رؤية أشياء كثيرة إلى هذا الحد، أو على الأقل أن ترى في صمت، إذا كان يجب عليها ذلك.

٤

رُتِّب الأمر بحيث تسافر السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز معًا، وتصلان إلى سان سالفاتوري مساء يوم الحادي والثلاثين من مارس - وقد قدر المالك، الذي أخبرهما بكيفية الوصول إلى هناك، قدر عدم رغبتهما في بدء وقتهما في القلعة في الأول من أبريل - أما الليدي كارولين والسيدة فيشر، فبما أنهما لم تتعرَّفا إلى بعضهما بعد، ومن ثَمَّ لم تكونا ملزمتين بإثارة ضجر بعضهما خلال الرحلة، حيث لن تتعرَّفا إلى بعضهما إلا في النهاية من خلال التمحيص، فكان من المقرر وصولهما صباح الثاني من أبريل. وبهذه الطريقة، سيكون كل شيء جاهزًا بشكل لائق للاثنتين اللتين بدتا كأنهما، على الرغم من مشاركتهما بقدر متساوٍ، ضيفتان نوعًا ما.

وقعت بعض الحوادث المزعجة قرب نهاية شهر مارس، عندما أخبرت السيدة ويلكنز زوجها بأنها دُعيت إلى إيطاليا، وهي تشعر بالقلق الشديد، وعلى وجهها مزيج من الشعور بالذنب والرعب والتصميم، فرفض تصديق الأمر. بالطبع رفض تصديق ذلك، فلم يسبق أن دعا أحدهم زوجته إلى إيطاليا من قبل. لم تكن هناك سابقة، فطلب البراهين. كان البرهان الوحيد هو السيدة أربوثنوت، فقدمتها السيدة ويلكنز، لكن بعد كثير من التوسلات والإقناع الحار. إذ لم تتخيل السيدة أربوثنوت أنها ستضطر إلى مواجهة السيد ويلكنز، وإخباره بأشياء تفتقر إلى الحقيقة، وقد أكد لها ذلك الأمر الذي ظلت تشتبه فيه بعض الوقت، وهو أنها تنزلق أكثر فأكثر بعيدًا عن الرب.

في الواقع، امتلأ شهر مارس بأكمله باللحظات المزعجة المفعمة بالقلق، وكان شهرًا مضطربًا. لم يتمكن ضمير السيدة أربوثنوت، وقد صار فائق الحساسية بفعل سنوات من التدليل، لم يتمكن من التوفيق بين ما تفعله وبين معاييره السامية المتعلقة بما هو صائب، ولم يمنحها الكثير من السلام. وخزها في أثناء صلواتها، وتخلل توسلاتها للهداية الربانية بأسئلة مقلقة، مثل: «ألست منافقة؟ هل تعنين ذلك حقًّا؟ ألن تصابي بخيبة الأمل إذا تحققت هذه الصلاة؟».

كما أن الطقس الممطر البارد الذي طالت مدته اتخذ صف ضميرها أيضًا، حيث تسبب في المرض بين الفقراء بدرجة أكثر بكثير من المعتاد: أصيبوا بالتهاب الشُّعب الهوائية، وأصيبوا بالحُمى، ولم يكن هناك حد للمحن. وها هي ذي ذاهبة لتنفق أموالًا ثمينة على السفر، لمجرد أن تشعر بالسعادة فحسب. امرأة واحدة. امرأة واحدة سعيدة، وهذه الجماهير المثيرة للشفقة...

لم تستطع النظر إلى وجه الكاهن. لم يكن يعرف، كما لم يكن أحد يعرف ما الذي ستفعله، ومنذ البداية لم تكن قادرة على النظر إلى وجه أي شخص. اعتذرت عن عدم إلقاء الخطب التي تناشد الناس فيها للتبرع بالمال، فكيف يمكنها الوقوف وطلب المال من الناس، في حين أنها هي نفسها تنفق كل ذلك القدر على سعادتها الأنانية؟ بعد أن أخبرت فريدريك بالفعل، ونظرًا إلى رغبتها في تعويض ما ستبدده، قالت إنها ستكون ممتنة إذا تكرم بمنحها بعض المال، فأعطاها على الفور شيكًا بقيمة مائة جنيه إسترليني، لكن ذلك لم يساعدها أو يهدئها. لم يطرح أي أسئلة، وتخضب وجهها بالحمرة. نظر إليها للحظة، ثم أشاح بعيدًا. كان من دواعي ارتياح فريدريك أن تأخذ بعض المال. منحت المبلغ كله على الفور للمنظمة التي تعمل معها، ووجدت نفسها تراودها الشكوك أكثر من أي وقت مضى.

أما السيدة ويلكنز فعلى النقيض، لم يكن لديها أي شك. كانت متأكدة

تمامًا أن قضاء عطلة هو أفضل شيء، وأنه من الرائع والصائب تمامًا أن ينفق المرء مدخراته الخاصة التي جمعها بشق الأنفس على الشعور بالسعادة.

قالت للسيدة أربوثنوت، كي تشجع تلك المرأة الشاحبة:

- فكري كم سنكون ألطف بكثير عندما نعود.

لا، لم تساور السيدة ويلكنز أي شكوك، لكن انتابتها مخاوف، وكان مارس شهرًا مفعمًا بالقلق بالنسبة إليها أيضًا، بينما السيد ويلكنز، الذي لا يدري بأي شيء، يعود يوميًّا في موعد غدائه ويتناول سمكته في صمت وهو يتخيل الشعور بالأمان.

كما أن الأشياء تحدث على نحو محرج للغاية، فمن المدهش حقًّا كم تحدث على نحو محرج. حرصت السيدة ويلكنز بشدة طوال هذا الشهر على أن تقدم لميلرش الطعام الذي يحبه فحسب، واشترته وطهته بحماس أكثر من المعتاد، ونجحت إلى حدٍّ كبير إلى درجة أن ميلرش كان سعيدًا، سعيدًا للغاية، سعيدًا بشدة إلى درجة أنه بدأ يفكر أنه ربما يكون قد تزوج الزوجة الصحيحة في نهاية المطاف، بدلًا من الزوجة غير المناسبة كما كان يشك في كثير من الأحيان. وكانت النتيجة هي أنه في يوم الأحد الثالث من الشهر - وقد اتخذت السيدة ويلكنز قرارًا مرتعبًا أنها في يوم الأحد الرابع من الشهر ستخبر ميلرش بشأن الدعوة التي تلقَّتها، حيث كانت هناك خمسة أيام آحاد في شهر مارس ذاك، وكان من المقرر أن تشرع هي والسيدة أربوثنوت في رحلتهما في يوم الأحد الخامس - وفي يوم الأحد الثالث، إذن، بعد غداء مطهي على نحو جيد للغاية حيث ذاب في فمه بودينج يوركشاير، وكانت فطيرة المشمش مثالية إلى درجة أنه أكلها بالكامل، قال ميلرش وهو يدخن سيجاره بجوار النار المتوهجة بينما يدق البرَد على النافذة:

- أفكر في اصطحابك إلى إيطاليا لقضاء عيد الفصح.

ثم توقف كي تعبر عن دهشتها ونشوتها وامتنانها.

لم يصدر عنها أي شيء، وساد الصمت الغرفة تمامًا، باستثناء البرَد

الذي يصطدم بالنوافذ، وأجيج النار المبهج. لم تستطع السيدة ويلكنز الحديث، إذ أصابها الذهول. كان يوم الأحد التالي هو اليوم الذي نوت مصارحته فيه بالموضوع، ولم تكن قد أعدت بعد حتى صيغة الكلمات التي ستنقل بها الخبر إليه. لم يسافر السيد ويلكنز إلى الخارج منذ ما قبل الحرب، ولاحظ باشمئزاز متزايد مدى غرابة الطقس السيئ المستمر، مع مرور أسبوع تلو أسبوع من الرياح والأمطار، وتشكلت لديه على مهل رغبة في الابتعاد عن إنجلترا في عيد الفصح. كان عمله يسير على نحو جيد للغاية، ويمكنه تحمُّل تكاليف الرحلة. لم تكن ثمة جدوى من سويسرا في شهر أبريل، وبدا هناك جو من الألفة لعيد الفصح في إيطاليا. سيذهب إلى إيطاليا، ولأن الأمر سيثير التعليقات إذا لم يأخذ زوجته، فسيضطر إلى اصطحابها، وعلاوة على ذلك، ستكون مفيدة، حيث إن وجود شخص ثانٍ دائمًا ما يكون مفيدًا في بلد لا يتحدث المرء لغته، لحمل الأشياء والانتظار مع الأمتعة.

توقع انفجارًا من الامتنان والإثارة، وبدا غيابهما أمرًا لا يُصدق، فخلص إلى أنها لا يمكن أن تكون قد سمعته. كانت مستغرقة على الأرجح في حلم يقظة أحمق من نوع ما. من المؤسف كم ظلت طفولية.

أدار رأسه - كان مقعداهما أمام النار - ونظر إليها. كانت تحدق إلى النار مباشرة، ولا شك أن النار هي التي جعلت وجهها محمرًّا إلى هذا الحد.

رفع صوته الواضح المهذب، وتحدث بحدة، حيث كان عدم الانتباه في مثل هذه اللحظة مؤسفًا، وكرر قائلًا:

- أفكر في اصطحابك إلى إيطاليا لقضاء عيد الفصح. ألم تسمعيني؟

أجل، لقد سمعته، وكانت تتساءل عن المصادفة غير العادية - فائقة الغرابة حقًّا - حيث كانت ستخبره للتو الآن... كيف تلقَّت دعوة... دعتها صديقة... في عيد الفصح أيضًا... كان عيد الفصح في أبريل، أليس كذلك؟... كانت صديقتها تمتلك... تمتلك منزلًا هناك...

وفي الواقع، مدفوعة بالرعب والشعور بالذنب والمفاجأة، بدا حديث السيدة ويلكنز غير مترابط بدرجة أكبر من المعتاد، إذا كان ذلك ممكنًا.

كانت ظهيرة مروعة. أحس ميلرش بالسخط الشديد، وعلاوة على أن المتعة التي كان ينويها ارتدت عليه بالمشكلات، فقد أخذ يستجوبها بشدة بالغة. طالبها برفض الدعوة، ونظرًا إلى أنها قبِلتها على هذا النحو المشين من دون استشارته، طالبها بالكتابة وإلغاء قبولها. وعندما وجد نفسه في مواجهة صخرة من العناد الصادم غير المتوقع لديها، رفض تصديق أنها دُعيت إلى إيطاليا على الإطلاق. رفض التصديق بوجود السيدة أربوثنوت هذه، التي لم يسمع عنها من قبل حتى هذه اللحظة، ولم يصدق الأمر إلا عندما حضرت تلك المخلوقة اللطيفة - بصعوبة شديدة، حيث كانت من جانبها ترغب في التخلي عن الأمر برمته، بدلًا من إخبار السيد ويلكنز بما هو أقل من الحقيقة - وأكدت بنفسها أقوال زوجته. لم يسعه إلا أن يصدق السيدة أربوثنوت، إذ أحدثت فيه التأثير نفسه الذي تُوقعه على موظفي مترو الأنفاق. لم تكن في حاجة إلى قول شيء تقريبًا، لكن ذلك لم يحدث فرقًا لدى ضميرها، الذي كان على دراية بالحقيقة، ولن يدعها تنسى أنها أعطته انطباعًا منقوصًا. سألها ضميرها: «هل ترين أي فرق حقيقي بين الانطباع المنقوص والكذبة المعلنة بالكامل؟ لا يرى الرب أي فرق».

بدا ما تبقى من مارس بمنزلة حلم مزعج. أحست كلٌّ من السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز بالانهيار، ومهما حاولتا ألا تفعلا، شعرتا بالذنب الشديد، وعندما انطلقتا في طريقهما أخيرًا صباح يوم الثلاثين من الشهر، لم يكن هنك ابتهاج لسفرهما، ولا شعور بالعطلة على الإطلاق.

أخذتا تذرعان رصيف محطة فيكتوريا جيئة وذهابًا، حيث وصلتا قبل ساعة من موعدهما، وظلت السيدة ويلكنز تغمغم:

- لقد كنا صالحتين للغاية، صالحتين بدرجة زائدة على الحد، ولهذا نشعر كما لو أننا نقترف خطأً. نحن نعاني الترهيب، ولم نعد بشرًا

حقيقيين. فالبشر الحقيقيون لا يلتزمون الصلاح أبدًا مثلما فعلنا. أوه...

كورت قبضتيها النحيلتين وواصلت:

- أعتقد أننا يجب أن نكون سعيدتين للغاية الآن، ونحن هنا في المحطة ذاتها، ونبدأ رحلتنا بالفعل، لكننا لسنا كذلك، وقد فسد الأمر بالنسبة إلينا لمجرد أننا أفسدناهما هما الاثنين!

تابعت قائلة وهي تسأل السيدة أربوثنوت بسخط:

- ماذا فعلنا؟ أود أن أعرف ما الذي فعلناه، سوى أننا أردنا أن نبتعد بمفردنا مرة واحدة، وأن نستريح منهما قليلًا؟

أخذت السيدة أربوثنوت تذرع جيئة وذهابًا بصبر، ولم تسأل من اللذان تعنيهما بكلمة «هما»، لأنها كانت تعرف. كانت السيدة ويلكنز تعني زوجيهما، وقد أصرت على افتراضها بأن فريدريك غاضب مثل ميلرش بشأن رحيل زوجته، في حين أن فريدريك لم يكن يعرف حتى أن زوجته قد رحلت.

التزمت السيدة أربوثنوت الصمت بشأنه على الدوام، ولم تذكر شيئًا من هذا للسيدة ويلكنز. احتل فريدريك في قلبها مكانة أكثر عمقًا من أن تتحدث عنه. انشغل بنوبة إضافية من العمل لينهي كتابًا آخر من تلك الكتب المروعة، وظل غائبًا بشكل مستمر تقريبًا خلال الأسابيع القليلة الماضية، وكان غائبًا عندما رحلت. لماذا يتعين عليها أن تخبره سابقًا؟ كانت بائسة تمامًا وهي متأكدة أنه لن يعترض على أي شيء تفعله. كتبت له رسالة فحسب، ووضعتها على طاولة الردهة لتكون جاهزة له، متى وإذا عاد إلى المنزل. قالت إنها ذاهبة لقضاء إجازة لمدة شهر لأنها في حاجة إلى قسط من الراحة، ولم تحظَ بإجازة منذ فترة طويلة، وأن جلاديس، الخادمة الكفء، لديها أوامر بالقيام على راحته. لم تقل إلى أين هي ذاهبة، فلم يكن هناك سبب يدعوها إلى ذلك، حيث إنه لن يهتم، ولن يكترث.

كان اليوم بائسًا، عاصفًا وممطرًا، وكان عبور القنال فظيعًا، وشعرتا

بالغثيان بشدة. لكن بعد الشعور بالغثيان الشديد، بدا مجرد الوصول إلى كاليه من دون التقيؤ سببًا للسعادة، وهناك بدأت الروعة الحقيقية لما هما مقدمتان عليه تشيع الدفء في روحيهما الخدرتين لأول مرة. تملَّك الأمر من السيدة ويلكنز أولًا، وانتشر منها كلهب وردي إلى رفيقتها الشاحبة. في كاليه، حيث استردتا قوتيهما بأن تناولتا سمك موسى، لرغبة السيدة ويلكنز في أكل سمكة موسى لا يتناولها ميلرش، بدا أن ميلرش أخذ يتضاءل هناك بالفعل، وصار أقل أهمية. لم يكن أيٌّ من الحمَّالين الفرنسيين يعرفه، ولم يكترث أي مسؤول في كاليه بميلرش قَطُّ. ولم يكن هناك وقت للتفكير فيه في باريس، لأن قطارهما تأخر، ولحقتا بالكاد بالقطار المتجه إلى تورينو في محطة ليون. وبحلول عصر اليوم التالي عندما وصلتا إلى إيطاليا، كانت إنجلترا، وفريدريك، وميلرش، والكاهن، والفقراء، وهامبستيد، والنادي، ومتجر شولبريد، وكل شخص، وكل شيء، وكل تلك الكآبة المؤلمة الملتهبة، كلها تلاشت وصارت معتمة كالحلم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٥

كان الجو غائمًا في إيطاليا، وهو الأمر الذي فاجأهما، حيث توقعتا أشعة شمس مشرقة، لكن لا يهم، فهذه إيطاليا، وقد بدت الغيوم نفسها ممتلئة. لم يسبق أن أتت أيٌّ منهما إلى هنا من قبل، وحدقتا من النوافذ بوجهين منتشيين. مرت الساعات سريعًا خلال النهار، وبعد ذلك كانت هناك إثارة الاقتراب، والدنو بشدة، والوصول إلى هناك. بدأ الجو يمطر في جنوة... جنوة! تخيل الوجود في جنوة بالفعل، ورؤية اسمها مكتوبًا في المحطة تمامًا مثل أي اسم آخر. هطل المطر في نيرفي، وعندما وصلتا أخيرًا إلى ميتزاجو قرب منتصف الليل، حيث تأخر القطار مرة أخرى، بدا المطر كما لو أنه ينهمر في شكل جدار صلب. لكن هذه إيطاليا، ولا يمكن أن يكون شيء مما يحدث هنا سيئًا إلى هذا الحد. بدا المطر مختلفًا تمامًا: أمطار رأسية، تسقط على مظلة المرء كما يجب، وليست تلك الأمطار الإنجليزية العنيفة التي تتطاير في كل مكان. كما كانت تتوقف بالفعل، وعندما يحدث ذلك، سترى الأرض مفروشة بالورد.

قال السيد بريجز، مالك سان سالفاتوري:

– ستنزلان في ميتزاجو، ثم تستقلان عربة.

لكنه نسي ما كان يعرفه جيدًا، وهو أن القطارات في إيطاليا تتأخر أحيانًا، وتخيل وصول المستأجرتين إلى ميتزاجو في الساعة الثامنة، حيث ستجدان سلسلة من العربات للاختيار من بينها.

تأخر القطار أربع ساعات، وعندما هرولت السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز لنزول درجات عربة القطار الشبيهة بالسلم الخشبي وسط ظلمة المطر المنهمر، كانت تنورتاهما تخوضان وسط برك كبيرة من المياه القذرة، لأن أيديهما كانت مليئة بالحقائب، ولولا يقظة دومينيكو، البستاني في سان سالفاتوري، لما وجدتا شيئًا تستقلانه. انصرفت جميع المركبات العادية منذ وقت طويل، وقد توقع دومينيكو ذلك، فأرسل عربة عمته، يقودها ابنها، ابن عمته، وكانت عمته وعربتها تسكنان في كاستانييتو، القرية التي تقبع عند سفح سان سالفاتوري، ومن ثَمَّ مهما تأخر القطار، فلن تجرؤ العربة على العودة إلى المنزل وهي خالية ممن أُرسلت لجلبهما.

كان اسم ابن عمة دومينيكو هو بيبو، وما لبث أن خرج من وسط الظلام، حيث وقفت السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز، غير متأكدتين مما يجب فعله بعد أن مضى القطار في طريقه، لأنهما لم تتمكنا من رؤية أي حمَّال، واستشعرتا بأنهما لا تقفان على رصيف محطة، بل في منتصف الطريق العادي.

خرج بيبو من وسط الظلام بما يشبه الانقضاض، حيث كان يبحث عنهما، وتحدث معهما بصخب باللغة الإيطالية. كان بيبو شابًّا محترمًا للغاية، لكنه لم يبدُ كذلك، ولا سيما في الظلام، وهو يرتدي قبعة تقطر بالمطر، مائلة فوق إحدى عينيه. لم تعجبهما الطريقة التي قبض بها على حقائبهما، واعتقدتا أنه لا يمكن أن يكون حمَّالًا. ومع ذلك، ما لبثتا أن ميزتا من وسط حديثه المتدفق كلمة «سان سالفاتوري»، فظلتا تكررانها له بعد ذلك، حيث كانت الكلمة الإيطالية الوحيدة التي تعرفانها، بينما أسرعتا في طريقهما خلفه، غير راغبتين في إغفال حقائبهما، وتعثرتا في المرور عبر القضبان وخلال البرك، إلى حيث وقفت في الطريق عربة صغيرة مرتفعة.

كان سقف العربة مرفوعًا، والحصان يقف متفكرًا. ركبتا العربة، وبمجرد صعودهما إليها – في الواقع تمكنت السيدة ويلكنز بالكاد من الركوب –

استيقظ الحصان فجأة من شروده، وشرع في العودة إلى المنزل على الفور، من دون بيبو، ومن دون الحقائب.

اندفع بيبو خلفهما، وترددت صيحاته وسط الليل، ثم أمسك بالزمام المعلق في الوقت المناسب تمامًا. أوضح لهما بفخر، وبما بدا له أنه بوضوح تام، أن الحصان يفعل ذلك دائمًا، ونظرًا إلى كونه حيوانًا جميلًا مشبعًا بالذرة والدماء الحامية، ويهتم به بيبو كما لو أنه ابنه شخصيًّا، يجب ألا تشعرا بالخوف، حيث لاحظ أنهما تتشبثان ببعضهما، لكن على الرغم من وضوح حديثه وارتفاع صوته وغزارة كلماته، فإنهما حدقتا إليه بوجوم فحسب. ومع ذلك، واصل الحديث وهو يكدس الحقائب حولهما، وهو على ثقة بأنهما ستفهمانه عاجلًا أم آجلًا، ولا سيما أنه حرص على التحدث بصوت مرتفع للغاية، مع شرح كل ما قاله بأبسط الإيماءات التوضيحية، لكنهما واصلتا النظر إليه فحسب. لاحظ بتعاطف أن لكلٍّ منهما وجهًا شاحبًا مرهقًا، ولكلٍّ منهما عينين واسعتين مرهقتين. فكر أنهما سيدتان جميلتان، وأن أعينهما التي تطل عليه من فوق الحقائب وتراقب كل حركة من حركاته - لم تكن هناك أي صناديق، بل مجرد عدد من الحقائب - تشبه عينَي السيدة العذراء. الشيء الوحيد الذي قالته السيدتان، وكررتاه على فترات منتظمة، حتى بعد أن مضوا في طريقهم، وهما تحثانه بلطف للفت انتباهه إلى الأمر بينما هو جالس في مقعد السائق:

- سان سالفاتوري؟

وفي كل مرة أجاب بالإيطالية بصوت عالٍ مشجعًا:

- أجل، أجل، سان سالفاتوري.

بعد أن استمروا في المسير لما بدا لهما كأنه فترة طويلة، وابتعدوا عن الطريق المرصوف بالأحجار في البلدة التي يلفها النوم، وخرجوا إلى طريق متعرج لم تتمكنا من رؤية شيء فيه سوى جدار منخفض على يسارهما، ووراءه فراغ أسود كبير وصوت البحر، قالت السيدة أربوثنوت أخيرًا بصوت منخفض:

- لا نعرف بالطبع ما إذا كان سيأخذنا إلى هناك.

على يمينهما، كان هناك شيء قريب ومنحدر ومرتفع وداكن: صخور، همستا إلى بعضهما، صخور ضخمة.

وافقتها السيدة ويلكنز، وقد سرت في ظهرها قشعريرة خفيفة، وقالت:

- لا، لا نعرف ذلك.

شعرتا بعدم الارتياح بدرجة شديدة، إذ كان الوقت متأخرًا للغاية، والظلام حالكًا جدًّا. بدا الطريق منعزلًا تمامًا. ماذا لو انخلعت عجلة، أو ماذا لو قابلهم بعض الفاشيين، أو من هم على النقيض من الفاشيين؟ كم شعرتا بالندم الآن، أنهما لم تبيتا في جنوة، حتى تحضرا في صباح اليوم التالي في وضح النهار.

قالت السيدة ويلكنز بصوت منخفض:

- لكن ذلك كان سيصير في الأول من أبريل.

فهمست السيدة أربوثنوت قائلة:

- إنه الأول من أبريل الآن.

غمغمت السيدة ويلكنز:

- إنه كذلك بالفعل.

التزمتا الصمت.

التفت بيبو من مكانه في مقعد السائق - وهي عادة مقلقة لاحظتاها بالفعل، فمن المؤكد أنه يجب مراقبة حصانه بعناية - وخاطبهما مرة أخرى بما كان مقتنعًا أنه أسلوب واضح تمامًا، من دون لهجة محلية، ومع إيماءات تفسيرية واضحة بقدر الإمكان.

لكَم تمنَّتا أن والدتيهما جعلتاهما تتعلمان الإيطالية إبان طفولتهما. لو أنهما تمكنتا الآن من أن تقولا فحسب: «من فضلك اعتدل في جلستك، وانتبه للحصان». لكنهما لم تعرفا حتى معنى «حصان» بالإيطالية. كان من الجدير بالازدراء أن يتصف المرء بالجهل إلى هذا الحد.

في خضم قلقهما، حيث التف الطريق حول صخور بارزة ضخمة، ولم

يكن هناك من جهة اليسار سوى ذلك الجدار المنخفض لإبعادهم عن البحر في حال حدوث أي شيء، شرعتا هما أيضًا في استخدام الإيماءات، ولوَّحتا بأيديهما إلى بيبو، مشيرتين نحو الأمام. أرادتا منه أن يستدير مرة أخرى ويواجه حصانه، هذا كل ما في الأمر. ظن أنهما تريدانه أن يقود العربة بسرعة أكبر، وأعقب ذلك عشر دقائق مرعبة افترض خلالها أنه يرضيهما. كان فخورًا بحصانه، الذي في وسعه المضي بسرعة كبيرة للغاية. نهض في مقعده وفرقع بسوطه، فاندفع الحصان إلى الأمام، ووثبت الصخور تجاههم، وتمايلت العربة الصغيرة، وتراقصت الحقائب، وتشبثت السيدة أربوثنوت والسيدة ويلكنز بمقعديهما. وعلى هذا النحو، استمروا في طريقهم وهم يتمايلون ويتأرجحون ويهتزون ويتشبثون، حتى وصلوا إلى نقطة عند كاستانييتو كان الطريق يرتفع عندها، وعند الوصول إلى سفح المرتفع، توقف الحصان الذي كان يعرف كل شبر من الطريق فجأة، فتكوم كل شيء داخل العربة، ثم انطلق صاعدًا الطريق بأبطأ خطوة ممكنة.

التفت بيبو ليتلقَّى إعجابهما، ضاحكًا على حصانه بفخر.

لم يجد استجابة ضاحكة من السيدتين الجميلتين، بل بدت أعينهما المثبتة عليه أوسع مما سبق، وبدا وجهاهما شاحبين وسط ظلمة الليل.

لكن هنا على الأقل، ما إن صعدوا المنحدر، حتى ظهرت المنازل. اختفت الصخور، وظهرت المنازل. كما اختفى الجدار المنخفض، وحلت محله المنازل. اختفى البحر، وانقطع صوته، وانتهت عزلة الطريق. لم تكن ثمة أنوار في أي مكان بالطبع، ولا أحد ليراهم في أثناء مرورهم، ومع ذلك، عندما بدأت المنازل في الظهور، وبعد أن التفت بيبو وراء كتفه وصاح في السيدتين قائلًا: «كاستانييتو»، وقف مرة أخرى وفرقع بسوطه، وجعل حصانه يندفع قُدمًا مرة ثانية.

تشبثت السيدة أربوثنوت، وقالت لنفسها: «سنصل إلى هناك خلال دقيقة».

كما تشبثت السيدة ويلكنز قائلة لنفسها: «سرعان ما سنتوقف الآن». لم

تتفوَّها بشيء بصوت مرتفع، لأنه لم يكن من الممكن سماع أي شيء فوق صوت فرقعة السوط، وقعقعة العجلات، والضوضاء الصاخبة التي أصدرها بيبو ليحث حصانه.

حدقتا بقلق بحثًا عن أي أثر لبداية سان سالفاتوري.

كانتا قد افترضتا وتمنَّتا أنه بعد مرور مسافة معقولة من القرية، سيلوح أمامهم باب مقوس يعود إلى العصور الوسطى، وسيمرون عبره بالعربة إلى حديقة، ثم يتوقفون أمام باب مفتوح في ترحيب، والضوء يتدفق منه، وقد اصطف أمامه أولئك الخدم الذين بقوا هناك، وفقًا للإعلان.

بدلًا من ذلك توقفت العربة فجأة.

نظرتا إلى الخارج، حيث كان في وسعيهما رؤية أنهم ما زالوا في نفس الشارع بالقرية، والمنازل الصغيرة المظلمة على كلا الجانبين. ألقى بيبو الزمام على ظهر حصانه، كما لو أنه واثق تمامًا هذه المرة بأنه لن يذهب أبعد من ذلك، ونزل من مقعده. في اللحظة نفسها، قفز رجل وعدة أولاد نصف بالغين كما لو أنهم خرجوا من العدم على جانبَي العربة، وبدأوا يسحبون الحقائب.

صاحت السيدة ويلكنز وهي تحاول التشبث بما استطاعت من الحقائب:

- لا، لا، سان سالفاتوري، سان سالفاتوري...

فصاحوا جميعًا بالإيطالية وهم يجذبون الحقائب:

- أجل، أجل، سان سالفاتوري، سان سالفاتوري.

قالت السيدة ويلكنز:

- لا يمكن أن تكون هذه سان سالفاتوري.

والتفتت إلى السيدة أربوثنوت، التي جلست في سكون تام، تراقب حقائبها وهي تؤخذ منها بنفس الصبر الذي تطبقه على أهون الشرور. كانت تعلم أنها لن تستطيع فعل أي شيء إذا كان هؤلاء الرجال أشرارًا مصممين على الاستيلاء على حقائبها.

اعترفت قائلة:

- لا أعتقد أنها يمكن أن تكون كذلك.

ولم تستطع الامتناع عن التعجب للحظة من طرق الرب. هل أُحضرت إلى هنا حقًّا، هي والسيدة ويلكنز المسكينة، بعد كثير من المتاعب لترتيب الأمر، وكثير من الصعوبات والقلق، عبر كل هذه الطرق الملتوية من المراوغة والخداع، فقط كي...

كبتت أفكارها تلك، وقالت للسيدة ويلكنز بلطف إنهما بين يدَي الرب، بينما اختفى الفتية ذوو الملابس الرثة في ظلمة الليل، وساعد الرجل الذي يحمل المصباح بيبو في رفع الدثار عنها، وعند سماع ذلك أحست السيدة ويلكنز بالخوف للمرة الأولى.

لم يكن هناك ما يمكن فعله سوى الترجل، فلم تكن هناك جدوى من محاولة الاستمرار في الجلوس في العربة، وتكرار كلمة «سان سالفاتوري». في كل مرة قالتا فيها ذلك، وقد صار صوتاهما أكثر خفوتًا في كل مرة، ردد بيبو والرجال الآخرون تلك الكلمات فحسب في سلسلة من الصيحات الصاخبة. لو أنهما فقط تعلمتا الإيطالية إبان طفولتهما. لو أنهما تمكنتا فحسب من قول: «نريد توصيلنا بالعربة حتى الباب». لكنهما لم تعرفا حتى معنى كلمة «باب» باللغة الإيطالية. لم يكن مثل هذا الجهل جديرًا بالازدراء فحسب، بل رأتا الآن أنه خطير، بكل تأكيد. ومع ذلك، فلم تكن هناك جدوى من تأجيل ما سيحدث لهما عن طريق محاولة الاستمرار في الجلوس في العربة، لذا ترجلتا منها.

فتح لهما الرجلان مظلتيهما، وسلماهما لهما. أمدهما هذا بالتشجيع نوعًا ما، لأنهما لم تصدقا أن هذين الرجلين سيتوقفان لفتح المظلات إذا كانا شريرين. ثم أشار إليهما الرجل الذي يحمل المصباح كي تتبعاه، وهو يتحدث سريعًا بصوت مرتفع، ولاحظتا أن بيبو تخلف وراءهم. هل يجب أن تدفعا له المال؟ فكرتا أنهما لن تفعلا، ليس إذا كانتا ستتعرضان للسرقة، وربما

القتل. فمن المؤكد أن المرء لا يدفع المال في مثل هذه المناسبة. علاوة على ذلك، فهو لم يوصلهما إلى سان سالفاتوري في نهاية المطاف. من الواضح أنهما وصلتا إلى مكان آخر. كما أنه لم يظهر أدنى رغبة في الحصول على أجر، وسمح لهما بالاختفاء وسط الليل من دون ضجيج على الإطلاق. لم تستطيعا منع أنفسهما من التفكير في أن هذه علامة سيئة. لم يطلب شيئًا في الوقت الحالي، لأنه كان سيحصل على الكثير جدًّا.

وصلوا إلى بعض الدرجات، حيث انتهى الطريق فجأة بكنيسة، وبعض الدرجات النازلة إلى الأسفل. خفض لهما الرجل المصباح كي تتمكنا من رؤية الدرجات.

قبل أن تنزل الدرج، قالت السيدة ويلكنز مرة أخرى، بصوت ضعيف للغاية:

- سان سالفاتوري؟

لم تكن هناك جدوى من ذكر ذلك الآن بالطبع، لكنها لم تستطع نزول الدرج في صمت تام. كانت على يقين من أنه لم تُبنَ أي قلعة من العصور الوسطى أسفل درج.

مع ذلك، أتت الصيحة المكررة مرة أخرى:

- أجل، أجل، سان سالفاتوري.

نزلتا بحذر، وهما ترفعان تنورتيهما كما لو أنهما ستحتاجان إليهما مرة أخرى، ولم تنتهِ حاجتهما إلى التنانير إلى الأبد على الأرجح.

انتهى الدرج بممر شديد الانحدار، مرصوف بألواح حجرية مسطحة في منتصفه. انزلقتا كثيرًا فوق هذه الألواح الحجرية المبللة، فرفعهما الرجل الذي يحمل المصباح، وهو يتحدث بسرعة بصوت مرتفع، وكانت الطريقة التي رفعهما بها مهذبة.

وصلوا إلى أسفل الممر المنحدر، وومض ضوء المصباح على مساحة مفتوحة تحيط بها المنازل من ثلاثة جوانب، والبحر من الجانب الرابع، يتقدم ويتراجع بتكاسل وهو يجري فوق الحصى.

أشار الرجل بمصباحه إلى كتلة سوداء التفت حول الماء كذراع تحيط به، وقال:

- سان سالفاتوري.

أجهدتا أعينهما بالتحديق، فشاهدتا الكتلة السوداء، وعلى قمتها ضوء.

كررتا بنبرة من عدم التصديق:

- سان سالفاتوري؟

إذن أين كانت حقائبهما، ولماذا أُجبرتا على النزول من العربة؟

- أجل، أجل، سان سالفاتوري.

ساروا عبر ما بدا أنه رصيف ميناء، على حافة الماء مباشرة. لم يكن ثمة جدار منخفض هنا، ولا شيء يمنع الرجل الذي يحمل المصباح من دفعهما في الماء إذا أراد. لكنه مع هذا لم يدفعهما في الماء، وعندما لاحظت ذلك، قالت السيدة ويلكنز للسيدة أربوثنوت إنه من المحتمل في النهاية أن يصير كل شيء على ما يرام، وكانت السيدة أربوثنوت نفسها قد بدأت تفكر أن هذا ربما يكون صحيحًا، فلم تقل مزيدًا عن يدَي الرب.

تراقص وميض المصباح عبر الطريق، منعكسًا على رصيف الميناء الرطب. إلى اليسار، وسط الظلام، عند نهاية ما بدا بوضوح أنه مرسى، كان هناك ضوء أحمر. وصلوا إلى باب مقوس به بوابة حديدية ثقيلة، ودفع الرجل الذي يحمل المصباح البوابة ليفتحها. هذه المرة، كانت الدرجات تؤدي إلى الأعلى بدلًا من الأسفل، وعند قمتها كان هناك ممر صغير يتعرج صاعدًا وسط الزهور. لم تتمكنا من رؤية الزهور، لكن بدا من الواضح أن المكان كله كان ممتلئًا بها.

هنا خطر للسيدة ويلكنز أنه ربما كان السبب في عدم توصيلهما بالعربة إلى الباب هو عدم وجود طريق، بل مجرد ممر للمشاة، كما سيفسر ذلك أيضًا اختفاء الحقائب. بدأت تشعر بالثقة بأنهما ستجدان حقائبهما في انتظارهما عندما تصلان إلى القمة. بدا أن سان سالفاتوري تقع على قمة تل، كما ينبغي

أن تكون قلعة من العصور الوسطى. وعند منعطف في الممر، شاهدتا فوقهما الضوء الذي شاهدتاه من رصيف الميناء، وقد صار أقرب كثيرًا الآن، ويلتمع على نحو أكثر إشراقًا. أخبرت السيدة أربوثنوت بأمر قناعتها الجديدة تلك، ووافقتها السيدة أربوثنوت بأنها محقة على الأرجح.

مرة أخرى، لكن هذه المرة بنبرة أمل حقيقي، قالت السيدة ويلكنز، مشيرة إلى الأعلى نحو الهيئة السوداء البادية على خلفية السماء الأقل سوادًا بدرجة طفيفة:

- سان سالفاتوري؟

ومرة أخرى، لكن هذه المرة على نحو مريح ومشجع، عاد التأكيد:

- أجل، أجل، سان سالفاتوري.

عبروا جسرًا صغيرًا فوق ما بدا أنه وادٍ، ثم ظهرت منطقة مسطحة نوعًا ما، وعلى جانبيها عشب طويل ومزيد من الزهور. شعرتا بالعشب المبلل وهو يتحرك ملامسًا جواربهما، وانتشرت الزهور غير المرئية في كل مكان. ثم صعدوا مرة أخرى من بين الأشجار عبر طريق متعرج. وطوال الطريق فاحت رائحة الزهور التي لم تتمكنا من رؤيتها، حيث أخرج المطر الدافئ كل العذوبة الكامنة. صعدوا أكثر فأكثر نحو الأعلى وسط ذلك الظلام العذب، وانخفض الضوء الأحمر الكائن عند المرسى تحتهم أكثر فأكثر.

التف الممر إلى الجانب الآخر مما بدا أنه شبه جزيرة صغيرة، واختفى المرسى والضوء الأحمر، وظهرت أضواء بعيدة عبر الفراغ الممتد جهة اليسار.

لوَّح الرجل نحو الأضواء بمصباحه، وقال:

- ميتزاجو.

أجابتاه قائلتين بالإيطالية:

- أجل، أجل.

إذ إنهما تعلمتا هذه الكلمة بالإيطالية الآن، وحينها هنأهما الرجل على

لغتهما الإيطالية الرائعة بسيل عظيم من الكلمات المهذبة، لم تفهما أيًّا منها.

كان الرجل هو دومينيكو، البستاني اليقظ والمتميز في سان سالفاتوري، والعمود الذي تقوم عليه الدار، واسع الحيلة، الموهوب، البليغ، المهذب، الذكي دومينيكو، لكنهما لم تعرفا ذلك بعد. وفي الظلام، وأحيانًا حتى في الضوء، كان يبدو شبيهًا للغاية بشخص شرير، بملامحه السمراء الحادة كسكين، وحركاته السريعة كالفهد.

مروا بجزء مسطح آخر من الممر، وارتفعت على يمينهم هيئة سوداء أشبه بجدار شاهق، ثم صعد الممر مرة أخرى تحت تعريشات، واشتبكت بهم فروع متدلية عطرة، وسقطت عليهم منها قطرات المطر. ومض ضوء المصباح فوق الزنابق، ثم ظهرت مجموعة من الدرجات القديمة التي تآكلت عبر القرون، ثم بوابة حديدية أخرى، صاروا بالداخل بعدها، على الرغم من أنهم استمروا في صعود مجموعة من الدرجات الحجرية الملتفة، تحيطها من الجانبين جدران قديمة مثل جدران الأبراج المحصنة، ويعلوها سقف محدب.

كان هناك باب من الحديد المزخرف عند القمة، والتمع عبره فيض من الضوء الكهربائي.

أسرع دومينيكو صاعدًا أمامهما الدرجات الأخيرة القليلة برشاقة، ودفع الباب قائلًا بالإيطالية:

– ها نحن أولاء.

وكانتا هناك بالفعل، وقد وصلتا. كانت هذه سان سالفاتوري، والحقائب في انتظارهما، ولم تتعرضا للقتل.

تبادلتا النظر بجدية بالغة إلى وجهيهما الشاحبين وأعينهما التي تطرف.

كانت لحظة عظيمة رائعة، فها هما تانِ أخيرًا في قلعتهما التي تعود إلى العصور الوسطى، وقد لامست أقدامهما حجارتها.

أحاطت السيدة ويلكنز عنق السيدة أربوثنوت بذراعها، وقبَّلتها.

قالت بهدوء وبجدية:

- أول شيء يحدث في هذا المنزل، سيكون قُبلة.

قالت السيدة أربوثنوت:

- عزيزتي لوتي.

وقالت السيدة ويلكنز وعيناها مليئتان بالسرور:

- عزيزتي روز.

غمر السرور دومينيكو، حيث أحب رؤية السيدتين الجميلتين وهما تتبادلان القبلات. ألقى عليهما خطاب ترحيب بتقدير بالغ، بينما وقفتا عاقدتين ذراعيهما ببعضهما، وقد سندت كلٌّ منهما الأخرى، إذ غلبهما التعب الشديد، ورمشتا وهما تبتسمان له، من دون فهم كلمة واحدة.

٦

عندما استيقظت السيدة ويلكنز صباح اليوم التالي، ظلَّت مستلقية في الفراش بضع دقائق قبل أن تنهض وتفتح المصاريع. ماذا سترى من نافذتها؟ عالمًا تسطع به الشمس، أم عالمًا ممطرًا؟ لكنه سيبدو جميلًا. أيًّا ما كان، سيبدو جميلًا.

كانت في غرفة نوم صغيرة لها جدران بيضاء عارية وأرضية حجرية، وبها أثاث قديم متناثر. أما الفراش - كان هناك اثنان - فكان مصنوعًا من الحديد المطلي بالمينا السوداء، ورُسمت عليه باقات من الزهور المبهجة. ظلت مستلقية، كي تؤجل تلك اللحظة العظيمة التي تتوجه فيها إلى النافذة، كما يؤجل المرء فتح رسالة ثمينة، فرحًا بها. لم تكن لديها أي فكرة عن الوقت، حيث نسيت ملء ساعتها منذ فترة طويلة مضت، عندما أخلدت إلى النوم آخر مرة في هامبستيد. لم تكن هناك أي أصوات مسموعة في المنزل، لذا افترضت أن الوقت مبكر جدًّا، ومع ذلك شعرت كما لو أنها نامت فترة طويلة، وشعرت بالارتياح التام والرضا البالغ. استلقت وذراعاها حول رأسها وهي تفكر في مدى سعادتها، وقد انحنت شفتاها نحو الأعلى في ابتسامة مبتهجة. كانت بمفردها في الفراش: يا له من وضع رائع. لم تنَم في الفراش بمفردها من دون ميلرش ولا مرة واحدة حتى الآن منذ خمس سنوات بأكملها، وتمتعت بتلك الرحابة الباردة على نحو لطيف، وحرية الحركة، والشعور بالجسارة والجرأة لسحب البطانيات إذا رغب المرء، أو تحريك الوسائد في وضع مريح بدرجة أكبر! بدا الأمر أشبه باكتشاف متعة جديدة تمامًا.

كانت السيدة ويلكنز تتوق إلى النهوض وفتح المصاريع، لكن مكانها ذاك كان رائعًا للغاية حقًا. أطلقت تنهيدة ارتياح، وظلت مستلقية وهي تنظر حولها، وتستوعب كل شيء في الغرفة: غرفتها الصغيرة الخاصة، التي يمكنها ترتيبها كما تشاء خلال هذا الشهر المبارك، غرفتها التي استأجرتها بمدخراتها الخاصة، ثمرة حرصها وحرمانها، والتي يمكن أن تغلق بابها إذا أرادت، من دون أن يكون لأحد الحق في الدخول. بدت غرفة صغيرة غريبة للغاية، مختلفة تمامًا عن أي غرفة عرفتها من قبل، وكانت لطيفة جدًا. بدت كالصومعة، وباستثناء الفراشين، كانت توحي ببساطة شديدة مبهجة. ابتسمت وهي تتأمل الغرفة حولها، وفكرت في الاقتباس القائل: «وكان اسم الغرفة السلام».

حسنًا، بدا ذلك رائعًا، أن ترقد هنا وتفكر في مدى سعادتها، لكن ما يكمن وراء تلك المصاريع كان أشد روعة بعد. وثبت واقفة وارتدت نعليها، حيث لم يكن ثمة شيء على الأرض الحجرية سوى بساط واحد صغير، وهرعت إلى النافذة وفتحت المصاريع.

صاحت السيدة ويلكنز:

- أوه!

اجتمع كل تألق لشهر أبريل في إيطاليا عند قدميها. دخلت الشمس وتدفقت فوقها، ورقد البحر نائمًا خلال ذلك الشهر، من دون حركة تقريبًا. وعبر الخليج كانت الجبال الجميلة ذات الألوان المتباينة على نحو رائع نائمة تحت الضوء هي الأخرى، وتحت شباكها، عند سفح المنحدر العشبي الذي تتناثر فيه الزهور كالنجوم، والذي يرتفع منه جدار القلعة، كانت هناك شجرة سرو ضخمة، تقطع درجات الألوان الزرقاء والبنفسجية الرقيقة والوردية للجبال والبحر مثل سيف أسود عظيم.

ظلت تحدق. يا له من جمال، وهي هناك كي تراه. يا له من جمال، وهي على قيد الحياة لتشعر به. غمر وجهها الضوء، وتسللت الروائح الجميلة إلى

النافذة وداعبتها. أتى نسيم خفيف وحرك شعرها بلطف. بعيدًا في الخليج، حامت مجموعة من قوارب الصيد شبه الساكنة مثل قطيع من الطيور البيضاء على سطح البحر الهادئ. كم هو جميل، كم هو جميل. ألا يموت المرء قبل هذا... وتسنح له الفرصة لرؤية كل هذا واستنشاقه والشعور به... ظلت تحدق وشفتاها منفرجتان. هل كانت سعيدة؟ يا لها من كلمة يومية عادية تافهة. لكن ماذا يمكن للمرء أن يقول، وكيف يمكنه وصف الأمر؟ بدا الأمر كما لو أنها بالكاد تستطيع احتواء نفسها، كما لو أن الضوء غسلها من الداخل. كم كان من المدهش الشعور بهذا النعيم المطلق، فها هي ذي لا تفعل ولن تفعل شيئًا واحدًا لا يتسم بالأنانية، ولن تفعل شيئًا لا تريد فعله. ووفقًا لكل الأشخاص الذين صادفتهم من قبل، كان من المفترض أن تعاني على الأقل وخز الضمير، لكنها لم تشعر بأي وخز. كان هناك خطأ في مكان ما. من المدهش أنها التزمت الصلاح التام في المنزل، وكانت صالحة للغاية، ولم تشعر إلا بالعذاب. كانت من نصيبها الوخزات من كل الأنواع، والأوجاع والآلام والإحباط، مع أنها ثبتت على التزام عدم الأنانية طوال الوقت. وها هي ذي الآن خلعت ثوب الصلاح تمامًا، وتركته خلفها ككومة من الملابس المبللة بالمطر، ولم تشعر إلا بالبهجة. كانت عارية من أي صلاح، وفرحة بعريها ذاك. تجردت من ثيابها وابتهجت. وهناك، بعيدًا في جو هامبستيد الرطب المعتم، كان ميلرش غاضبًا.

حاولت أن تتخيل ميلرش، وحاولت رؤيته يتناول الإفطار ويفكر فيها بمرارة، ويا للعجب، بدأ ميلرش نفسه يلمع، وأصبح لونه ورديًا، ثم أصبح بنفسجيًا رقيقًا، وصار أزرق ساحرًا، وبات بلا شكل، وأصبح قزحي الألوان. في الواقع، بعد أن ارتجف ميلرش للحظة، غاب وسط الضوء.

ظلت السيدة ويلكنز تحدق، كما لو أنها تحدق إليه، وفكرت قائلة لنفسها: «حسنًا». كم كان من الغريب ألا تتمكن من تخيل ميلرش، وهي التي كانت تعرف كل سمة من سماته وكل تعبير من تعبيراته عن ظهر قلب. ببساطة،

لم تستطع رؤيته كما كان. لم تستطع إلا أن تراه يتحوَّل إلى جمال، ويذوب في تناغم مع كل شيء آخر. أتت إلى ذهنها بشكل طبيعي تمامًا الكلمات المألوفة لصلاة الشكر العام، ووجدت نفسها تشكر الرب بصوت مرتفع في فورة من الامتنان، من أجل خلقها وحفظها، وكل نعم هذه الحياة، وقبل كل شيء آخر، من أجل حبه الذي لا يُقدر بثمن. بينما كان ميلرش في تلك اللحظة يرتدي حذاءه بغضب قبل الخروج إلى الشوارع التي تقطر بالمطر، ويفكر فيها بمرارة بالفعل.

بدأت تبدل ملابسها، واختارت ملابس بيضاء نظيفة على شرف ذلك اليوم الصيفي، وأفرغت حقائبها، ورتبت غرفتها الصغيرة الرائعة. تحركت بخطوات سريعة هادفة، وجسدها الطويل النحيل مشدود باستقامة، ووجهها الصغير، الذي كثيرًا ما كان يتغضن في المنزل من أثر الجهد والخوف، ناعم تمامًا. كل ما كانته وفعلته قبل هذا الصباح، وكل ما شعرت به وقلقت بشأنه، كله اختفى. تصرفت كل همومها كما تصرفت صورة ميلرش، وتلاشت وسط الألوان والضوء. كما لاحظت أشياء لم تلحظها منذ سنوات: بينما هي تصفف شعرها أمام المرآة، لاحظته وفكرت: «كم هو جميل». نسيت لسنوات أن لديها مثل ذلك الشعر، وجدلته في المساء وفكته في الصباح بالاستعجال واللامبالاة أنفسهما اللذين تربط وتفك بهما حذاءها. والآن، رأته فجأة، ولفته بين أصابعها أمام المرآة، وسعدت لكونه جميلًا إلى ذلك الحد. ولا يمكن أن يكون ميلرش قد رآه أيضًا، لأنه لم يتفوَّه عنه بكلمة قَطُّ. حسنًا، عندما تعود إلى المنزل ستلفت انتباهه إليه، وستقول: «ميلرش، انظر إلى شعري، ألست مسرورًا لأن لديك زوجة بشعر مثل العسل المجعد؟».

ضحكت، إذ لم يسبق أن قالت لميلرش شيئًا من هذا القبيل، وبدت لها الفكرة مسلية. لكن لماذا لم تفعل؟ أوه نعم... كانت تخافه. كم هو غريب أن تخاف أي شخص، ولا سيما زوجها الذي تراه في أبسط لحظاته، مثل وقت النوم وهو لا يتنفس من خلال أنفه على نحو صحيح.

عندما باتت جاهزة، فتحت بابها لتعبر إلى الجهة المقابلة لترى ما إذا كانت روز قد استيقظت، بعد أن قادتها خادمة ناعسة إلى الغرفة المقابلة في الليلة السابقة. ستلقي عليها تحية الصباح، ثم تهرع للنزول وتبقى عند شجرة السرو تلك حتى يجهز الإفطار. أما بعد الإفطار، فلن تلقي ولو نظرة من النافذة إلى أن تنتهي من مساعدة روز في تجهيز كل شيء لليدي كارولين والسيدة فيشر. كان هناك الكثير مما يجب إنجازه في ذلك اليوم، ما بين الاستقرار وترتيب الغرف، ولا يجب أن تترك روز تؤدي ذلك بمفردها. ستجعلان كل شيء فائق الجمال للقادمتين، وستعدان لهما مشهدًا جذابًا ممثلًا بالغرف الصغيرة المشرقة بالزهور. تذكرت أنها لم تكن ترغب في حضور الليدي كارولين. يا له من عبث أن ترغب في إقصاء شخص ما من الجنة، لأنها اعتقدت أنها ستخجل منها! كما لو أن الأمر يهم إذا أحست بالخجل، وكما لو أن وعيها سيتركز على الشعور بالخجل. إلى جانب ذلك، يا له من سبب! لم تستطع اتهام نفسها بالتزام الصلاح في ذلك الشأن. كما تذكرت أنها لم ترغب في قدوم السيدة فيشر أيضًا، لأنها بدت متغطرسة. كم كان ذلك سخفًا منها. من السخيف القلق بشأن مثل تلك الأمور الصغيرة، وإضفاء الأهمية عليها.

كانت غرف النوم واثنتان من غرف الجلوس في سان سالفاتوري في الطابق العلوي، وتنفتح على ردهة فسيحة بها نافذة زجاجية واسعة عند طرفها الشمالي. كانت سان سالفاتوري غنية بالحدائق الصغيرة في أجزاء مختلفة، وعلى مستويات متباينة. وقد أُنشئت الحديقة التي تطل عليها هذه النافذة على أعلى جزء من الجدار، ولم يكن من الممكن الوصول إليها إلا من خلال الردهة الفسيحة المقابلة في الطابق السفلي. عندما خرجت السيدة ويلكنز من غرفتها، وجدت هذه النافذة مفتوحة على مصراعيها، ووراءها في الشمس كانت هناك شجرة زمزريق مزهرة بالكامل. لم يكن هناك أثر لأي شخص، ولا وقع أقدام أو أصوات. تراصت أحواض زهور الزنبق على

الأرض الحجرية، وعلى إحدى الطاولات كان هناك فرع ضخم زاهٍ من زهور «أبو خنجر» القوية. ذلك المكان الفسيح العامر بالزهور، بهدوئه، وبتلك النافذة الواسعة في طرفه التي تطل على الحديقة، وشجرة الزمزريق فائقة الجمال تحت ضوء الشمس، بدا كل ذلك بالنسبة إلى السيدة ويلكنز أروع من أن يكون حقيقيًّا، وقد أسرها وهي في طريقها إلى السيدة أربوثنوت. هل ستعيش حقًّا بين كل هذا شهرًا كاملًا؟ حتى الآن، كان عليها الاستمتاع بما تجده في طريقها من جمال، والتشبث بنتف صغيرة منه عندما تصادفها: بقعة من زهور الأقحوان في يوم جميل بأحد حقول هامبستيد، أو وميض للشمس الغاربة بين مدخنتين. لم يسبق أن وجدت نفسها قَطُّ في أماكن جميلة تمامًا بالكامل. ولم يسبق حتى أن كانت في منزل جليل كهذا، وكان شيء مثل هذه الوفرة في الزهور في غرفها بعيدًا عن متناولها. ذات مرة في الربيع، اشترت ست زهور من التوليب من متجر شولبريد، لأنها لم تتمكن من مقاومتها، وأدركت أنه إذا علم ميلرش ما تكلفته، فسوف يظن أنه شيء لا يغتفر، لكن سرعان ما ماتت، ولم يعد هناك مزيد. أما بالنسبة إلى شجرة الزمزريق فلم تكن لديها فكرة عما تكون، وحدقت إليها هناك في مواجهة السماء وعلى وجهها تعبير منتشٍ كشخص شاهد رؤيا سماوية.

خرجت السيدة أربوثنوت من غرفتها، ووجدتها هناك على ذلك النحو، تقف محدقة في منتصف الردهة.

فكرت السيدة أربوثنوت: «ما الذي تعتقد أنها تراه الآن؟».

التفتت إليها السيدة ويلكنز، وتحدثت بقناعة شديدة قائلة:

– نحن بين يدَي الرب بالفعل.

كانت الابتسامة تكسو وجه السيدة أربوثنوت عندما خرجت من غرفتها، فبدت عليها خيبة الأمل، وقالت بسرعة:

– أوه! لماذا، ماذا حدث؟

إذ إن السيدة أربوثنوت استيقظت، يغمرها شعور رائع بالأمان والارتياح،

ولم ترِد أن تجد أنها لم تفلت في النهاية من الحاجة إلى ملاذ. لم تحلم بفريدريك حتى، ولأول مرة منذ سنوات، تفادت ذلك الحلم المكرر كل ليلة بأنه معها، وأن قلبيهما متعلقان ببعضهما، ثم الشعور بالبؤس عقب الاستيقاظ. نامت كالأطفال، واستيقظت واثقة بنفسها. وجدت أنها لا ترغب في قول شيء خلال صلاتها الصباحية سوى الشكر. لذا كان من المثير للقلق أن يُقال لها في نهاية المطاف إنها بين يدَي الرب.

سألت بقلق:

- آمل ألا يكون هناك شيء ما قد وقع؟

نظرت إليها السيدة ويلكنز لحظة وضحكت، ثم قبّلتها قائلة:

- كم هو غريب.

صفت ملامح السيدة أربوثنوت لأن السيدة ويلكنز ضحكت، وسألتها:

- ما الغريب؟

- نحن، وهذا، وكل شيء. كل شيء رائع جدًّا. من الغريب جدًّا ومن الرائع للغاية أن نكون وسط كل هذا. أعتقد أننا عندما نصل إلى الجنة - تلك التي يتحدثون عنها كثيرًا - فلن نجدها أجمل بدرجة كبيرة.

استرخت السيدة أربوثنوت، وابتسمت في أمان مرة أخرى، وقالت:

- أليس هذا رائعًا؟

أمسكت السيدة ويلكنز بذراعها قائلة:

- هل سبق أن نعمت بهذا القدر من السعادة في حياتك على الإطلاق؟

قالت السيدة أربوثنوت:

- لا.

فلم يسبق أن نعمت بمثل هذه السعادة قَطُّ، ولا حتى في أيام حبها الأولى مع فريدريك، لأن الألم دائمًا ما كان قريبًا في المتناول مع تلك السعادة الأخرى، مستعدًّا لتعذيبها بالشكوك، ولتعذيبها حتى بمشاعر حبها المفرط، بينما كانت هذه هي السعادة البسيطة المتمثلة في الانسجام التام مع

محيطها، السعادة التي لا تطلب شيئًا، والتي تُتقبل فحسب، وتحيا فحسب، وموجودة كما هي فقط.

قالت السيدة ويلكنز:

- لنذهب ونلقِ نظرة على تلك الشجرة من كثب. لا أعتقد أنها يمكن أن تكون مجرد شجرة.

سارتا عبر الردهة عاقدتين ذراعيهما ببعضهما، ولم يكن زوجاهما ليتعرَّفا عليهما، إذ بدا وجهاهما في غاية الشباب بفعل الحماس، ووقفتا معًا عند النافذة المفتوحة، وعندما تغذى نظرهما على تلك الشجرة الوردية الرائعة، ثم تجول بعيدًا عنها بين باقي جمال الحديقة، شاهدتا الليدي كارولين جالسة فوق الجدار المنخفض عند حافة الحديقة الشرقية، تطل على الخليج، وقدماها بين زهور الزنبق.

غمرتهما الدهشة، ولم تتفوَّها بشيء في خضم دهشتهما، بل وقفتا ساكنتين تمامًا، ذراعًا بذراع، وهما تحدقان إليها.

ارتدت هي أيضًا فستانًا أبيض، وكان رأسها عاريًا. لم تكن لديهما أي فكرة في ذلك اليوم في لندن أنها كانت جميلة إلى هذا الحد، حيث نزلت قبعتها إلى أنفها ووصل فراؤها إلى أذنيها. اعتقدتا فحسب أنها مختلفة عن بقية النساء في النادي، وكذلك اعتقدت النساء الأخريات أنفسهن، وجميع النادلات أيضًا، اللاتي رمقنها بنظرات جانبية، ثم نظرن إليها مرة أخرى في أثناء مرورهن بالركن الذي جلست فيه وهي تتحدث، لكن لم تكن لديهن أي فكرة أنها جميلة للغاية. بدت فائقة الجمال، وكل شيء فيها على أجمل ما يكون. كان شعرها الأشقر فاتح الشقرة، وعيناها الرماديتان الجميلتان كانتا فائقتَي الحسن وداكنتين، ورموشها الداكنة شديدة الدكنة، وبشرتها البيضاء شاهقة البياض، وفمها الأحمر شديد الاحمرار. وبدت نحيلة للغاية، كما لو أنها مجرد خيط، على الرغم من وجود منحنيات بسيطة تحت فستانها الخفيف، حيث يجب أن تكون هناك منحنيات بسيطة. كانت تنظر عبر

الخليج، وبدت هيئتها محددة على نحو حاد على خلفية ذلك الفراغ الأزرق. جلست تحت الشمس المباشرة، وتدلت قدماها بين أوراق وزهور الزنبق كما لو أنه لم يكن من المهم ما إذا انثنت أو تضررت.

أخيرًا، همست السيدة أربوثنوت:

- سوف تصاب بالصداع وهي جالسة هناك في الشمس هكذا.

همست السيدة ويلكنز:

- يجب أن ترتدي قبعة.

- إنها تطأ الزنابق.

- لكنها ملكها، بقدر ما هي ملكنا.

- ربعها فقط.

أدارت الليدي كارولين رأسها، ورفعت إليهما نظرها للحظة، وفوجئت لرؤية أنهما تبدوان أصغر بكثير مما بدتا عليه في ذلك اليوم في النادي، كما لم يبدُ أنهما تفتقران إلى الجاذبية بدرجة كبيرة. في الواقع، كادتا تبدوان جذابتين، إذا أمكن أن يكون أي شخص جذابًا حقًّا وهو يرتدي الملابس الخطأ. ألقت عليهما نظرة سريعة، واستوعبت كل شبر منهما في نصف ثانية، قبل أن تبتسم وتلوح لهما وتنادي قائلة: «صباح الخير». رأت على الفور أنها لا يمكن أن ترجو وجود أي شيء مثير للاهتمام فيما يتعلق بملابسهما. لم تتعمد التفكير في ذلك، إذ كانت تمر بردة فعل عنيفة ضد الملابس الجميلة والاستعباد الذي تفرضه على المرء، حيث تعلمت من تجربتها الشخصية أنه في اللحظة التي يحصل فيها المرء على تلك الملابس، كانت تقوده من يده ولا تدعه ينعم بالسلام حتى يذهب إلى كل مكان ويشاهده الجميع. فأنت لا تأخذ ملابسك إلى الحفلات، بل تأخذك هي. لقد كان من الخطأ الاعتقاد بأن المرأة حسنة الملبس حقًّا هي التي تبلي ملابسها بارتدائها، بل كانت الملابس هي التي تبلي المرأة، وهي تسحبها في كل مكان، في كل ساعة من ساعات النهار والليل. لا عجب أن الرجال كانوا ينعمون بالشباب

فترة أطول، فلا يمكن أن يشعروا بالإثارة بسبب سروال جديد فحسب. لم تعتقد أن حتى أحدث السراويل كانت تتصرف على ذلك النحو على الإطلاق، وتأخذ اللجام بين أسنانها. كانت صورها الخيالية مشوشة، لكنها فكرت تبعًا لرغبتها، واستخدمت الصور التي تعجبها. عندما نزلت من الجدار واقتربت من النافذة، بدا من المريح معرفة أنها ستقضي شهرًا كاملًا مع نساء يرتدين فساتين كانت مثيلاتها تُصنع قبل خمسة أصياف مضت، على حد ذاكرتها.

رفعت إليهما نظرها وابتسمت قائلة:

- وصلت إلى هنا صباح أمس.

كانت ساحرة حقًّا، ولديها كل شيء، حتى غمازة.

بادلتها السيدة أربوثنوت الابتسام، وقالت:

- هذا مؤسف للغاية، لأننا كنا سنختار لك ألطف غرفة.

قالت الليدي كارولين:

- أوه، لكنني فعلت هذا بالفعل، أو على الأقل أعتقد أنها الألطف. إنها تطل على جهتين، وأنا أحب الغرف المطلة على جهتين، ألا تحبانها؟ تطل على البحر من جهة الغرب، وعلى شجرة الزمزريق هذه من جهة الشمال.

قالت السيدة ويلكنز:

- كما نوينا تزيينها بالزهور من أجلك.

- أوه، لقد فعل دومينيكو ذلك. طلبت منه هذا بمجرد وصولي. إنه البستاني، وهو رائع.

قالت السيدة أربوثنوت بتردد نوعًا ما:

- من الجيد بالطبع أن يكون المرء مستقلًّا، وأن يعرف ما يريده تمامًا.

وافقتها الليدي كارولين قائلة:

- أجل، فهذا يوفر المتاعب.

قالت السيدة ويلكنز:

- لكن لا ينبغي للمرء أن يكون مستقلًّا إلى الدرجة التي لا يترك معها أي فرصة للآخرين للإحسان إليه.

كانت الليدي كارولين تنظر إلى السيدة أربوثنوت، فنقلت نظرها الآن إلى السيدة ويلكنز. في ذلك اليوم في ذلك النادي الغريب، تكوَّن لديها انطباع مشوش فحسب عن السيدة ويلكنز، حيث تولَّت الأخرى الحديث بالكامل، وكان انطباعها أنها خجول جدًّا ومرتبكة للغاية، إلى درجة أنه من الأفضل ألا تعيرها أي انتباه. لم تكن قادرة حتى على توديعها كما يجب، حيث عانت وهي تفعل ذلك، وتضرج وجهها وتصببت عرقًا. لذا نظرت إليها الآن بشيء من الدهشة، وازدادت دهشتها حينما أضافت السيدة ويلكنز وهي تحدق إليها بإعجاب واضح وصريح، وتحدثت في الواقع بقناعة رفضت أن تظل من دون الإفصاح عنها:

- لم أدرك أنك جميلة إلى هذا الحد.

حدقت إلى السيدة ويلكنز. لم يكن يُقال لها هذا عادة بمثل هذه السرعة وعلى هذا النحو المباشر. على الرغم من اعتيادها سماع ذلك كثيرًا – حيث كان من المستحيل ألا تألف ذلك بعد ثمانية وعشرين عامًا كاملة – فإنها فوجئت لسماع ذلك من امرأة، وبمثل هذه الصراحة.

قالت:

- إنه لطف بالغ منك أن تعتقدي هذا.

قالت السيدة ويلكنز:

- أنت جميلة، جميلة جدًّا جدًّا.

قالت السيدة أربوثنوت بلطف:

- أتمنى أن تحققي أقصى استفادة من ذلك.

حدقت الليدي كارولين إلى السيدة أربوثنوت حينها، وقالت:

- أوه، نعم، أنا أستفيد من الأمر إلى أقصى حدٍّ، وأفعل ذلك منذ أبعد مما يمكنني تذكره.

ابتسمت السيدة أربوثنوت، ورفعت سبابتها على سبيل التحذير قائلة:

- لأنه لن يدوم.

حينها، بدأت الليدي كارولين تخشى أن هاتين المرأتين غريبتا الطباع. إذا كان الأمر كذلك فسوف تشعر بالضجر. لم يكن هناك ما يثير ضجرها بقدر الأشخاص الذين يصرون على غرابة الطباع، والذين يأتون لمحاصرتها بالحديث، ويبقونها في الانتظار بينما يمارسون غرابة طباعهم. وتلك التي أبدت الإعجاب بها، سيكون الأمر مرهقًا إذا لاحقتها كي تنظر إليها. ما أرادته من هذه العطلة هو الهروب التام من كل ما كان لديها من قبل، وأرادت الارتياح في مكان متباين تمامًا. لم يكن تلقي الإعجاب والملاحقة تباينًا، بل كانا تكرارًا. وبالنسبة إلى المرأتين غريبتَي الأطوار فقد خشيت أن الأمر لن يكون مريحًا على وجه الخصوص، إذا وجدت نفسها حبيسة معهما على قمة تل شديد الانحدار، في قلعة من العصور الوسطى بُنيت لغرض صريح، وهو منع سهولة الدخول والخروج. ربما كان من الأفضل أن تتصرف على نحو أقل تشجيعًا بعض الشيء. في ذلك اليوم في النادي، بدتا خجولين للغاية، حتى ذات الشعر الداكن - لم تستطع تذكر اسميهما - إلى درجة أنها شعرت بأن التصرف على نحو ودود آمن تمامًا. لكنهما تخلَّتا عن خجلهما هنا بالفعل، وفي الواقع، حدث هذا على الفور. لم يكن هناك أي أثر للخجل لديهما هنا. وإذا تخلصتا من خجلهما بهذه السرعة عند أول تواصل، فسرعان ما ستبدآن في الضغط عليها ما لم توقفهما عند حدهما، وحينها ستودع حلمها بثلاثين يومًا من الراحة والهدوء، والاستلقاء في الشمس من دون إزعاج، وتهدئة أعصابها مرة أخرى، وألا يتحدث إليها أحد، ولا يقوم على رعايتها أحد، ولا يلمسها أحد أو يستأثر بها، بل أن تتعافى فحسب من الإرهاق، والتعب العميق والكئيب الناتج عن زيادة كل شيء على الحد.

إلى جانب ذلك، كانت هناك السيدة فيشر، التي يجب إيقافها هي أيضًا عند حدها. بدأت الليدي كارولين رحلتها قبل يومين من الموعد المحدد

لسببين: أولًا، لأنها أرادت الوصول قبل الأخريات كي تنتقي الغرفة أو الغرف التي تفضلها، وثانيًا، لأنها رأت أنه من المحتمل لو فعلت خلاف ذلك أن تضطر إلى السفر مع السيدة فيشر. لم ترغب في السفر مع السيدة فيشر، كما لم ترِد الوصول مع السيدة فيشر. لم ترَ أي سبب، مهما كان، يدفعها إلى التعامل مع السيدة فيشر ولو للحظة واحدة.

لكن من سوء الحظ، امتلأت السيدة فيشر أيضًا بالرغبة في الوصول إلى سان سالفاتوري أولًا، واختيار الغرفة أو الغرف التي تفضلها، فسافرت هي والليدي كارولين معًا. بدأتا تشكان في الأمر منذ وصولهما إلى كاليه، وخشيتا ذلك في باريس، ثم تأكدتا من الأمر في مودان، وأخفتاه في ميتزاجو، حيث ذهبتا إلى كاستانييتو في عربتين منفصلتين، ومقدمة إحداهما تكاد تلامس مؤخرة الثانية طوال الطريق. لكن عندما انتهى الطريق فجأة عند الكنيسة ودرجات السلم، بات المزيد من التهرب أمرًا مستحيلًا، وعند مواجهة هذه النهاية المفاجئة والشاقة لرحلتهما، لم يعد أمامهما سوى الانضمام إلى بعضهما.

وبسبب عصا السيدة فيشر اضطرت الليدي كارولين إلى تولي أمر كل شيء. أوضحت السيدة فيشر من مكانها في العربة عندما اتضحت لها حقيقة الموقف، أن لديها رغبة في النشاط، لكن عصاها تحول بينها وبين تنفيذ ما تريد. قال السائقان لليدي كارولين إنه يجب أن يحمل الصبية الأمتعة إلى القلعة، فذهبت للبحث عن بعضهم، بينما انتظرت السيدة فيشر في العربة بسبب عصاها. كانت السيدة فيشر تستطيع التحدث بالإيطالية، لكن كما أوضحت، الإيطالية التي كان يستخدمها دانتي فقط، والتي اعتاد ماثيو أرنولد قراءتها معها عندما كانت طفلة، وظنت أن هذا قد يفوق إدراك الصبية. لذا بدا من البديهي أن تذهب الليدي كارولين، التي تتحدث اللغة الإيطالية العادية بدرجة جيدة للغاية، وتتولى الأمور.

ظلت السيدة فيشر جالسة في العربة بثبات، وقالت:

- أنا بين يديك، وأرجو أن تعتبريني مجرد امرأة عجوز معها عصا.

وبعد فترة قصيرة، عندما نزلتا درجات السلم وسارتا عبر أحجار الطريق المؤدي إلى الساحة، وعبر رصيف الميناء، ثم صعدتا الممر المتعرج، وجدت الليدي كارولين نفسها مضطرة إلى السير ببطء مع السيدة فيشر، كما لو كانت جدتها.

ظلت السيدة فيشر تقول بلامبالاة على فترات متقطعة:

- عصاي هي السبب.

وعندما جلستا للاستراحة عند تلك المنحنيات في الممر المتعرج حيث توجد مقاعد، واضطرت الليدي كارولين إلى البقاء مع السيدة فيشر بسبب عصاها، بدافع من الإنسانية، على الرغم من رغبتها في أن تهرع وتصل إلى القمة بسرعة، أخبرتها السيدة فيشر كيف سارت عبر طريق متعرج مع تينيسون ذات مرة.

قالت الليدي كارولين بشرود:

- ألا يلعب الكريكت على نحو رائع؟

فأدارت السيدة فيشر رأسها وتأملتها للحظة من فوق حافة نظارتها، وقالت:

- تينيسون الشهير.

قالت الليدي كارولين:

- أليس كذلك بالفعل؟

قالت السيدة فيشر:

- إنني أتحدث عن ألفريد.

قالت الليدي كارولين:

- أوه.

واصلت السيدة فيشر الحديث بصرامة:

- كان ممرًّا أيضًا، من دون شجرة أوكالبتوس بالطبع، لكن بخلاف ذلك

كان يشبه هذا الممر على نحو غريب. ثم التفت عند أحد المنعطفات، وقال لي... أراه الآن وهو يلتفت ويقول لي...

نعم، سيجب إيقاف السيدة فيشر عند حدها، وكذلك هاتين الاثنتين اللتين بالأعلى عند النافذة. من الأفضل أن تبدأ في ذلك على الفور. ندمت لنزولها من فوق الجدار. كل ما كانت تحتاج إليه هو أن تلوح بيدها فحسب، وتنتظر حتى تنزلا إلى الحديقة وتأتيا إليها.

لذلك تجاهلت تعليق السيدة أربوثنوت وسبابتها المرفوعة، وقالت ببرود واضح - على الأقل حاولت أن تجعله يبدو واضحًا - إنها تفترض أنهما ستذهبان لتناول الإفطار، وإنها تناولت إفطارها بالفعل، لكن كان قدرها أنها مهما تفوَّهت بكلماتها ببرود، كانت الكلمات تخرج وهي تبدو دافئة وودودًا للغاية. كان هذا بسبب صوتها الحنون المبهج، ويرجع ذلك بالكامل إلى تكوين خاص من نوع ما في حلقها وسقف فمها، من دون أن تكون له علاقة على الإطلاق بما تشعر به. نتيجة لذلك، لم يكن أحد قَطُّ يعتقد أنه يتعرض للتجاهل، وكان الأمر مرهقًا للغاية. وإذا حدقت ببرود، لم يكن يبدو عليها البرود على الإطلاق، لأن عينيها الجميلتين في الأساس كانتا تتمتعان بالجمال الإضافي الذي تضفيه عليهما رموشها الداكنة الناعمة الطويلة للغاية. ولا يمكن أن تأتي أي نظرة باردة من عينين كهاتين، إذ كانت النظرة تنحبس وتضيع بين الرموش الناعمة، وكان الأشخاص الذين تحدق إليهم يعتقدون فحسب أنها تنظر إليهم باهتمام رائع يدعو إلى الشعور بالإطراء. وإذا حدث أن اعتل مزاجها أو شعرت بالضيق الشديد - ومن عساه لا يشعر بذلك أحيانًا في مثل هذا العالم؟ - كانت تبدو مثيرة للشفقة بدرجة كبيرة فحسب، إلى درجة أن الجميع كانوا يهرعون إليها لمواساتها، عن طريق التقبيل إن أمكن. كان الأمر أكثر من مرهق، إذ كان مثيرًا للجنون. عزمت الطبيعة على أن تبدو ملائكية، شكلًا وصوتًا. لم تتمكن من التصرف على نحو بغيض أو وقح قَطُّ، من دون أن يُساء فهمها تمامًا.

قالت محاوِلة بذل قصارى جهدها لتبدو فظة:

- لقد تناولت الإفطار في غرفتي. ربما أراكما لاحقًا.

ثم أومأت برأسها، وعادت إلى حيث كانت جالسة على الجدار، والزنابق لطيفة وباردة حول قدميها.

٧

تبعتها أعينهما بإعجاب، ولم تكن لديهما أي فكرة أنهما تعرضتا للتجاهل. كان من المحبط بالطبع أن تجدا أنها سبقتهما، وأنهما لن تستمتعا بالاستعداد لها، ومشاهدة وجهها عندما تصل وترى كل شيء لأول مرة، لكن ما زالت هناك السيدة فيشر. سوف تركزان على السيدة فيشر، وستشاهدان وجهها هي بدلًا من ذلك، لكن مثل أي شخص آخر، كانتا تفضلان مشاهدة الليدي كارولين.

بما أن الليدي كارولين تحدثت عن الإفطار، ربما كان من الأفضل أن تبدآ بالذهاب لتناوله، إذ كان هناك الكثير مما يتعين إنجازه في ذلك اليوم، بحيث لم يكن في وسعيهما قضاء مزيد من الوقت في تأمل المناظر الطبيعية: يجب مقابلة الخدم، والتجول بالمنزل وتفحصه، وأخيرًا إعداد غرفة السيدة فيشر وتزيينها.

لوَّحتا بأيديهما بمرح لليدي كارولين، التي بدت مستغرقة فيما تتأمله ولم تنتبه. وعندما استدارتا، وجدتا الخادمة التي قابلتهما الليلة الماضية قد أتت من خلفهما بصمت، مرتدية خُفين من القماش لهما نعلان منسوجتان من الخيط.

كانت فرانشيسكا، الخادمة العجوز، التي قال المالك إنها أمضت في خدمته سنوات طويلة، ولم تكن هناك ضرورة لقوائم الجرد في وجودها. بعد أن ألقت عليهما تحية الصباح، وأعربت عن أملها في أن تكونا قد حظيتا بنوم مريح، أخبرتهما بأن الإفطار جاهز في غرفة الطعام بالطابق السفلي، وأنها ستقودهما إليها إذا تبعتاها.

لم تفهما ولو كلمة واحدة من الكلمات العديدة التي نجحت فرانشيسكا في استخدامها للتعبير عن هذه المعلومات البسيطة، لكنهما تبعتاها، إذ بدا من الواضح على الأقل أن عليهما أن تتبعاها، وعندما نزلتا الدرج، وعبرتا الردهة الفسيحة الشبيهة بتلك الكائنة بالطابق العلوي، باستثناء الأبواب الزجاجية الموجودة عند طرفها بدلًا من النافذة، والتي تؤدي إلى الحديقة، قادتهما بعد ذلك إلى غرفة الطعام، حيث كانت السيدة فيشر جالسة إلى رأس الطاولة تتناول إفطارها.

ندت عنهما صيحة هذه المرة، وحتى السيدة أربوثنوت صاحت، على الرغم من أن كل ما صاحت به كان كلمة «أوه» فقط.

كانت صيحة السيدة ويلكنز أكثر إسهابًا، حيث قالت:

- الأمر أشبه بانتزاع الخبز من فم المرء!

قالت السيدة فيشر:

- كيف حالكما؟ لا يمكنني النهوض بسبب عصاي.

ومدت يدها عبر الطاولة.

تقدمتا وصافحتاها.

قالت السيدة أربوثنوت:

- لم تكن لدينا أي فكرة عن وجودك هنا.

استأنفت السيدة فيشر تناول إفطارها، وقالت:

- نعم، نعم، أنا موجودة هنا.

ثم أزالت الجزء العلوي من بيضتها بهدوء.

قالت السيدة ويلكنز:

- إنها خيبة أمل كبيرة. كنا ننوي الترحيب بك.

ألقت السيدة فيشر نظرة سريعة عليها، وتذكرت أن هذه هي التي قالت إنها شاهدت كيتس عندما أتت إلى برينس أوف ويلز تيراس. لا بد أن تلتزم الحذر مع هذه، وتوقفها عند حدها منذ البداية.

لذلك تجاهلت السيدة ويلكنز، ووجهت وجهها نحو الأسفل وعليه تعبير من الهدوء المحكم بينما تركيزها منصب على بيضتها، وقالت بجدية:

- نعم، وصلت بالأمس مع الليدي كارولين.

قالت السيدة ويلكنز، تمامًا كما لو أنها لم تتعرض للتجاهل:

- إنه أمر مروع حقًّا. لم يعد هناك من يمكن تجهيز أي شيء له الآن. أشعر بالإحباط. أشعر كما لو أن الخبز انتُزع من فمي، عندما كنت على وشك الشعور بالسعادة لابتلاعه.

سألت السيدة فيشر السيدة أربوثنوت - السيدة أربوثنوت بالتحديد - قائلة:

- أين ستجلسين؟

بدت لها المقارنة مع الخبز مستهجنة للغاية.

جلست السيدة أربوثنوت إلى جانبها على نحو مفاجئ نوعًا ما، وقالت:

- أوه، شكرًا لك.

كان هناك مكانان فقط يمكنها الجلوس فيهما، وهما المكانان المعدان على جانبَي السيدة فيشر، لذا جلست في واحد منهما، وجلست السيدة ويلكنز مقابلها على الجانب الآخر.

جلست السيدة فيشر إلى رأس الطاولة، وجمعت حولها الشاي والقهوة. بالطبع كن يتشاركن جميعًا في سان سالفاتوري على قدم المساواة، لكن السيدة أربوثنوت فكرت بلطف أنها هي ولوتي اللتان عثرتا على القلعة، وبذلتا الجهد للحصول عليها، واختارتا استقبال السيدة فيشر فيها. لم تستطع منع نفسها من التفكير في أن السيدة فيشر لم تكن ستصير موجودة هناك لولاهما. من الناحية المعنوية، كانت السيدة فيشر ضيفتهما. لم تكن هناك مضيفة في هذه المجموعة، لكن بافتراض وجود مضيفة، لم تكن لتصبح السيدة فيشر ولا الليدي كارولين، بل كانت ستصبح إما هي وإما لوتي. لم تستطع السيدة أربوثنوت منع نفسها من الشعور بذلك عندما جلست، ويد السيدة فيشر التي صافحتها راسكن مرفوعة فوق الأباريق أمامها وهي تسألها:

- شاي أم قهوة؟

ولم يسعها سوى الشعور بذلك بدرجة أشد، عندما لمست السيدة فيشر ناقوسًا صغيرًا على الطاولة بجانبها، كما لو أنها اعتادت ذلك الناقوس وتلك الطاولة منذ صغرها، وعندما ظهرت فرانشيسكا، أمرتها بلغة دانتي أن تجلب مزيدًا من الحليب. فكرت السيدة أربوثنوت أن السيدة فيشر تميزها سمة غريبة، كما لو أنها تتحكم في مقاليد الأمور، ولو لم تكن السيدة أربوثنوت نفسها تشعر بالسعادة إلى هذا الحد، ربما كانت ستمانع ذلك.

لاحظت السيدة ويلكنز ذلك أيضًا، لكن الأمر دفع عقلها الذي يميل إلى الاستطراد إلى التفكير في طيور الوقواق، ولا شك أنها كانت ستبدأ على الفور الحديث عن الوقواق بشكل غير مترابط، على نحو مؤسف لا يمكن كبحه، لو أنها كانت في نفس حالة توتر الأعصاب والخجل التي كانت عليها في المرة الأخيرة التي رأت فيها السيدة فيشر. لكن السعادة قضت على خجلها، وباتت في غاية الهدوء، وفي وسعها التحكم في حديثها، ولم تضطر إلى الشعور بالرعب وهي تستمع إلى نفسها تتفوَّه بأشياء لم تكن لديها أدنى فكرة أنها ستقولها عندما شرعت في الحديث. شعرت بالارتياح التام، وكانت على طبيعتها تمامًا، وتبخرت في الحال خيبة الأمل الناتجة عن عدم تمكنها من الإعداد للترحيب بالسيدة فيشر، لأنه من المستحيل الاستمرار في الشعور بخيبة الأمل في الجنة. كما لم تمانع كونها تتصرف كمضيفة، فماذا يهم في الأمر؟ لم يكن المرء يمانع هذه الأشياء في الجنة. لذلك جلست هي والسيدة أربوثنوت إلى جانبَي السيدة فيشر، بطواعية أكثر مما كانتا ستفعلانه من قبل، وتدفقت الشمس من خلال النافذتين المواجهتين للشرق والمطلتين على الخليج، وغمرت الغرفة. وكان هناك باب مفتوح يؤدي إلى الحديقة المليئة بالعديد من الأشياء الجميلة، ولا سيما زهور الفريزيا.

أتى عطر الفريزيا الرقيق العذب من خلال الباب، وطاف حول فتحتَي أنف السيدة ويلكنز المنتشية. كانت زهور الفريزيا في لندن باهظة الثمن جدًّا

بالنسبة إليها. بين الحين والحين، كانت تذهب إلى أحد المتاجر للسؤال عن سعرها، كي يكون لديها عذر فحسب لرفع باقة وشمِّها، وهي تعلم جيدًا أن سعرها فظيع، يداني شلنًا مقابل ثلاث زهور تقريبًا. لكنها كانت في كل مكان هنا، تتفجر من كل زاوية، وتفترش أحواض الورد كالبساط. تخيل ذلك: أن تكون لديك زهور فريزيا لتقطف منها ملء ذراعيك إن شئت، والشمس الرائعة تغمر الغرفة، بينما ترتدي ثوبك الصيفي، وما زال اليوم هو الأول من أبريل فحسب!

وجهت ابتسامة للسيدة فيشر بألفة، كما لو أنها ملاك رفيق، وقالت:

- أعتقد أنك تدركين أننا وصلنا إلى الجنة، أليس كذلك؟

فكرت السيدة فيشر قائلة: «إنهما أصغر سنًّا بكثير مما افترضت، وملامحهما ليست مجرد عادية». لم تعِر أي اهتمام لابتهاج السيدة ويلكنز، وفكرت للحظة في ارتباكهما ورفضهما الفوري في ذلك اليوم في برينس أوف ويلز تيراس، لأن تكون لهما أي علاقة بتقديم رسائل التزكية الشخصية أو قبولها.

لا يمكن أن يؤثر فيها شيء بالطبع، ولا شيء يفعله أي شخص آخر، حيث كانت مكانتها أكثر احترامًا من ذلك بكثير. اصطف خلفها في صف هائل تلك الأسماء الثلاثة العظيمة التي قدمتها، ولم يكونوا هم الوحيدين الذين يمكنها اللجوء إليهم للحصول على الدعم والتأييد. وحتى لو اتضح أن هؤلاء الشابات - لم يكن لديها أي سبب يدفعها إلى تصديق أن تلك الموجودة في الحديقة هي الليدي كارولين ديستر بالفعل، حيث قيل لها ذلك فحسب - حتى لو اتضح أنهن جميعًا ممن اعتاد براونينج أن يطلق عليهم - تذكر جيدًا أسلوبه الممتع والمسلي في التعبير عن الأشياء - «المتسللين ليلًا»، للتعبير عن عدم جدارتهم بالثقة، فكيف يمكن أن يهمها هي ذلك بأي حال من الأحوال؟ فلتدعهن يتسللن ليلًا إذا شئن، فلم يكن عبثًا كونها تبلغ الخامسة والستين من العمر. على أي

حال، سيستمر الأمر مدة أربعة أسابيع فقط، لن تراهن بعد نهايتها. وفي غضون ذلك، هناك كثير من الأماكن حيث يمكنها الجلوس بهدوء بعيدًا عنهن واجترار ذكرياتها. كما كانت هناك غرفة جلوس خاصة بها، وهي غرفة ساحرة مليئة بالصور والأثاث الذي بلون العسل، ونوافذها تطل على البحر باتجاه جنوة، ويؤدي بابها إلى الشرفات المُفرَّجة. كان المنزل يحتوي على غرفتَي جلوس، وقد أوضحت لتلك المخلوقة الجميلة الليدي كارولين - حيث كان من المؤكد أنها مخلوقة جميلة، بصرف النظر عن أي شيء آخر، وكان تينيسون سيستمتع باصطحابها للتنزه في التلال - والتي بدا أنها تميل إلى الاستيلاء على الغرفة التي بلون العسل، أنها تحتاج إلى ملاذ صغير خاص بها بالكامل، بسبب عصاها.

قالت:

- لا أحد يريد رؤية امرأة عجوز تعرج في أرجاء المكان. سأكون راضية تمامًا بقضاء معظم وقتي بمفردي هنا، أو جالسة على تلك الشرفات المُفرَّجة.

كما كانت لديها أيضًا غرفة نوم جميلة للغاية، تطل على جهتين: على الخليج حيث تصل إليها شمس الصباح - كانت تحب شمس الصباح - وعلى الحديقة. اكتشفت هي والليدي كارولين أنه لم يكن هناك بالمنزل سوى غرفتَي نومٍ تطلان على جهتين، وكانتا أوسع بكثير. كان بكل غرفة منهما فراشان، فأمرت هي والليدي كارولين بإخراج الأسِرَّة الإضافية على الفور، ووضعها في غرفتين من الغرف الأخرى. وهكذا صارتا تنعمان بمساحة وراحة أكثر بكثير. في الواقع، حوَّلت الليدي كارولين غرفتها إلى غرفة نوم وجلوس في آنٍ واحد، حيث أخذت الأريكة من غرفة الاستقبال الأكبر حجمًا، علاوة على المكتب وأكثر كرسي مريح. لكن السيدة فيشر نفسها لم تضطر إلى القيام بذلك، لأنها كانت لديها غرفة جلوس خاصة بها، مجهزة بما يلزم. فكرت الليدي كارولين في البداية في أخذ غرفة الجلوس

الكبرى لنفسها بالكامل، لأن المرأتين الأخريين يمكنهما استخدام غرفة الطعام بالطابق السفلي للجلوس بين الوجبات، حيث كانت غرفة لطيفة للغاية بها كراسيُّ جميلة، لكن لم يعجبها شكل غرفة الجلوس الكبرى، والتي كانت عبارة عن غرفة مستديرة في البرج بنوافذ عميقة مشقوقة في الجدران الضخمة، وسقف مقبب ومضلع صُمم ليبدو كمظلة مفتوحة، وبدت معتمة نوعًا ما. ومما لا شك فيه أن الليدي كارولين ألقت نظرة طامعة على تلك الغرفة التي بلون العسل، وكانت ستستقر بها لو أن السيدة فيشر كانت أقل حزمًا، وهو ما كان سيمثل أمرًا سخيفًا.

ابتسمت السيدة أربوثنوت في محاولة لتنقل إلى السيدة فيشر أنها على الرغم من عدم كونها، أي السيدة فيشر، ضيفة بالمعنى الواضح، لكنها على الأقل لم تكن مضيفة بكل تأكيد، وقالت:

- آمل أن تكون غرفتك مريحة.

قالت السيدة فيشر:

- لا بأس بها. هل تريدين مزيدًا من القهوة؟

- لا، أشكرك. هل تريدين أنتِ؟

- لا، شكرًا لكِ. كان هناك فراشان في غرفة نومي، يزحمانها بلا داعٍ، فطلبت إخراج أحدهما. وقد جعلها ذلك مريحة بدرجة أكبر بكثير.

صاحت السيدة ويلكنز وقد اتضح لها الأمر:

- أوه، لهذا\السبب لديَّ فراشان في غرفتي!

بدا الفراش الثاني في حجرتها الصغيرة شيئًا غير طبيعي وغير مناسب منذ اللحظة التي رأته فيها.

قالت السيدة أربوثنوت:

- لديَّ اثنان في غرفتي أيضًا.

قالت السيدة فيشر:

- لا بد أن الفراش الثاني لديك من غرفة الليدي كارولين، حيث طلبت

إخراجه من عندها هي أيضًا. يبدو من الحماقة أن تكون في الغرفة أَسِرَّة أكثر من عدد شاغليها.

قالت السيدة ويلكنز:

- لكن زوجينا ليسا هنا أيضًا، ولا أرى أي فائدة في وجود أَسِرَّة إضافية في غرفة المرء إذا لم يكن هناك زوج ليشغلها. ألا يمكن أن نطلب نحن أيضًا إخراجها؟

قالت السيدة فيشر ببرود:

- لا يمكن إخراج الأَسِرَّة من غرفة تلو غرفة. لا بد أن تبقى في مكان ما.

بدت تعليقات السيدة ويلكنز مؤسفة على الدوام بالنسبة إلى السيدة فيشر، ففي كل مرة فتحت فيها فمها، تفوَّهت بشيء كان من الأفضل عدم النطق به، حيث لم يكن الحديث الخادش للحياء عن الأزواج يلقى تشجيعًا قَطُّ في دوائر السيدة فيشر. ففي ثمانينيات القرن التاسع عشر، حيث قضت زهرة شبابها، كان الأزواج يؤخذون على محمل الجد بوصفهم العائق الوحيد الذي يحول دون الانزلاق إلى الخطيئة. كما كانت الأَسِرَّة أيضًا تُعامل بحذر إذا كان لا بد من ذكرها، وكان التحفظ والتهذيب يمنعان الحديث عنها وعن الأزواج في نفس العبارة أبدًا.

التفتت إلى السيدة أربوثنوت بوضوح أكثر من قبل، وقالت:

- دعيني أقدم لك مزيدًا من القهوة.

- لا، شكرًا لكِ، لكن هلَّا تناولت أنتِ المزيد؟

- لا، حقًّا، فأنا لا أتناول أكثر من فنجانين أبدًا على الإفطار. هل تريدين برتقالة؟

- لا، شكرًا. هل تريدين أنتِ؟

- لا، أنا لا آكل الفاكهة في وجبة الإفطار. إنها عادة أمريكية صرت أكبر سنًّا من أن أكتسبها الآن. هل تناولت كل ما تريدينه؟

- تمامًا. ماذا عنك أنتِ؟

صمتت السيدة فيشر قبل أن تجيب. هل كانت هذه عادة لديها، تلك الحيلة التي تدفعها إلى الإجابة عن سؤال بسيط بنفس السؤال؟ إذا كان الأمر كذلك فلا بد من كبحه، لأنه لا يمكن لأحد أن يعيش أربعة أسابيع في راحة حقيقية مع شخص لديه عادة.

نظرت إلى السيدة أربوثنوت، وطمأنها شعرها المفروق من المنتصف، وجبينها الهادئ. لا، كانت المصادفة وليست العادة هي التي تسببت في ذلك التكرار. كان من الأسهل أن تتخيل وجود حمامة تتمتع بعادات مزعجة، من أن تتخيل السيدة أربوثنوت على ذلك النحو. تأملتها وفكرت كم كانت ستصبح زوجة رائعة للمسكين كارليل، أفضل بكثير من جين الذكية البشعة تلك، حيث كانت ستعمل على تهدئته.

اقترحت السيدة فيشر قائلة:

- هلَّا قمنا إذن؟

قالت السيدة أربوثنوت باهتمام شديد:

- دعيني أساعدك على النهوض.

- أوه، شكرًا لكِ، يمكنني تدبر أمري جيدًا، لكن في بعض الأحيان تمنعني عصاي...

نهضت السيدة فيشر بسهولة شديدة، ولم يكن هناك داعٍ لأن تحوم السيدة أربوثنوت فوقها.

قالت السيدة ويلكنز:

- سأتناول أنا واحدة من ثمار البرتقال الرائعة هذه.

وبقيت مكانها، ومدت يدها نحو وعاء أسود مكدس بالبرتقال.

تابعت قائلة:

- روز، كيف يمكنكِ مقاومتها؟ انظري... تناولي هذه. فلتأكلي هذه البرتقالة الرائعة...

وقدمت لها واحدة كبيرة.

قالت السيدة أربوثنوت وهي تتجه نحو الباب:

- لا، سأتولى القيام بما يتعين عليَّ إنجازه من المهام.

ثم أضافت قائلة بأدب للسيدة فيشر:

- سوف تسامحينني لتركك هكذا، أليس كذلك؟

تحركت السيدة فيشر أيضًا نحو الباب بسهولة شديدة، على نحو يكاد يكون سريعًا، من دون أن تعوقها عصاها على الإطلاق، فلم تكن لديها نية للبقاء بمفردها مع السيدة ويلكنز.

حاولت السيدة أربوثنوت الحفاظ على وضعها بوصفها ليست ضيفة على الأقل، إن لم تكن مضيفة بالتحديد، فسألتها:

- في أي وقت تريدين تناول الغداء؟

قالت السيدة فيشر:

- الغداء في الساعة الثانية عشرة والنصف.

قالت السيدة أربوثنوت:

- إذن ستتناولينه في الثانية عشرة والنصف.

ابتسمت وهي تواصل قائلة:

- سأخبر الطاهية. سيكون الأمر بالغ الصعوبة، لكنني أحضرت قاموسًا صغيرًا...

قالت السيدة فيشر:

- الطاهية تعلم بالأمر.

قالت السيدة أربوثنوت:

- حقًّا؟

قالت السيدة فيشر:

- لقد أبلغتها الليدي كارولين بالفعل.

كررت السيدة أربوثنوت قائلة:

- حقًّا؟

- نعم، الليدي كارولين تتحدث ذلك النوع من الإيطالية الذي يفهمه الطهاة. أما أنا فلا أستطيع دخول المطبخ بسبب عصاي، وحتى لو تمكنت من الذهاب أخشى أنهم لن يفهموني.

شرعت السيدة أربوثنوت تقول:

- لكن...

أكملت السيدة ويلكنز عبارتها من مكانها على الطاولة، وهي مسرورة بهذه البساطة غير المتوقعة في حياتها هي وروز، وقالت:

- لكن هذا رائع للغاية، فليس لدينا أي شيء على الإطلاق نفعله هنا، لا أنا ولا أنت، إلا أن ننعم بالسعادة.

أدارت رأسها إلى السيدة فيشر، ووجهت إليها الحديث مباشرة وفي كلتا يديها قطع من البرتقال:

- لن تصدقي مدى التزامنا بالصلاح الشديد، أنا وروز، طوال سنوات من دون انقطاع، وكم نحتاج الآن إلى راحة تامة.

خرجت السيدة فيشر من الغرفة من دون أن ترد عليها، وقالت لنفسها: «يجب إيقافها عند حدها، وسأوقفها بالفعل».

٨

بعد قليل، عندما تجولت السيدة ويلكنز والسيدة أربوثنوت من دون أن تعوقهما أي واجبات، ونزلتا الدرج الحجري المتآكل ودخلتا تحت العريشة في الحديقة السفلية، قالت السيدة ويلكنز للسيدة أربوثنوت، التي بدت مستغرقة في التفكير بجدية:

- ألا ترين أنه إذا أصدر شخص آخر الأوامر، فسوف يتركنا ذلك حُرتين؟

قالت السيدة أربوثنوت إنها ترى ذلك بالفعل، لكنها مع ذلك تعتقد أنه من السخف انتزاع كل شيء من بين أيديهما.

قالت السيدة ويلكنز:

- أحب أن تُنتزع الأشياء من بين يدَي.

قالت السيدة أربوثنوت:

- لكننا نحن من وجدنا سان سالفاتوري، ومن السخيف بالفعل نوعًا ما أن تتصرف السيدة فيشر كما لو أنها تخصها فقط.

قالت السيدة ويلكنز بكثير من الهدوء:

- الأمر السخيف نوعًا ما هو الاكتراث بذلك. لا أرى أي أهمية في أن يكون المرء مسؤولًا على حساب حريته.

لم تجِب السيدة أربوثنوت عن ذلك لسببين: أولًا، لدهشتها من الهدوء الملحوظ والمتزايد من جانب لوتي، التي غلبها الحماس وبدا حديثها غير مترابط في السابق، وثانيًا لأن المشهد الذي كانت تنظر إليه بدا فائق الجمال.

بامتداد الدرجات الحجرية على كلا الجانبين، كانت الوينكا في أوج إزهارها، كما استطاعت أن ترى الآن ما علق بها في الليلة الماضية، واحتكَّ بوجهها وهو مبلل وعَطِر: كانت الوستارية. الوستارية وأشعة الشمس... تذكرت الإعلان. كانت كلتاهما موجودتين بوفرة هنا بالفعل. تشابكت الوستارية بعضها ببعض من فرط نموها وكثافة إزهارها، وعند نهاية العريشة توهجت الشمس على شجيرات من الجارونيا القرمزية، وأكوام ضخمة من زهور «أبو خنجر»، وزهور قطيفة زاهية إلى درجة أنها بدت مشتعلة، وزهور حنك السبع باللونين الأحمر والوردي، كلها تنافس بعضها بعضًا بألوانها الزاهية القوية. انخفضت الأرض خلف كل هذه النباتات المشتعلة، وانحدرت في شكل مصاطب باتجاه البحر، وكل مصطبة عبارة عن بستان صغير، حيث نمت الكروم على تعريشات بين أشجار الزيتون، إلى جانب أشجار التين والخوخ والكرز. كانت أشجار الكرز والخوخ مزهرة، في زخات جميلة من اللونين الأبيض والوردي الداكن وسط رقة أشجار الزيتون المرتعشة. وكانت أوراق التين كبيرة بما يكفي لتفوح منها رائحة التين، وبراعم الكروم بدأت للتو في الظهور. وتحت هذه الأشجار توجد مجموعات من زهور السوسن الزرقاء والبنفسجية، وشجيرات الخزامى، وصبارات رمادية حادة، وافترشت العشب بكثافة زهور الهندباء والأقحوان، وكان البحر بالأسفل تمامًا. بدت الألوان متناثرة كيفما اتفق، في كل مكان: ألوان من كل نوع، متراكمة في أكوام، تنسال كأنهار - بدت زهور الوينكا تمامًا كما لو أنها تنسكب على كلا جانبَي الدرج - أما الزهور التي كانت تنمو في الأحواض فقط في إنجلترا، زهور متكبرة تحافظ على عزلتها هناك، مثل زهور السوسن الزرقاء الضخمة، والخزامى، فقد زاحمتها هنا زهور مشرقة صغيرة عادية مثل الهندباء والأقحوان وزهور الثوم الكندي الشبيهة بأجراس بيضاء، وبدت أفضل وأكثر بهجة بسبب ذلك.

وقفتا في صمت تتأملان هذا الحشد من الجمال، وهذا المزيج السعيد. لا، لم تكن هناك أهمية لما فعلته السيدة فيشر، ليس في هذا المكان، وليس وسط هذا الجمال. تلاشى انزعاج السيدة أربوثنوت. وسط دفء وإشراق كل ما كانت تتأمله، وما بدا كما لو أنه تجلٍّ لجانب جديد تمامًا من الرب، كيف يمكن للمرء الشعور بالانزعاج؟ لو كان فريدريك معها فحسب، وشاهد ذلك أيضًا، ورآه كما كان سيراه عندما كانا في بداية حبهما، في تلك الأيام التي كان يرى فيها ما تراه، ويحب ما تحبه...

تنهدت.

قالت السيدة ويلكنز:

- يجب ألا تتنهدي في الجنة، فالمرء لا يفعل ذلك هنا.

قالت السيدة أربوثنوت:

- كنت أفكر كم يتوق المرء إلى مشاركة هذا مع من يحب.

قالت السيدة ويلكنز:

- لا يجب أن تتوقي إلى شيء في الجنة، بل يفترض أن تشعري بالكمال التام هنا. وهذه هي الجنة بالفعل، أليس كذلك يا روز؟ انظري كيف سُمح لكل شيء بالاختلاط معًا - الهندباء والسوسن، ما هو شائع والأكثر رقيًّا، أنا والسيدة فيشر - والجميع مُرحب بهم، وقد اختلط الكل كيفما اتفق، وجميعنا سعداء للغاية ومستمتعون.

ابتسمت السيدة أربوثنوت قائلة:

- لا تبدو السيدة فيشر سعيدة... ليس بوضوح على أي حال.

- سرعان ما ستبدأ في الشعور بالسعادة، سترين.

قالت السيدة أربوثنوت إنها لا تعتقد أن الناس يبدأون أي شيء بعد سن معينة.

قالت السيدة ويلكنز إنها متأكدة أنه لا يمكن لأي شخص، مهما كان عجوزًا وقاسيًا، أن يقاوم تأثير هذا الجمال المثالي. قبل مرور عدة أيام،

وربما ساعات فحسب، سيرون السيدة فيشر تنفجر بجميع أنواع البهجة.
قالت السيدة ويلكنز:

- أنا على ثقة تامة بأننا وصلنا إلى الجنة، وبمجرد أن تدرك السيدة فيشر أن هذا هو المكان الذي توجد به، فمن المحتم أن تتغير. سوف ترين. ستتخلى عن جمودها، وستلين تمامًا، وتصبح قادرة على التواصل، وسنصير... لن أتعجب إذا صرنا نميل إليها للغاية.

ضحكت السيدة أربوثنوت من فكرة تفجر السيدة فيشر في أي شيء، وهي التي بدت جامدة تمامًا. تسامحت مع أسلوب حديث لوتي المتسيب عن الجنة، لأنه في مثل هذا المكان، وفي مثل هذا الصباح، كان التسامح في الجو نفسه. إلى جانب ذلك، كان لديها عذر بالفعل.

جلست الليدي كارولين على الجدار حيث تركتاها قبل الإفطار، واختلست نظرة عندما سمعت الضحكات، ورأتهما واقفتين على الممر بالأسفل، وفكرت أن الأمر بمنزلة رحمة، لكونهما تضحكان هناك بالأسفل، ولن تأتيا لتضحكا بجانبها. لم تكن تحب النكات في أي وقت من الأوقات، لكنها كانت تكرهها في الصباح، ولا سيما بالقرب منها، وخصوصًا عندما تزاحم بعضها عند أذنيها. تمنت أن تكون تلكما المرأتان غريبتا الأطوار في طريقهما للخروج للتمشية، وليس في طريقهما للعودة من التمشية. تزايدت ضحكاتهما أكثر فأكثر. ما الذي يمكن أن يكون قد أثار ضحكهما؟

نظرت إلى قمتَي رأسيهما بملامح فائقة الجدية، حيث بدت فكرة قضاء شهر برفقة أشخاص ضاحكين أمرًا جديًّا للغاية. وكما لو أنهما شعرتا بعينيها، استدارتا فجأة ونظرتا نحو الأعلى.

يا للطف المروع لهاتين المرأتين.

انكمشت من ابتساماتهما وتلويحهما، لكنها لم تستطع الانكماش بعيدًا عن الأنظار من دون الوقوع وسط الزنابق. لم ترِد الابتسام، ولم تلوح لهما

في المقابل، وحوَّلت نظرها نحو الجبال البعيدة وتأملتها بعناية، حتى تعبتا من التلويح وابتعدتا عبر الممر، ثم انحرفتا عند منعطف واختفتا.

لاحظتا هذه المرة أنهما قوبلتا بعدم تجاوب، على أقل تقدير.

قالت السيدة ويلكنز بهدوء:

- لو لم نكن في الجنة، لقلت إننا تعرضنا للتجاهل، لكن بما أنه لا يوجد من يتجاهل أحد هناك، فلا يمكن بالطبع أن نكون قد تعرضنا لذلك.

قالت السيدة أربوثنوت:

- ربما تكون غير سعيدة.

قالت السيدة ويلكنز باقتناع:

- مهما كان الأمر فسوف تتخطاه هنا.

قالت السيدة أربوثنوت:

- يجب أن نحاول مساعدتها.

- أوه، لكن لا أحد يساعد أحدًا في الجنة. لقد انتهى كل ذلك. لا يحاول المرء أن يكون شيئًا، أو يفعل شيئًا، بل يوجد بطبيعته فحسب.

حسنًا، لن تخوض السيدة أربوثنوت في ذلك الموضوع الآن... ليس هنا، وليس اليوم. كانت تعرف أن الكاهن سيطلق على كلام لوتي استخفافًا، إن لم يكن تجديفًا. كم بدا عجوزًا من مكانها هنا، كاهنًا عجوزًا للغاية.

تركتا الممر، ونزلتا المصاطب المزروعة بالزيتون، هبوطًا نحو الأسفل، حيث كان البحر الدافئ الخامل بالأسفل يندفع برفق بين الصخور. نمت شجرة صنوبر هناك بالقرب من الماء، وجلستا تحتها، وعلى بعد أمتار قليلة رقد قارب صيد بلا حراك وبطنه الأخضر فوق الماء. أصدرت تموجات البحر أصوات بقبقة خافتة عند أقدامهما، وضيقتا أعينهما لتتمكنا من النظر إلى وهج الضوء وراء ظل شجرتهما. لفحت وجهيهما الرائحة الحارة المتصاعدة من إبر الصنوبر، ومن وسائد الزعتر البري التي تبطن الفراغات بين الصخور، وأحيانًا رائحة عسل نقي من تجمع زهور السوسن الدافئة خلفهما في الشمس.

سرعان ما خلعت السيدة ويلكنز حذاءها وجوربيها، وتركت قدميها تتدليان في الماء. وبعد مشاهدتها لدقيقة، فعلت السيدة أربوثنوت الشيء نفسه. اكتملت سعادتهما حينها، وما كان زوجاهما ليتعرَّفا عليهما. توقفتا عن الحديث، وتوقفتا عن ذكر الجنة، وصارتا مجرد كأسين مترعتين بالرضا.

في هذه الأثناء، جلست الليدي كارولين على جدارها تفكر في موقفها. كانت الحديقة الموجودة على قمة الجدار فاتنة، لكن موقعها جعلها غير آمنة، وعرضة للمقاطعة من الآخرين. ففي أي لحظة، قد يأتي الآخرون ويرغبون في استخدامها، لأن كلًّا من الردهة وغرفة الطعام بهما أبواب تنفتح عليها مباشرة. فكرت الليدي كارولين أنها قد تتمكن من ترتيب الأمر بحيث تصبح لها وحدها فقط. كانت لدى السيدة فيشر الشرفات المُفرَّجة بزهورها المبهجة، علاوة على برج مراقبة لها وحدها، إلى جانب كونها استولت على غرفة النوم الوحيدة الجميلة حقًّا بالمنزل. وكان هناك كثير من الأماكن التي تستطيع المرأتان غريبتا الأطوار الذهاب إليها، حيث رأت بنفسها حديقتين صغيرتين أخريين على الأقل، في حين أن التل الذي تقف عليه القلعة كان بحد ذاته حديقة، بها مسارات ومقاعد. فلماذا لا تُخصص هذه البقعة لها وحدها فقط؟ أحبتها؛ أحبتها أكثر من غيرها. كانت بها شجرة الزمزريق، وشجرة صنوبر، كما كانت تحوي الفريزيا والزنابق، وبها شجرة أثل بدأت تزهر باللون الوردي، وبها الجدار المنخفض الملائم للجلوس، وتتمتع من كل جانب من جوانبها الثلاثة بأروع المناظر: من الشرق الخليج والجبال، ومن الشمال القرية الواقعة عبر المياه الخضراء الصافية الهادئة للميناء الصغير، والتلال التي تنتشر فيها البيوت البيضاء وبساتين البرتقال، ومن الغرب الخيط الرفيع من الأرض الذي يربط سان سالفاتوري بالبر الرئيسي، ثم البحر المفتوح وخط الساحل وراء جنوة، وصولًا إلى الزرقة المعتمة باتجاه فرنسا. أجل، ستقول إنها تريد الحصول على هذه الحديقة لنفسها فقط. من المنطقي بشكل واضح أن يكون لكلٍّ منهن مكان خاص للجلوس

على حدة. كان من الضروري لراحتها أن تصبح قادرة على الانعزال، وأن تُترك بمفردها من دون أن يتحدث إليها أحد. ويجب أن تحب الأخريات ذلك أيضًا. لماذا يتجمعن كالقطيع؟ كان المرء يعاني ذلك بما فيه الكفاية في لندن، مع الأقارب والأصدقاء - أوه، ما أكثرهم! - وهم يضغطون على المرء باستمرار. وبعد أن نجحت في الهروب منهم لمدة أربعة أسابيع، لماذا عليها أن تستمر في الاجتماع مع أشخاص لا علاقة لها بهم؟

أشعلت سيجارة، وبدأت تشعر بالأمان. ذهبت تلكما المرأتان للتمشية، ولم يكن هناك أثر للسيدة فيشر. كم كان هذا لطيفًا للغاية.

خرج شخص ما من بين الأبواب الزجاجية، بمجرد أن أخذت نفَسًا عميقًا وهي تشعر بالأمان. بالتأكيد لا يمكن أن تكون السيدة فيشر، تريد الجلوس معها؟ كانت لدى السيدة فيشر شرفاتها المُفرَّجة، ويجب أن تبقى فيها بعد أن استولت عليها. سيكون الأمر متعبًا للغاية إذا لم تفعل، وأرادت ليس فقط الحصول عليها وعلى غرفة جلوسها، بل والاستقرار في هذه الحديقة أيضًا.

لا، لم تكن السيدة فيشر، بل الطاهية.

تجهمت: هل سيتعين عليها الاستمرار في طلب الطعام؟ بالتأكيد ستتولى واحدة أو أخرى من تلكما المرأتين الملوحتين القيام بذلك الآن.

ظلت الطاهية تنتظر باضطراب متزايد في المطبخ، وتراقب الساعة بينما يقترب وقت الغداء في حين أنها لا تعرف بعد ما ستتألف منه وجبة الغداء، وفي النهاية ذهبت إلى السيدة فيشر، التي لوَّحت لها لترحل على الفور. تجولت بعد ذلك في أرجاء المنزل باحثة عن سيدة، أي سيدة، تخبرها بما تطبخه، وعندما لم تجد أحدًا، أتت أخيرًا إلى الليدي كارولين، بعد أن دلتها فرانشيسكا التي تعرف دائمًا مكان وجود الجميع.

كان دومينيكو هو من أتى بهذه الطاهية، واسمها «كوستانزا»، شقيقة أحد أبناء عمومته الذي يمتلك مطعمًا في الساحة بالأسفل. كانت تساعد شقيقها في الطهي عندما لا تكون منشغلة بأي عمل آخر، وتعرف كل أنواع الأطباق

الإيطالية الدسمة الغامضة، التي يحب أن يتناولها عمَّال كاستانييتو الذين يزدحم بهم المطعم في منتصف اليوم، وسكان ميتزاجو عندما يأتون في يوم الأحد. كانت عانسًا نحيلة في الخمسين من عمرها، ذات شعر أشيب، رشيقة، رخيمة الصوت. وكانت تعتقد أن الليدي كارولين أجمل من أي واحدة رأتها من قبل، وكذلك اعتقد دومينيكو، والصبي جوزيبي الذي يساعد دومينيكو، وكان علاوة على ذلك ابن شقيقه، وكذلك الفتاة أنجيلا، التي تساعد فرانشيسكا، وكانت إلى جانب ذلك ابنة شقيق دومينيكو، وكذلك فرانشيسكا نفسها. كان دومينيكو وفرانشيسكا الوحيدين اللذين شاهدا المرأتين اللتين وصلتا مؤخرًا، واعتقدا أنهما جميلتان للغاية، لكن بالمقارنة مع تلك الشابة الجميلة التي وصلت أولًا، بدتا مثل شمعتين بجانب الأنوار الكهربائية التي رُكِّبت مؤخرًا، أو مثل أحواض الاستحمام الكائنة في غرف النوم، والمصنوعة من القصدير، بجانب الحمام الرائع الذي رتب سيدهم لتركيبه خلال زيارته الأخيرة.

عبست الليدي كارولين في وجه الطاهية، وكالعادة، تحوَّل العبوس وهو في طريقه إلى الارتسام على وجهها إلى ما بدا كأنه جدية وتركيز على نحو جميل، فرفعت كوستانزا يديها عاليًا، وطلبت من القديسين بصوت مرتفع أن يشهدوا أن هاهنا نسخة شبيهة بالسيدة العذراء.

سألتها الليدي كارولين بضيق عما تريده، فأمالت كوستانزا رأسها جانبًا مبتهجة من الموسيقى الخالصة بصوتها. انتظرت لحظة، تحسبًا في حال ما إذا كانت الموسيقى ستستمر، حيث لم ترغب في أن يفوتها شيء منها، ثم قالت إنها تريد الأوامر، بعد أن ذهبت إلى والدة السيدة من دون جدوى.

نفت الليدي كارولين قائلة بغضب:

- إنها ليست والدتي.

وبدا غضبها مثل صيحة مؤسفة ليتيم شجي.

صبت كوستانزا شفقتها، وأوضحت أنها هي أيضًا ليست لديها أم...

قاطعتها الليدي كارولين بمعلومات مقتضبة مفادها أن والدتها على قيد الحياة، في لندن.

شكرت كوستانزا الرب والقديسين لأن الشابة لم تعرف بعد كيف تكون الحال من دون أم، فسرعان ما تحل بالمرء المصائب، ولا شك أن الشابة لديها زوج بالفعل.

قالت الليدي كارولين ببرود:

- لا.

كانت تكره فكرة الأزواج في الصباح، أكثر من النكات. ودائمًا ما كان الجميع يحاولون الضغط عليها بهم: كل أقاربها، وكل أصدقائها، وكل صحف المساء. ففي النهاية، لم يكن في وسعها الزواج إلا بشخص واحد فقط على أي حال، لكن كان المرء سيعتقد من الطريقة التي يتحدث بها الجميع، ولا سيما أولئك الذين أرادوا أن يصبحوا أزواجًا، أنها يمكنها الزواج بما لا يقل عن اثني عشر شخصًا.

كلمة «لا» اللطيفة المثيرة للشفقة تلك التي تفوَّهت بها، جعلت كوستانزا الواقفة بالقرب منها تفيض شفقة.

قالت كوستانزا:

- يا للمسكينة الصغيرة.

وفي الواقع، اقتربت منها لتربت على كتفها في تشجيع، وتابعت قائلة:

- ليكن لديك أمل، ما زال هناك متسع من الوقت.

قالت الليدي كارولين بنبرة باردة:

- بالنسبة إلى الغداء، سوف نتناول...

وبينما هي تتحدث، تعجبت من أن يربت عليها أحدهم، وهي التي تجشمت الكثير من المتاعب كي تأتي إلى مكان بعيد ومخفي، حيث يمكنها التأكد أنها لن تجد التربيت أيضًا، من بين الأشياء الأخرى ذات الطبيعة المزعجة المشابهة.

صار سلوك كوستانزا عمليًّا، وقاطعتها باقتراحات، وكانت اقتراحاتها كلها رائعة، وكلها باهظة الثمن.

لم تكن الليدي كارولين تعلم أنها باهظة الثمن، ووافقت عليها في الحال. بدت لطيفة للغاية، حيث تضمنت كل نوع من أنواع الخضراوات والفواكه الغضة، والكثير من الزبدة، وكمية كبيرة من الكريمة، وأعدادًا لا تُصدق من البيض. قالت كوستانزا بحماس في النهاية، تقديرًا لهذا الإذعان، إنه من بين العديد من السيدات والسادة الذين عملت معهم في وظائف مؤقتة مثل هذه، كانت تفضِّل السيدات والسادة الإنجليز. بل كان أكثر من مجرد تفضيل، حيث كانوا يثيرون فيها الشعور بالتفاني، لأنهم يعرفون ما يطلبونه، ولا يبخلون، ويمتنعون عن سحق الفقراء.

استنتجت الليدي كارولين من هذا أنها كانت مسرفة، وسرعان ما ألغت طلب الكريمة.

ظهرت على وجه كوستانزا خيبة الأمل، حيث كانت لها ابنة عم تمتلك بقرة، وكانت الكريمة ستأتي منها ومن ابنة عمها.

قالت الليدي كارولين:

- وربما من الأفضل أيضًا ألا نطلب الدجاج.

ظهرت خيبة الأمل أكثر على وجه كوستانزا، حيث كان شقيقها في المطعم يربي الدجاج في فنائه الخلفي، وكان العديد منه جاهزًا للذبح.

تذكرت الليدي كارولين أن اليوم لا يزال الأول من أبريل فحسب، وربما يكون الناس الذين يعيشون في هامبستيد فقراء، بل في الواقع يجب أن يكونوا فقراء، وإلا لماذا يعيشون في هامبستيد؟ لذلك قالت:

- ولا تطلبي الفراولة أيضًا حتى أستشير السيدات الأخريات. فأنا لست السيدة هنا.

سألتها كوستانزا وخيبة الأمل بادية على وجهها بشدة:

- هل هي السيدة العجوز؟

قالت الليدي كارولين:

- لا.

- أيٌّ من السيدتين الأخريين هي؟

- ولا واحدة منهما.

حينها عادت ابتسامة كوستانزا، حيث كانت السيدة الشابة تمازحها وتطلق النكات. أخبرتها بذلك، بأسلوبها الإيطالي الودود، وبدت سعيدة للغاية.

قالت الليدي كارولين باقتضاب:

- أنا لا أطلق النكات أبدًا. ومن الأفضل أن تذهبي، وإلا فلن يكون الغداء جاهزًا بالتأكيد بحلول الثانية عشرة والنصف.

خرجت منها هذه الكلمات الفظة وهي تبدو في غاية العذوبة، إلى درجة أن كوستانزا شعرت بأنها تتلقَّى الثناء، ونسيت خيبة أملها بشأن الكريمة والدجاج، وانصرفت يغمرها الابتسام والشعور بالامتنان.

فكرت الليدي كارولين: «هذا الأمر لن يصلح أبدًا. لم آتِ إلى هنا لتدبير المنزل، ولن أفعل».

استدعت كوستانزا مرة أخرى، فأتت راكضة، حيث سحرها وقع اسمها بذلك الصوت.

قالت الليدي كارولين بذلك الوجه الملائكي الجاد، الذي كان وجهها عندما تشعر بالانزعاج:

- لقد طلبت الغداء لهذا اليوم، كما طلبت العشاء، لكن من الآن فصاعدًا، اذهبي إلى إحدى السيدات الأخريات لتلقي الطلبات، فلن أطلب المزيد.

بدت فكرة استمرارها في إصدار الأوامر في غاية السخافة، حيث لم تكن تصدر الأوامر في منزلها قَطُّ، ولم يحلم أحد هناك بأن يطلب منها فعل أي شيء. وكان من السخافة إلقاء تلك المسؤولية المملة للغاية على عاتقها هنا، لمجرد أنها تستطيع التحدث باللغة الإيطالية. لتدع المرأتين

غريبتَي الأطوار تعطيا الأوامر، إذا رفضت السيدة فيشر ذلك. كانت السيدة فيشر بالطبع هي المرشحة الطبيعية لتولي تلك المهمة، حيث كانت تتسم بسمت مدبرة منزل قديرة جدًّا. كانت ملابسها ملابس مدبرة منزل، وكذلك الطريقة التي تصفف بها شعرها.

بعد أن وجهت إنذارها بفظاظة تحوَّلت إلى رقة في طريقها للخروج من فمها، وأرفقتها بإيماءة قاطعة تعني السماح بالانصراف، لكنها اتسمت بالرقة والمحبة واللطف كما لو أنها تبارك من يقف أمامها، كان من المزعج أن تظل كوستانزا واقفة بثبات، وقد مال رأسها جانبًا وهي تحدق إليها بسرور واضح.

صاحت الليدي كارولين باللغة الإنجليزية، بغضب مفاجئ:

- أوه، اذهبي بعيدًا!

كانت هناك ذبابة في غرفة نومها ذلك الصباح، التصقت بها تمامًا كما ظلت كوستانزا ملتصقة بها. كانت ذبابة واحدة فقط، لكنها بدت كما لو أنها مجموعة كبيرة من الذباب، وكانت مزعجة للغاية منذ بداية النهار. صممت الذبابة على الاستقرار على وجهها، بينما عزمت هي ألا تسمح لها بذلك. كان إصرارها غريبًا، حيث أيقظتها من النوم ولم تدعها تنام مرة أخرى. ضربت الذبابة، فأفلتت منها من دون ضجة أو جهد، وبلامبالاة تكاد تكون ظاهرة، حتى ضربت نفسها فحسب. عادت مرة أخرى على الفور، وحطت على وجنتها بطنين مرتفع. ضربتها مرة أخرى فأوجعت نفسها، بينما طارت الذبابة بعيدًا برشاقة. فقدت أعصابها واعتدلت جالسة في الفراش وانتظرت، وراقبتها كي تضربها وتقتلها. في النهاية، ظلت تضربها بغضب وبكل قوتها، كما لو أنها عدو حقيقي يحاول إغضابها عن عمد، وطارت الذبابة برشاقة من بين ضرباتها من دون أن تغضب حتى، قبل عودتها مرة أخرى في اللحظة التالية. نجحت في كل مرة في الوصول إلى وجهها، ولم تكترث تمامًا بعدد المرات التي أبعدتها فيها

عنها. ولهذا السبب ارتدت الليدي كارولين ملابسها وخرجت في وقت مبكر إلى هذا الحد. أمرت فرانشيسكا بالفعل بوضع شبكة فوق فراشها، لأنها لن تسمح بأن تتعرض للضيق مرة أخرى على هذا النحو. كان الناس تمامًا مثل الذباب، وتمنت وجود شباك لإبعادهم أيضًا. كانت تضربهم بالكلمات والعبوس، ومثل الذبابة، كانوا ينزلقون من بين ضرباتها من دون أن يُمسوا. وأسوأ من الذبابة، بدوا غير مدركين حتى أنها حاولت ضربهم، حيث إن الذبابة كانت تبتعد لحظة على الأقل، لكن بالنسبة إلى البشر كانت الطريقة الوحيدة للتخلص منهم هي أن تنصرف بنفسها. وهذا هو ما فعلته في شهر أبريل هذا، وهي مرهقة للغاية، وبعد أن وصلت إلى هنا، واقتربت من تفاصيل الحياة في سان سالفاتوري، بدا أنها هنا أيضًا لن تُترك وشأنها.

عند النظر إلى الأمر في لندن، لم يبدُ أن هناك أي تفاصيل. من هناك، بدت سان سالفاتوري فراغًا خاويًا ولذيذًا. ومع ذلك، بعد أربع وعشرين ساعة فقط، اكتشفت أنها لم تكن خاوية قَطُّ، وأن عليها إبعاد الآخرين بهمة كما كانت الحال دائمًا. التصق بها كثير من الناس بالفعل، حيث التصقت بها السيدة فيشر طوال اليوم السابق تقريبًا، كما لم تنعم بالهدوء صباح اليوم، ولا حتى عشر دقائق بمفردها من دون مقاطعة.

اضطرت كوستانزا إلى الانصراف أخيرًا بالطبع، لأنها كان عليها تولي أمر الطهي، لكن ما إن انصرفت حتى أتى دومينيكو. جاء لري النباتات وربطها إلى دعامات، وكان هذا طبيعيًّا لأنه البستاني، لكنه روى وربط كل الأشياء الأكثر قربًا منها، وحام أقرب فأقرب منها: أسرف في الري، وربط النباتات التي بدت مستقيمة وثابتة مثل الأسهم. حسنًا، على الأقل كان رجلًا، ومن ثَمَّ لم يكن مزعجًا للغاية. قوبلت تحية الصباح الباسمة التي ألقاها بابتسامة مماثلة، وحينها نسي دومينيكو عائلته، وزوجته، ووالدته، وأطفاله الكبار، وجميع واجباته، وأراد فقط تقبيل قدمَي تلك الشابة.

لم يستطع ذلك، للأسف، لكنه كان يستطيع الحديث في أثناء أداء عمله، وقد تحدث بالفعل. تحدث كثيرًا، وانسكبت منه كل أنواع المعلومات، موضحًا ما قاله بإيماءات مفعمة بالحيوية إلى درجة أنه اضطر إلى ترك رشاش الماء، ومن ثَمَّ أخَّر الانتهاء من الري.

تحملت الليدي كارولين ذلك بعض الوقت، لكن سرعان ما لم تعد قادرة على التحمُّل، وبما أنه لم ينصرف، ولم تستطع هي أن تأمره بذلك، نظرًا إلى أنه كان منشغلًا بعمله الطبيعي، اضطرت مرة أخرى إلى أن تنصرف هي.

نزلت من الجدار وانتقلت إلى الجانب الآخر من الحديقة، حيث يوجد في سقيفة خشبية بعض الكراسي المنخفضة المريحة المصنوعة من القصب. كل ما أرادته هو أن تدير ظهر أحد هذه المقاعد لدومينيكو بحيث تواجه البحر باتجاه جنوة. كان طلبًا بسيطًا للغاية، بحيث يعتقد المرء أنها قد تتمكن من فعل ذلك من دون التعرض للمضايقة. لكن دومينيكو كان يراقب كل حركة من حركاتها، وعندما رآها تقترب من المقاعد اندفع وراءها وأمسك أحدها، وطلب إخباره بالمكان الذي يضعه فيه.

ألن تفلت أبدًا ممن يرغبون في القيام على خدمتها، والسهر على راحتها، وسؤالها عن أين تريد وضع الأشياء، واضطرارها إلى تقديم الشكر؟ تحدثت بفظاظة مع دومينيكو، الذي استنتج على الفور أن الشمس أصابتها بالصداع، فهرع وجلب لها مظلة ووسادة ومسند قدم. كان بارعًا ورائعًا، وكان نبيلًا بالفطرة.

أغلقت عينيها باستسلام شديد. لا يمكنها التصرف بقسوة مع دومينيكو. لم تستطع النهوض والتوجه إلى الداخل كما كانت ستفعل لو أنه كان أحد الآخرين. كان دومينيكو ذكيًّا وكفؤًا للغاية، واكتشفت على الفور أنه هو الذي يدير المنزل حقًّا، وهو الذي يفعل كل شيء في الواقع. كما كان سلوكه مبهجًا بالتأكيد، وكان شخصًا فاتنًا بلا شك. كل ما في الأمر هو أنها كانت تتوق بشدة إلى أن تُترك وشأنها. شعرت بأنه لو أمكن فقط، فقط أن

تُترك وشأنها في هدوء تام لهذا الشهر، فربما تنجح في أن تصنع من نفسها شيئًا في نهاية المطاف.

أبقت عينيها مغلقتين، لأنه سيعتقد حينها أنها ترغب في النوم، وسينصرف.

ذابت روح دومينيكو الإيطالية الرومانسية بداخله أمام ذلك المشهد، إذ كان إغلاق عينيها يليق بها بشدة. وقف مفتونًا وهو ساكن تمامًا، حتى ظنت أنه تسلل مبتعدًا، ففتحتهما ثانية.

لا، كان هناك، يحدق إليها. حتى هو. لم يكن هناك مفر من التعرض للتحديق.

قالت:

- لديَّ صداع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وأغلقتهما مرة أخرى.

قال دومينيكو:

- الشمس هي السبب، والجلوس فوق الجدار من دون قبعة.

- أود الإخلاد إلى النوم.

قال بتعاطف:

- أجل يا سيدتي.

ثم انصرف بهدوء.

فتحت عينيها بتنهيدة ارتياح. أظهر لها صوت الأبواب الزجاجية وهي تُغلق بهدوء أنه لم يبتعد تمامًا فحسب، بل حبسها في الحديقة حتى لا يزعجها أحد. ربما تبقى وحدها الآن حتى موعد الغداء.

بدا الأمر غريبًا للغاية، ولم يكن هناك في العالم من يمكنه الشعور بالدهشة أكثر منها هي نفسها، لكنها أرادت أن تفكر. لم يسبق لها أن أرادت ذلك من قبل. بالنسبة إلى كل شيء آخر يمكن فعله من دون الكثير من الإزعاج، فقد أرادت فعله، أو قامت به بالفعل في فترة أو أخرى من حياتها، لكن لم يسبق أن أرادت التفكير قَطُّ. أتت إلى سان سالفاتوري بنية

واحدة، وهي أن ترقد في غيبوبة لمدة أربعة أسابيع في الشمس، في مكان لا يوجد فيه والداها وأصدقاؤها، محاطة بالنسيان، ولا تنهض إلا لتناول الطعام. ولم تمضِ أكثر من بضع ساعات هناك، عندما استحوذت عليها هذه الرغبة الجديدة الغريبة.

كانت هناك نجوم رائعة في الليلة السابقة، فخرجت إلى الحديقة العلوية بعد العشاء، تاركة السيدة فيشر بمفردها مع الجوز والنبيذ، وجلست على الجدار في المكان الذي احتشدت فيه الزنابق برؤوسها الشبيهة بالأشباح. نظرت إلى الخليج ليلًا، وبدا فجأة كأن حياتها برمتها كانت ضجيجًا بلا معنى.

فوجئت لذلك بشدة. كانت تعرف أن النجوم والظلام يولِّدان مشاعر غير عادية، لأنها رأتها تتولد لدى الآخرين، لكن لم يسبق أن تولدت داخلها هي من قبل. ضجيج بلا معنى. تساءلت هل يمكن أن تكون على ما يرام؟ منذ فترة طويلة مضت، أدركت أن حياتها عبارة عن ضجيج، في الواقع كان شديدًا، إلى درجة أنها شعرت بأن عليها الابتعاد عنه بعض الوقت وإلا ستصاب بالصمم تمامًا، وربما بشكل دائم. لكن ماذا لو كان كل ذلك مجرد ضجيج بلا معنى؟

لم يطرأ على ذهنها مثل ذلك السؤال من قبل، وجعلها هذا تشعر بالوحدة. أرادت أن تكون وحدها، لكنها لم ترغب في أن تكون وحيدة. كان ذلك أمرًا مختلفًا تمامًا: كان شيئًا موجعًا، يؤلم المرء بشدة من الداخل. كان هذا هو أشد ما يخشاه المرء. وكان هذا هو ما يدفع المرء إلى الذهاب إلى العديد من الحفلات، لكن بدا مؤخرًا في مرة أو مرتين أن حتى الحفلات ليست بمنزلة حماية مؤكدة. هل من الممكن ألا تكون للوحدة علاقة بالظروف، لكن فقط بالطريقة التي يواجه بها المرء تلك الظروف؟ فكرت أنه ربما كان من الأفضل أن تخلد إلى الفراش، فلا يمكن أن تكون على ما يرام.

ذهبت إلى الفراش، وفي الصباح، بعد أن هربت من الذبابة وتناولت

إفطارها وخرجت مرة أخرى إلى الحديقة، راودها ذلك الشعور نفسه مرة ثانية في وضح النهار. مرة أخرى، راودها ذلك الشك نفسه المثير للاشمئزاز حقًّا أن حياتها حتى الآن لم تكن صاخبة فحسب، بل خاوية أيضًا. حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت أول ثمانية وعشرين عامًا من عمرها - أفضل سنواتها - قد انقضت في ضجيج بلا معنى، فمن الأفضل لها أن تتوقف لحظة وتنظر حولها، تتوقف، كما كان يُقال في تلك الروايات المتعبة، وتتأمل. فلم يكن لديها الكثير من السنوات التي يمكن تقسيمها إلى مجموعات تبلغ كلٌّ منها ثمانية وعشرين عامًا. بعد أول مجموعة، ستكبر لتصبح مثل السيدة فيشر، وبعد اثنتين... أشاحت بنظرها.

كانت والدتها ستشعر بالقلق إذا عرفت، إذ كانت والدتها تدللها. كما كان والدها سيشعر بالقلق، إذ كان يدللها هو الآخر. كان الجميع يدللونها. وعندما أصرت بعناد عذب على الذهاب لتدفن نفسها في إيطاليا لمدة شهر كامل مع سيدات غريبات الأطوار عثرت عليهن من خلال إعلان، ورفضت حتى اصطحاب خادمتها، كان التفسير الوحيد الذي تمكن أصدقاؤها من تخيله هو أن سكراب المسكينة - كان هذا اسمها بينهم - قد أجهدت نفسها، وتشعر بتعب الأعصاب بعض الشيء.

حزنت والدتها عند رحيلها. كان إقدامها على فعل ذلك أمرًا غريبًا للغاية، وعلامة على خيبة الأمل. شجعت والدتها الفكرة العامة بكونها على مشارف الانهيار العصبي. لو أنها استطاعت رؤية محبوبتها سكراب، التي تسر النظر أكثر من أي ابنة لأي أم أخرى على الإطلاق، والتي هي محط فخرها المطلق، ومصدر كل آمالها العزيزة، وهي جالسة في الظهيرة تحدق إلى فراغ البحر المتوسط، وتفكر في مجموعات سنوات عمرها المحتملة التي تبلغ كلٌّ منها ثمانية وعشرين عامًا، لشعرت بالبؤس. كان ذهابها بمفردها أمرًا سيئًا، لكن الانشغال بالتفكير كان أسوأ. لا يمكن أن ينتج أي شيء مُجدٍ من خلال انشغال شابة جميلة بالتفكير. يمكن أن تنتج عن ذلك التعقيدات بغزارة، لكن

لن ينتج أي شيء مُجدٍ. من المحتم أن يؤدي تفكير الجميلات إلى التردد، والمقاومة، والتعاسة لجميع المحيطين. وها هي ذي سكراب هنا، لو أنها تمكنت من رؤيتها، جالسة مستغرقة بشدة في التفكير. ويا لتلك الأشياء التي تفكر فيها! أشياء خاصة بكبار السن. أشياء لا يبدأ أحد التفكير فيها حتى يبلغ الأربعين من العمر على الأقل.

٩

كانت غرفة الجلوس تلك التي اتخذتها السيدة فيشر لنفسها من بين الغرفتين الكائنتين بالمنزل غرفة ذات سحر وطابع مميز. عاينتها برضا عندما دخلتها بعد الإفطار، وأحست بالسعادة لأنها لها. كانت أرضيتها مكسوة بالبلاط، وجدرانها بلون العسل الشاحب، وأثاثها مُطعَّمًا بلون العنبر، وبها كتب عتيقة، العديد منها مغلف بأغلفة بلون العاج أو الليمون. وكانت هناك نافذة كبيرة تطل على البحر في اتجاه جنوة، وباب زجاجي تستطيع من خلاله الخروج إلى الشرفات المُفرَّجة والمشي عبرها، والمرور ببرج المراقبة العتيق الجذاب، الذي كان في حد ذاته غرفة بها مقاعد ومكتب، وعلى الجانب الآخر من البرج، انتهت الشرفات المُفرَّجة بمقعد رخامي، حيث يمكن للمرء رؤية الخليج الغربي، والنقطة التي يبدأ عندها خليج سبيتسيا. وكان المنظر الذي تطل عليه من جهة الجنوب بين هذين الامتدادين للبحر تلًّا آخر، أعلى من سان سالفاتوري، يمثل طرف شبه الجزيرة الصغيرة، وتعلو قمته أبراج غير مميزة لقلعة أخرى أصغر غير مأهولة، كانت أشعة الشمس الغاربة تظل ملتمعة فوقها بعد أن يغرق كل شيء آخر في الظلال. نعم، لقد استقرت هنا على نحو مريح للغاية، وكانت هناك أوعية - لم تتفحص السيدة فيشر طبيعتها من كثب، لكنها بدت كأنها أحواض حجرية صغيرة، أو ربما توابيت صغيرة - أحاطت الشرفات المُفرَّجة وبها زهور.

تأملت هذه الشرفات المُفرَّجة، وفكرت أنها كانت ستصبح مكانًا مثاليًّا

لها للسير على مهل جيئة وذهابًا في اللحظات التي لا تشعر فيها بالحاجة إلى عصاها بدرجة كبيرة، أو الجلوس على المقعد الرخامي، بعد وضع وسادة أولًا، لو لم يكن هناك للأسف باب زجاجي ثانٍ ينفتح عليها، ويدمر خصوصيتها الكاملة، مما أفسد شعورها بأن المكان مخصص لها فقط. كان الباب الثاني يخص غرفة الاستقبال المستديرة، التي رفضتها هي والليدي كارولين لأنها معتمة للغاية. على الأرجح، ستجلس تلكما المرأتان القادمتان من هامبستيد في تلك الغرفة، وخشيت ألا تكتفيا بالجلوس فيها، وأن تخرجا من الباب الزجاجي وتقتحما شرفاتها المُفرَّجة، وهذا من شأنه أن يفسد الشرفات. على حد رأيها، ستفسد إذا تعرضت للاقتحام، أو حتى لو لم تتعرض للاقتحام الفعلي، فقد كانت عرضة للتفتيش من قِبل أعين الأشخاص الموجودين داخل الغرفة. ولا يمكن أن يشعر أي شخص براحة تامة إذا كان خاضعًا للمراقبة، ويعلم ذلك. كان ما تريده، وما يحق لها بكل تأكيد، هو الخصوصية. لم تكن ترغب في التطفل على الآخرين، فلماذا إذن يتطفلون عليها؟ كما يمكنها دائمًا تخفيف شدة خصوصيتها، إذا ظنت أن الأمر يستحق بعد أن تتعرَّف إلى رفيقاتها على نحو أفضل، لكنها تشككت في أنها ستكتشف أن أيًا من الثلاث ستجعلها تعتقد أن الأمر يستحق.

فكرت السيدة فيشر أنه لا يوجد شيء تقريبًا يهم، باستثناء الماضي. كان تفوق الماضي على الحاضر أمرًا مدهشًا، ومذهلًا بكل بساطة. كان أصدقاؤها الذين في لندن أشخاصًا محترمين في مثل سنها، يعرفون الماضي نفسه الذي عرفته، ويمكنهم التحدث عنه معها، ومقارنته بالحاضر الأجوف كما تفعل هي، وعندما يتذكرون الرجال العظماء، ينسون للحظة الشباب التافه العقيم الذين ما زالوا يملأون العالم بهذه الأعداد، على الرغم من الحرب. لم تبتعد عن أولئك الأصدقاء، هؤلاء الأصدقاء الناضجين الذين يمكن التحدث معهم، من أجل قضاء وقتها في إيطاليا وهي تتحدث مع ثلاث

نساء من جيل آخر تنقصهن الخبرة، بل أتت فقط لتفادي غدر شهر أبريل في لندن. كان صحيحًا ما قالته لتلكما الاثنتين اللتين جاءتا إلى برينس أوف ويلز تيراس: كل ما أرادت فعله في سان سالفاتوري هو الجلوس بمفردها في الشمس واجترار الذكريات. كانتا تعرفان هذا، لأنها أخبرتهما. عبَّرت عن هذا بوضوح، وفهمتاها بوضوح. لذلك كان لها الحق في أن تتوقع منهما البقاء داخل غرفة الاستقبال المستديرة، وعدم مقاطعتها بالخروج إلى شرفاتها المُفرَّجة.

لكن هل ستفعلان ذلك؟ أفسد الشك صباحها. لم تعثر على طريقة للبقاء في أمان تام سوى قرب وقت الغداء، فقرعت الناقوس لطلب فرانشيسكا، وأمرتها بلغة إيطالية متمهلة ومهيبة بإغلاق مصراعَي الباب الزجاجي لغرفة الاستقبال المستديرة، ثم ذهبت معها إلى الغرفة التي صارت معتمة أكثر من ذي قبل نتيجة لذلك، لكن السيدة فيشر قالت لفرانشيسكا، التي ثرثرت في احتجاج، إن الغرفة ستبقى باردة على نحو لطيف بسبب هذه العتمة، وفي النهاية، كان هناك عديد من النوافذ المشقوقة في الجدران للسماح بدخول الضوء، ولا شأن لها بالأمر إذا لم يكن الضوء يدخل منها، ثم أمرت بوضع خزانة من التُّحف أمام الباب من الداخل.

من شأن هذا أن يمنع الخروج.

ثم قرعت الناقوس لطلب دومينيكو، وجعلته يحرك أحد الأحواض المليئة بالزهور أمام الباب من الخارج.

من شأن هذا أن يثبط الدخول.

تردد دومينيكو قائلًا:

- لن يتمكن أحد من استخدام الباب.

قالت السيدة فيشر بحزم:

- لن يرغب أحد في ذلك.

عادت بعد ذلك إلى غرفة جلوسها، ومن فوق كرسي وُضع بحيث

يمكنها النظر إليها مباشرة، تأملت الشرفات المُفرَّجة التي باتت مؤمنة لها تمامًا الآن، بهدوء وسرور.

فكرت بهدوء أن الوجود هنا أرخص كثيرًا من الإقامة في فندق، وإذا تمكنت من إبعاد الأخريات فسيكون ألطف بكثير. دفعت مقابل غرفها – وهي غرف لطيفة للغاية، الآن وقد استقرت بها – ثلاثة جنيهات إسترلينية في الأسبوع، أي ثمانية شلنات في اليوم تقريبًا، شاملة الشرفات المُفرَّجة وبرج المراقبة وكل شيء. في أي مكان بالخارج سوى هذا يمكنها العيش بمثل هذا المستوى، بمثل ذلك المبلغ الضئيل، وتستحم قدر ما تشاء، مقابل ثمانية شلنات في اليوم؟ بالطبع لم تعرف حتى الآن كم سيتكلف طعامها، لكنها ستصر على توخي الحذر في ذلك الصدد، على الرغم من أنها ستصر على التميز بجانب الحرص. كان الاثنان متوافقين تمامًا، إذا عمل متعهد الطعام على ذلك جاهدًا. وقد تأكدت من ضآلة أجور الخدم، بفضل هذه الترتيبات المواتية، بحيث لم يعد هناك ما يثير قلقها سوى الطعام. إذا رأت علامات الإسراف فستقترح أن تسلم كلٌّ منهن مبلغًا معقولًا كل أسبوع لليدي كارولين ليغطي الفواتير، مع إعادة أي مبلغ لم يُستخدم، وإذا تم تجاوز ذلك المبلغ فيتحمل متعهد الطعام الخسارة.

كانت السيدة فيشر ميسورة الحال، وترغب في الحصول على وسائل الراحة المناسبة لسنها، لكنها تكره النفقات. كانت ميسورة الحال إلى درجة أنها إذا شاءت، لكان في إمكانها العيش في منطقة فخمة من لندن، والانتقال منها وإليها في سيارة رولز رويس. لكن لم تكن لديها مثل هذه الرغبة، حيث كان التعامل مع منزل في منطقة فاخرة وسيارة رولز رويس، يحتاج إلى حيوية بدرجة أكبر مما يتماشى مع الراحة الحقيقية. كما كانت الهموم تصحب مثل هذه الممتلكات: هموم من كل نوع، متوجة بالفواتير. وسط جو الكآبة والجدية الذي يلف برينس أوف ويلز تيراس، يمكنها الاستمتاع في هدوء براحة حقيقية غير مكلفة، من دون

أن يتنازعها الناهبون من الخدم أو جامعو الأموال للجمعيات الخيرية، وكان موقف السيارات الأجرة يقع عند نهاية الطريق. كانت نفقاتها السنوية ضئيلة، كما كان المنزل موروثًا. تولى الموت تأثيثه لها: في غرفة الطعام، وطئت السجاد التركي الذي يعود إلى أسلافها، ونظمت يومها وفقًا للساعة الرخامية السوداء الممتازة الكائنة على رف المدفأة، والتي تذكرها منذ طفولتها، وغطت جدرانها بالكامل صور أصدقائها المرموقين المتوفين، التي قدموها إما لها وإما لوالدها، وخط أياديهم يعلو الأجزاء السفلية من أجسادهم، كما غطت النوافذ نفس الستائر كستنائية اللون التي كانت موجودة طوال حياتها، وزينتها أيضًا بنفس أحواض السمك التي تدين لها بدروسها الأولى في العلوم البحرية، والتي ما زالت تسبح فيها على مهل نفس أسماك الزينة منذ شبابها.

هل كانت نفس أسماك الزينة؟ لم تكن تعلم. ربما كانت تعيش أطول من الجميع، مثل سمك الشبوط. ومن ناحية أخرى، مع مرور السنين، ربما انعزلت بين الحين والحين خلف النباتات البحرية المتوفرة لها في القاع، وتكاثرت ليحل غيرها محلها. أحيانًا ما كانت تتساءل، هل هي نفسها أم لا، وهي تتأملها بين أطباق وجباتها التي تتناولها بمفردها. نفس أسماك الزينة التي كانت موجودة في ذلك اليوم عندما تقدم منها كارليل بغضب - كانت تذكر ذلك جيدًا - في خضم جدال ما مع والدها اشتدت حدته، وضرب الزجاج بقبضته بقوة، مما دفعها إلى الفرار، وصاح في أثناء هروبها قائلًا: «أوه، أيتها الأسماك الملعونة الصماء! أوه، أيتها الملعونة الصماء المحظوظة! لا يمكنكِ سماع شيء من الثرثرة الخرفة الحمقاء البلهاء اللعينة التي يتفوَّه بها سيدكِ، أليس كذلك؟»، أو شيء ما من ذلك القبيل.

كارليل العزيز، صاحب الروح العظيمة: يا له من اندفاع طبيعي في الحديث، ويا لها من حيوية حقة، ويا لها من عظمة حقيقية. كان فظًّا، إن صح التعبير، نعم، فظًّا بلا شك في بعض الأحيان، ويثير الدهشة في غرفة

الاستقبال، لكنه كان رائعًا. مَن مِن الموجودين الآن يمكن أن يضاهيه مكانة؟ ومَن مِن الموجودين يمكن أن يُذكر معه في نفَس واحد؟ قال والدها، الذي لم يكن هناك من يفوقه ذوقًا حينها: «إن توماس خالد». وها هو ذا الجيل، جيل الضآلة هذا، يرفع صوته الضعيف معلنًا عن الشك، أو ما هو أسوأ من ذلك حتى، لا يكلف نفسه عناء رفع صوته على الإطلاق، ولا يقرأ - بدا أمرًا لا يُصدق، لكن هكذا سمعت - لا يقرأ أعماله حتى. لم تقرأ السيدة فيشر أعماله أيضًا، لكن هذا كان مختلفًا. لقد قرأت أعماله. بالتأكيد قرأتها. من المؤكد أنها قرأتها. كان هناك تيوفلسدروك... تتذكر جيدًا خياطًا اسمه «تيوفلسدروك». من المُتوقع تمامًا من كارليل أن يطلق عليه ذلك الاسم. نعم، لا بد أنها قرأت أعماله، على الرغم من أنها نسيت التفاصيل بطبيعة الحال.

تعالى صوت رنين الناقوس. سرحت السيدة فيشر في ذكرياتها، ونسيت الوقت، فأسرعت إلى غرفة نومها لتغسل يديها وتسوي شعرها. لم تشأ أن تتأخر وتكون قدوة سيئة، وربما تجد مقعدها إلى رأس الطاولة مشغولًا. لا يمكن أن يثق المرء بسلوكيات هذا الجيل الشاب، ولا سيما في سلوك تلك السيدة ويلكنز.

مع ذلك، كانت أول من وصل إلى غرفة الطعام. وقفت فرانشيسكا في مئزر أبيض، جاهزة ومعها طبق ضخم من المكرونة المتلألئة الساخنة، لكن لم يكن هناك من يأكلها.

جلست السيدة فيشر وبدا عليها الحزم. يا للتراخي.

قالت لفرانشيسكا، التي أبدت استعدادها لانتظار الأخريات:

- قدمي لي الطعام.

قدمت لها فرانشيسكا الطعام. كانت السيدة فيشر هي أقل من تحبهن من بين أفراد المجموعة، وفي الواقع لم تكن تحبها قَطُّ. كانت هي الوحيدة من بين السيدات الأربع التي لم تبتسم بعد. صحيح أنها كانت عجوزًا، وصحيح أنها لم تكن جميلة، وصحيح أنها هكذا لم يكن لديها سبب للابتسام، لكن

السيدات اللطيفات يبتسمن، سواء أكان لديهن سبب أم لا. يبتسمن ليس لأنهن سعيدات، لكن لأنهن يردن أن يكنَّ سعيدات. هكذا قررت فرانشيسكا أن هذه السيدة من بين السيدات الأربع لا يمكن أن تكون لطيفة. لذا ناولتها المكرونة بتجهم، وهي غير قادرة على إخفاء أيٍّ من مشاعرها.

كانت مطهية على نحو جيد للغاية، لكن السيدة فيشر لم تحب المكرونة قَطُّ، ولا سيما هذا الشكل الطويل منها الشبيه بالدود. وجدت صعوبة في تناولها: كانت زلقة، وتتلوى ساقطة من على شوكتها، كما شعرت بأنها تجعلها تبدو غير وقور حينما كانت تعتقد أنها أدخلتها إلى فمها، ومع ذلك تبقى أطرافها متدلية بالخارج. كما أنها دائمًا ما كانت تتذكر السيد فيشر أيضًا، عندما تتناولها، حيث كان سلوكه في أثناء زواجهما شبيهًا بالمكرونة إلى حدٍّ بعيد. كان زلقًا، ويتلوى، وجعلها تشعر بالافتقار إلى الوقار، وعندما كانت تعتقد أخيرًا أنها نجحت في محاوطته بأمان، كانت هناك أجزاء منه، إذا جاز التعبير، تبقى متدلية بالخارج.

وقفت فرانشيسكا عند الطاولة الجانبية، وراقبت أسلوب تعامل السيدة فيشر مع المكرونة بتجهم، وزاد تجهمها عندما رأتها تتناول سكينها أخيرًا، وتقطعها إلى أجزاء صغيرة.

لم تعرف السيدة فيشر حقًّا كيف تتعامل معها خلاف ذلك. كانت تعلم أن استخدام السكين في هذا الصدد غير لائق، لكن صبرها نفد في النهاية. لم يكن مسموحًا بتقديم المكرونة قَطُّ على طاولتها في لندن. بصرف النظر عن كونها متعبة في التعامل، لم تكن تحبها حتى، وستخبر الليدي كارولين بألا تطلبها مرة أخرى. فكرت السيدة فيشر وهي تقطعها أن الأمر سيتطلب سنوات من الممارسة، وسنوات من العيش الفعلي في إيطاليا، لتعلم الطريقة الملائمة تمامًا. كان براونينج يستطيع التعامل مع المكرونة على نحو مثالي. تذكرت مشاهدته ذات يوم عندما جاء لتناول الغداء مع والدها، وقُدِّم طبق من المكرونة على سبيل المجاملة لعلاقته بإيطاليا. بدا من المذهل الطريقة

التي تناولها بها: من دون مطاردة في أنحاء الطبق، ومن دون أن ينزلق شيء من فوق شوكته، ولم تكن هناك أطراف متدلية لاحقًا. غرس شوكته مرة واحدة فحسب، ولفها لفة واحدة، ودفعها في فمه وازدرد دفعة واحدة، ويا للعجب، انتهى الشاعر من غدائه.

لم تعد فرانشيسكا قادرة على رؤية المكرونة الجيدة وهي تُقطع بالسكين، فسألتها:

- هل أذهب وأبحث عن الشابة؟

خرجت السيدة فيشر من تأملاتها بصعوبة، وقالت:

- إنها تعرف أن الغداء في الثانية عشرة والنصف. كلهن يعرفن ذلك.

قالت فرانشيسكا:

- قد تكون نائمة. السيدتان الأخريان في مكان أبعد، لكن هذه ليست بعيدة.

قالت السيدة فيشر:

- اقرعي الناقوس مرة أخرى إذن.

فكرت السيدة فيشر: يا لهذه السلوكيات! يا لها من سلوكيات! لم يكن هذا فندقًا، وكانت هناك اعتبارات يجب مراعاتها. عليها الاعتراف بأنها فوجئت بأمر السيدة أربوثنوت، التي لم تبدُ كأنها شخص غير دقيق في المواعيد. والليدي كارولين أيضًا، بدت ودودًا ومهذبة، بصرف النظر عن أي شيء آخر. أما تلك الأخرى فلم تتوقع منها شيئًا بالطبع.

أحضرت فرانشيسكا الناقوس، وخرجت وسارت به في الحديقة، وقرعته وهي تقترب من الليدي كارولين التي كانت لا تزال ممددة على كرسيها المنخفض، وانتظرت حتى انتهت فرانشيسكا، ثم أدارت رأسها، وبأعذب النبرات انسال منها ما بدا كأنه موسيقى، لكنه كان في الواقع تقريعًا.

لم تدرك فرانشيسكا أن ذلك السيل المتدفق كان تقريعًا، وكيف لها أن تدرك هذا، في حين أنه خرج على ذلك النحو؟ وبوجه تغمره الابتسامات،

حيث لم يسعها سوى الابتسام عند النظر إلى هذه الشابة، أخبرتها بأن المكرونة بدأت تبرد.

قالت سكراب بغضب:

- عندما لا آتي إلى الوجبات، فإن هذا يعني أنني لا أريد حضور الوجبات. لذا لا تزعجيني مرة أخرى مستقبلًا.

سألتها فرانشيسكا بتعاطف:

- هل أنت مريضة؟

لكنها لم تستطع التوقف عن الابتسام، حيث لم يسبق أن رأت من قبل شَعرًا بمثل هذا الجمال، مثل الكتان الخالص، أشبه بشعر الرُّضع في الشمال. على مثل هذا الرأس الصغير لا يمكن أن تحل إلا البركات، وعلى مثل هذا الرأس الصغير يمكن أن تستقر هالة أقدس القديسين.

أغلقت سكراب عينيها، ورفضت الإجابة. وكان هذا أمرًا يفتقر إلى الحكمة من جانبها، لأنه كان من شأنه إقناع فرانشيسكا، التي هرعت والقلق الشديد يغمرها، لتخبر السيدة فيشر بأنها متوعكة. أوضحت السيدة فيشر أنها لا تستطيع الخروج بنفسها إلى الليدي كارولين بسبب عصاها، وبدلا من ذلك، أرسلت إليها تلكما الأخريين اللتين دخلتا في تلك اللحظة وهما مليئتان بالأعذار، وقد غلبهما الحر وتقطعت أنفاسهما، في حين انتقلت هي إلى الطبق التالي، الذي كان عبارة عن عجة مُعدة على نحو جيد، تتفجر أطرافها على نحو طيب بالبازلاء الخضراء الغضة.

أمرت فرانشيسكا، التي أظهرت الاستعداد لانتظار الأخريات مرة ثانية، وقالت:

- قدمي لي الطعام.

عندما سمعت سكراب مزيدًا من الخشخشة فوق الحصى الصغير الكائن قبل العشب، عرفت أن هناك شخصًا آخر يقترب، وسألت نفسها: «أوه، لماذا لا يتركونني وشأني... أوه، لماذا لا يتركونني وشأني؟».

أبقت عينيها مغلقتين بإحكام هذه المرة. لماذا يتعين عليها الدخول لتناول الغداء إذا لم ترغب في ذلك؟ لم يكن هذا منزلًا خاصًا، ولم تكن ملزمة بأي حال من الأحوال باتباع قواعد الواجب حيال مضيفة متعبة. من الناحية العملية، كانت سان سالفاتوري بمنزلة فندق، ويجب تركها وشأنها لتأكل أو لا تأكل، تمامًا كما لو كانت في أحد الفنادق بالفعل.

لكن سكراب تعيسة الحظ لم تستطع الجلوس ساكنة فحسب وعيناها مغلقتان، من دون أن تثير لدى من يرونها تلك الرغبة في ملاطفتها والتربيت عليها، والتي كانت تألفها للغاية، حتى إن الطاهية ربتت عليها. والآن، لمست يد رقيقة - كم كانت تألف وتخشى الأيدي الرقيقة - لمست جبهتها.

أتى صوت قائلًا:

- أخشى أنك لست على ما يرام.

لم يكن صوت السيدة فيشر، ومن ثَمَّ كان لا بد أن يكون صوت إحدى غريبتَي الأطوار.

غمغمت سكراب:

- لديَّ صداع.

ربما كان من الأفضل قول ذلك، ربما كان هذا أقصر طريق كي تنعم بالهدوء.

قالت السيدة أربوثنوت بهدوء، حيث كانت هي صاحبة اليد الرقيقة:

- يؤسفني ذلك.

حدثت سكراب نفسها قائلة: «وأنا التي ظننت أنني سأتجنب الأمهات إذا أتيت إلى هنا».

سألتها السيدة أربوثنوت بحنان:

- هل تعتقدين أن بعض الشاي سيفيدك؟

شاي؟ بدت الفكرة مقيتة لسكراب. أن تتناول الشاي في منتصف النهار، في هذا الجو الحار...

تمتمت:

- لا.

قال صوت آخر:

- أعتقد أن الأفضل لها حقًّا هو أن تُترك في هدوء.

فكرت سكراب: «كم يبدو هذا منطقيًّا»، ورفعت رموش عين واحدة بقدر يكفي فحسب لاختلاس النظر ورؤية من المتحدث.

كانت غريبة الأطوار ذات النمش. إذن كانت ذات الشعر الداكن هي صاحبة اليد. ارتفع تقديرها لصاحبة النمش.

قالت السيدة أربوثنوت:

- لكن لا يمكنني تحمُّل التفكير فيك وأنت تعانين الصداع، من دون فعل شيء حيال ذلك. هل تريدين فنجانًا من القهوة السوداء المركزة؟

لم تتفوَّه سكراب بالمزيد، وانتظرت صامتة من دون حراك، حتى تبعد السيدة أربوثنوت يدها. ففي النهاية، لا يمكنها الوقوف هناك طوال اليوم، وعندما تذهب ستضطر إلى أن تأخذ يدها معها.

قالت صاحبة النمش:

- أعتقد أنها لا تريد شيئًا سوى الهدوء.

وربما سحبت صاحبة النمش تلك الأخرى صاحبة اليد من كمها، حيث خف الضغط على جبهة سكراب، وبعد دقيقة من الصمت، لا شك أنها كانت عرضة للتأمل خلالها - دائمًا ما كانت عرضة للتأمل - علا صوت خشخشة الأقدام فوق الحصى مرة أخرى، وخفت حتى اختفى.

قالت السيدة أربوثنوت وهي تدخل غرفة الطعام، وتجلس في مكانها بجوار السيدة فيشر:

- الليدي كارولين تعاني الصداع، ولا يمكنني إقناعها بتناول القليل من الشاي أو بعض القهوة السوداء. هل تعرفين ماذا يُطلق على الأسبرين باللغة الإيطالية؟

قالت السيدة فيشر بحزم:

- العلاج المناسب للصداع هو زيت الخروع.

قالت السيدة ويلكنز:

- لكنها لا تعاني الصداع.

انتهت السيدة فيشر من تناول العجة، وبات لديها متسع من الوقت للحديث وهي تنتظر الطبق التالي، فقالت:

- عانى كارليل الصداع في فترة ما على نحو رهيب، وواظب على تناول زيت الخروع كعلاج. عليَّ الاعتراف أنه تناوله إلى حد الإفراط تقريبًا، وكما أتذكر، أطلق عليه بطريقته المشوقة تلك «زيت الأحزان». قال والدي إن ذلك لوَّن موقفه تجاه الحياة برمتها، وفلسفته بأكملها. لكن هذا بسبب أنه أسرف في تناوله. ما تحتاج إليه الليدي كارولين هو جرعة واحدة، وجرعة واحدة فقط. من الخطأ الاستمرار في تناول زيت الخروع.

سألتها السيدة أربوثنوت:

- هل تعرفين اسمه بالإيطالية؟

- آه، أخشى أنني لا أعرف ذلك، لكنها ستعرف. يمكنك سؤالها.

كررت السيدة ويلكنز، التي كانت تعاني التعامل مع المكرونة:

- لكنها ليست مصابة بالصداع. كل ما تريده فحسب هو أن تُترك وشأنها.

نظرتا إليها، وخطرت كلمة «مجرفة» على ذهن السيدة فيشر، فيما يتعلق بتصرفات السيدة ويلكنز في تلك اللحظة.

سألتها السيدة أربوثنوت:

- لماذا قالت إنها مصابة به إذن؟

- لأنها لا تزال تحاول أن تكون مهذبة. سرعان ما لن تضطر إلى المحاولة، عندما يؤثر فيها المكان بدرجة أكبر... ستصير مهذبة بالفعل، من دون الحاجة إلى المحاولة، وبشكل طبيعي.

ابتسمت السيدة أربوثنوت، وأوضحت الأمر للسيدة فيشر، التي جلست بصبر بارد في انتظار الطبق التالي الذي تأخر، لأن السيدة ويلكنز واصلت محاولة أكل المكرونة، التي لا بد أنها صارت لا تستحق الأكل أكثر من أي وقت مضى، بعد أن صارت باردة.

- كما ترين، فلدى لوتي نظرية بخصوص هذا المكان...

لكن السيدة فيشر لم ترغب في سماع أي نظرية للسيدة ويلكنز.

نظرت بحدة إلى السيدة ويلكنز، وقاطعتها قائلة:

- من المؤكد أنني لا أعرف لماذا تفترضين أن الليدي كارولين لا تقول الحقيقة.

قالت السيدة ويلكنز:

- أنا لا أفترض، بل أعرف.

قالت السيدة فيشر ببرود:

- وكيف عرفت، بحق السماء؟

حيث كانت السيدة ويلكنز في الواقع تتناول مزيدًا من المكرونة التي عرضتها عليها فرانشيسكا بإلحاح من دون داعٍ للمرة الثانية.

- عندما كنت هناك للتو، رأيت ما بداخلها.

حسنًا، لن تقول السيدة فيشر شيئًا للرد على ذلك، فلن تتجشم عناء الرد على البلاهة الصريحة. بدلًا من ذلك، قرعت الناقوس الصغير الكائن على الطاولة بجانبها بحدة، على الرغم من أن فرانشيسكا كانت واقفة عند الطاولة الجانبية، وقالت بعد أن لم تعد تطيق انتظار طبقها التالي:

- قدمي لي الطعام.

لذلك - لا بد أن ذلك كان متعمدًا - قدمت لها فرانشيسكا المكرونة مرة أخرى.

١٠

لم تكن هناك طريقة للدخول أو الخروج من الحديقة العلوية في سان سالفاتوري إلا من خلال البابين الزجاجيين لغرفة الطعام والردهة، اللذين كانا من سوء الحظ جنبًا إلى جنب. لذا فإن أي شخص في الحديقة يود الهرب من دون أن يراه أحد، لن يتمكن من ذلك، حيث إن الشخص الذي يحاول الهرب منه سيقابله في الطريق. كانت حديقة صغيرة مستطيلة الشكل، وكان التخفي مستحيلًا، حيث إن الأشجار الموجودة - الزمزريق والأثل والصنوبر - كانت تنمو بالقرب من حواجز الشرفات المنخفضة. كما لم تقدم شجيرات الورد أي غطاء حقيقي، إذ كانت خطوة واحدة إلى اليمين أو اليسار منها كفيلة بكشف الشخص الذي يرغب في التمتع بالخصوصية. لكن في الركن الشمالي الغربي، كان هناك مكان صغير يبرز من الجدار الضخم، وهو نتوء أو منحنى من نوع ما، كان يُستخدم بلا شك في الأيام الخوالي حينما كانت الشكوك تسود، بهدف المراقبة، وكان من الممكن الجلوس هناك من دون الظهور بالفعل، نظرًا إلى وجود شجيرة دفنة كثيفة بينه وبين المنزل.

بعد أن تلفتت حولها للتأكد من عدم وجود من يراقبها، نهضت سكراب وحملت كرسيها إلى هذا المكان، وتسللت بحذر على أطراف أصابعها، كمن يتسلل بهدف ارتكاب خطيئة. كان هناك نتوء آخر مثله تمامًا في الجدار في الركن الشمالي الشرقي، ولكنه كان مكشوفًا، على الرغم من أن المنظر

منه يكاد يبدو أكثر جمالًا، حيث يمكنك من خلاله رؤية الخليج والجبال الجميلة وراء ميتزاجو. لم تكن هناك أي شجيرات تنمو به، كما لم يكن يتمتع بأي ظل. كان المنحنى الشمالي الغربي إذن هو المكان الذي ستجلس فيه، فاستقرت هناك، ووضعت رأسها على وسادتها ووضعت قدميها بشكل مريح على حاجز الشرفة، حيث ظهرتا للقرويين في الساحة بالأسفل كيمامتين بيضاوين، وظنت أنها ستصبح الآن في أمان بالفعل.

وجدتها السيدة فيشر هناك، بعد أن استرشدت برائحة سيجارتها، حيث لم تفكر سكراب، التي تفتقر إلى الحذر، في ذلك. لم تكن السيدة فيشر نفسها تدخن، وكان في وسعها تمييز رائحة دخان الآخرين بوضوح أكثر. استقبلتها الرائحة القوية مباشرة عندما خرجت من غرفة الطعام إلى الحديقة عقب الغداء لتتناول قهوتها. كانت قد أمرت فرانشيسكا بوضع القهوة في ظل المنزل، خارج الباب الزجاجي مباشرة، وعندما رأت السيدة ويلكنز الطاولة تُحمل إلى هناك، ذكَّرتها بوقاحة شديدة وبلا لباقة، تبعًا لرأي السيدة فيشر، بأن الليدي كارولين تريد البقاء بمفردها، فأجابت - بتهذيب شديد - أن الحديقة للجميع.

وبناءً على ذلك، دخلت، وأدركت على الفور أن الليدي كارولين كانت تدخن. قالت لنفسها: «يا لهؤلاء الشابات المعاصرات»، ثم شرعت في البحث عنها بعد أن لم تعد عصاها، الآن وقد انتهى الغداء، لم تعد عائقًا للحركة مثلما كانت قبل أن، كما قال براونينج ذات مرة... بالتأكيد كان براونينج؟ أجل، تذكرت كم وجدت الأمر مسليًا... قبل أن تؤمِّن وجبتها.

فكرت السيدة فيشر أنه لم يعد هناك من يسليها الآن، وهي تتجه مباشرة نحو شجيرة الدفنة. صار العالم مملًّا للغاية، وفقد حس الدعابة تمامًا. لا يزال لدى هؤلاء الناس نكاتهم على الأرجح، وفي الواقع كانت تعرف أن لديهم نكاتهم، حيث إن عروض الدمية بنش لا تزال مستمرة، لكن كم كانت العروض مختلفة، ويا لها من نكات. كان ثاكري، بطريقته

الفريدة، سيفرم هذا الجيل تمامًا. وبالطبع لم يكن هذا الجيل مدركًا لمدى احتياجه إلى الخصائص المقوية لذلك القلم اللاذع، بل إنه لم يعد حتى يكن له أي احترام خاص، أو هكذا قيل لها على الأقل. حسنًا، لم يكن في وسعها منحه أعينًا ترى وآذانًا تسمع وقلبًا يفهم، لكنها تستطيع منحه، وستمنحه بالفعل، ممثلًا ومتحدًا في صورة الليدي كارولين، جرعة وافية من العلاج الحقيقي.

وقفت في مدخل المنحنى الضيق، ونظرت إلى الأسفل بملامح جامدة، كمن عزم على فعل الخير مع سكراب التي بدت ساكنة كأنها ذهبت في النوم، وقالت:

- سمعت أنك لست على ما يرام.

كان للسيدة فيشر صوت عميق، يشبه إلى حدٍّ كبير صوت الرجل، فقد غلبت عليها تلك الرجولة الغريبة التي تلاحق المرأة أحيانًا في المراحل الأخيرة من حياتها.

حاولت سكراب التظاهر بأنها نائمة، لكن لو كانت كذلك لما أمسكت بسيجارتها بين أصابعها، بل كانت السيجارة ستسقط على الأرض.

نسيت هذا، لكن السيدة فيشر لم تنسَ، ودخلت المنحنى وجلست على مقعد حجري ضيق بارز من الجدار. يمكنها الجلوس عليه فترة قصيرة؛ قليلًا، حتى يبدأ البرد في التسلل إليها.

تأملت الهيئة الراقدة أمامها. بدت مخلوقة جميلة من دون شك، وكانت ستحقق النجاح في فارينجفورد(*). من الغريب مدى سهولة تأثر حتى أعظم الرجال بالمظاهر الخارجية. لقد رأت بأُمِّ عينيها تينيسون وهو يبتعد عن الجميع، ويدير ظهره تمامًا لحشد من الأشخاص البارزين المجتمعين لتكريمه، وينسحب إلى النافذة مع شابة لم يسمع عنها أحد من قبل، حضرت

(*) منزل الشاعر ألفريد تينيسون. (المترجمة).

إلى هناك عن طريق المصادفة، وكانت الميزة الوحيدة التي تتمتع بها - إذا كان ما يحصل عليه المرء عن طريق المصادفة ميزة! - هي الجمال. الجمال! كان ينقضي تمامًا قبل أن يتمكن المرء من الالتفات حتى، بل قد يقول المرء تقريبًا إنه مسألة دقائق. حسنًا، بدا أنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له بالرجال خلال الفترة التي يدوم بها، وحتى الأزواج لم يكونوا محصنين ضده. كانت هناك فترات في حياة السيد فيشر...

قالت بصوتها العميق:

- أتوقع أن الرحلة قد أتعبتك. ما تحتاجين إليه هو جرعة وافية من دواء بسيط. سأسأل دومينيكو إذا كان لديهم زيت خروع في القرية.

فتحت سكراب عينيها ونظرت إلى السيدة فيشر مباشرة.

قالت السيدة فيشر:

- آه، كنت أعلم أنك لست نائمة. لو كنت كذلك، لتركت سيجارتك تسقط على الأرض.

ألقت سكراب السيجارة من فوق حاجز الشرفة.

قالت السيدة فيشر:

- هذا إسراف. أكره التدخين بالنسبة إلى النساء، لكنني أكره الإسراف بدرجة أشد.

سألت سكراب نفسها: «ماذا يفعل المرء مع الناس الذين على هذه الشاكلة؟»، وثبتت عينيها على السيدة فيشر على نحو ظنت أنه تحديق ساخط، لكنه في الواقع بدا للسيدة فيشر أنه انصياع فاتن.

قالت السيدة فيشر متأثرة:

- الآن عليكِ أن تأخذي بنصيحتي، ولا تهملي ما قد يتحول إلى مرض. نحن في إيطاليا، كما تعلمين، وعلى المرء أن يتوخى الحذر. ينبغي لك، في البداية، أن تستريحي في الفراش.

قالت سكراب بحدة:

- أنا لا أستريح في الفراش أبدًا.

وبدا الأمر مؤثرًا، وبائسًا، مثل تلك العبارة التي نطقتها منذ سنوات وسنوات ممثلة تلعب دور جو المسكينة في نسخة مسرحية من رواية «بيت كئيب». قالت جو المسكينة في المسرحية، بعد أن حثها شرطي على ذلك: «دائمًا ما أرحل»، ووضعت السيدة فيشر، التي كانت فتاة آنذاك، رأسها على الحاجز المخملي الأحمر في الصف الأمامي بشرفة المسرح، وبكت بصوت مرتفع.

كان صوت سكراب رائعًا، وقد منحها خلال السنوات العشر التالية لخروجها وسط الدوائر الاجتماعية، كل الانتصارات التي يمكن أن يحققها الذكاء والفطنة، لأنه جعل كل ما تقوله يبدو كأنه لا يُنسى. كان يجب أن تكون مغنية، بمثل تلك الحنجرة، لكن سكراب كانت فاشلة في جميع أشكال الموسيقى، باستثناء موسيقى الكلام هذه، ويا للروعة، ويا للسحر الكامن في ذلك. كان جمال وجهها وجمال لونها شديدًا، إلى درجة أنه لم يكن هناك رجل لم تتوهج في عينيه شعلة حادة من الاهتمام عند رؤيتها، لكن عند سماع صوتها، كانت تلك الشعلة تتوطد وتثبت في عينَي الرجل. كان الأمر نفسه مع كل رجل: متعلم وغير متعلم، كبير في السن وشاب، مرغوب فيه أو غير مرغوب فيه، رجال من عالمها الخاص وسائقي حافلات، جنرالات وجنود - مرت بأوقات محيرة خلال الحرب - أساقفة وشمامسة على قدم المساواة - وقعت أحداث مذهلة عند إقامة شعائر سر التثبيت لها - مفيدين وغير مفيدين، أثرياء ومفلسين، لامعين وحمقى. ولم يكن هناك أي فرق على الإطلاق، فيما يتعلق بمن يكونون، أو بطول فترة زواجهم واستقراره. كان ذلك اللهب يتوهج في عينَي كل واحد منهم حينما يراها، ويبقى هناك عندما يسمعها.

سئمت سكراب هذه النظرة، حيث لم تؤدِ إلا إلى المتاعب. في البداية، كان الأمر يسعدها، وأحست بالإثارة والانتصار. أن تكون غير قادرة، على ما

يبدو، على قول أو فعل أي شيء خطأ، وأن تلقى الإطراء، والانتباه، والتدليل، والإعجاب، أينما ذهبت، وعندما تعود إلى المنزل لا تجد هناك أيضًا سوى أشد درجات التسامح والفخر والحب... كم هو أمر لطيف للغاية. كما أنه سهل جدًّا أيضًا. لم يكن هناك أي إعداد ضروري لهذا الإنجاز، ولا عمل شاق، ولا شيء لتتعلمه. لم تكن في حاجة إلى تجشم أي عناء. كان عليها فقط أن تظهر، وتقول شيئًا ما.

لكن سرعان ما اكتسبت خبرات، وفي نهاية المطاف اضطرت إلى تجشم العناء، وتعين عليها بذل مجهود، حيث اكتشفت بدهشة وغضب أن عليها الدفاع عن نفسها. تلك النظرة، تلك النظرة المتوهجة، كانت تعني أنهم سيتشبثون بها. كان بعض أصحاب تلك النظرة أكثر تواضعًا من غيرهم، ولا سيما إذا كانوا شبابًا، لكن الجميع، وفقًا لقدراتهم المتفاوتة، كانوا يتشبثون بها. أما هي التي دخلت العالم بكل مرح، ورأسها مرفوع في الهواء، وواثقة تمامًا بأي شخص أشيب الشعر، فقد بدأت تشعر بالريبة، ثم تكره العالم، وتنسحب، حتى باتت تشعر بالسخط. في بعض الأحيان، بدا الأمر كما لو أنها لا تنتمي إلى نفسها، ولا تملك من نفسها شيئًا على الإطلاق، بل كان يُنظر إليها بوصفها شيئًا مشتركًا، نوعًا من الجمال الخاص بالجميع. هؤلاء الرجال، حقًّا... ووجدت نفسها متورطة في مشاجرات غريبة وغامضة، ومكروهة بشكل غريب. هؤلاء النساء، حقًّا... وعندما نشبت الحرب، ألقت بنفسها في خضم أحداثها مع الجميع، وقضى عليها ذلك. هؤلاء الجنرالات، حقًّا...

قضت الحرب على سكراب. قتلت الرجل الوحيد الذي كانت تشعر بالأمان معه، والذي كانت ستتزوجه، وأثار ذلك اشمئزازها من الحب في نهاية المطاف، وباتت تشعر بالمرارة منذ ذلك الحين. أخذت تصارع حلاوة الحياة بغضب مثل دبور علق في العسل، وحاولت تخليص جناحيها بيأس مثله تمامًا. لم يكن من دواعي سرورها التفوق على النساء الأخريات، ولم

تكن تريد رجالهن المملين. ما الذي يمكن أن يفعله المرء بالرجال بعد الحصول عليهم؟ لم يكن أحد منهم يتحدث معها عن شيء سوى أمور الحب، وكم أصبح ذلك سخيفًا ومرهقًا بعد قليل. كان الأمر كما لو أن الشخص السليم الذي يعاني الجوع الطبيعي لا يُعطى أي شيء ليأكله على الإطلاق سوى السكر. الحب، الحب... جعلتها الكلمة نفسها ترغب في صفع شخص ما. «لماذا يجب أن أحبك؟ لماذا يتعين عليَّ ذلك؟». كانت تتساءل بدهشة أحيانًا، عندما يحاول شخص ما - ودائمًا ما كان شخص ما يحاول - التقدم للزواج بها. لكنها لم تحصل على جواب حقيقي قَطُّ، بل مزيد من العبارات غير المترابطة فحسب.

سيطر تشاؤم عميق على المسكينة سكراب، وشابت من الداخل بفعل خيبة الأمل، بينما استمر مظهرها اللطيف والساحر في جعل العالم أكثر جمالًا. ما الذي يحمله لها المستقبل؟ لن تتمكن من التعامل معه، بعد ما واجهته. لم تكن صالحة لأي شيء: أهدرت كل هذا الوقت في أن تكون جميلة فحسب، وماذا بعد ذلك؟ لم تعرف سكراب ماذا بعد ذلك، وقد أرعبها التساؤل حتى. وعلى الرغم من أنها تعبت من كونها لافتة للنظر، فإنها اعتادت ذلك على الأقل، ولم تعرف أي شيء آخر من قبل. وربما كان الأكثر إيلامًا هو أن تصبح غير ملحوظة، وتتلاشى، وتصير رثة وباهتة. وما إن تبدأ في ذلك التحول، كم سيطول بها الأمر، سنوات وسنوات! فكرت سكراب: تخيل أن يقضي المرء معظم سنواته عند طرف عمره الخاطئ. تخيل أن تكون عجوزًا لمدة أطول مرتين أو ثلاثًا من المدة التي قضيتها وأنت شاب. حماقة، حماقة، كان كل شيء بمنزلة حماقة. لم يكن هناك شيء تريد فعله. وكان هناك الآلاف من الأشياء التي لا تريد فعلها. التجنب، والصمت، والاختفاء، وإن أمكن فقدان الوعي... كان هذا التجاهل هو كل ما طلبته في تلك اللحظة، وهنا، حتى هنا، لم يُسمح لها بالهدوء ولو دقيقة، وقد أتت هذه المرأة السخيفة لتتظاهر بأنها تعتقد أنها مريضة، لمجرد أنها

أرادت ممارسة السلطة، وجعلها تذهب إلى الفراش، وجعلها - يا للبشاعة - تشرب زيت الخروع.

شعرت السيدة فيشر ببرودة الحجر تتسلل إليها، وأدركت أنها لن تستطيع الجلوس فترة أطول، فقالت:

- أنا متأكدة أنك ستفعلين ما يمليه العقل. سترغب والدتك... هل لديك أم؟

ظهر تعجب خافت في عينَي سكراب. هل لديك أم؟ من المؤكد أن سكراب لديها أم. لم يخطر ببالها أنه قد يكون هناك أشخاص لم يسمعوا عن والدتها من قبل. كانت واحدة من الماركيزات البارزات - حيث تتفاوت الماركيزات في درجات الأهمية، كما تعلم سكراب جيدًا - وشغلت مناصب عليا في البلاط. كما كان والدها أيضًا بارزًا في أيامه، لكن أيامه انتهت تقريبًا، العزيز المسكين، لأنه ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة في الحرب، إضافة إلى ذلك فقد أصبح الآن كبيرًا في السن، ومع ذلك، كان لا يزال شخصًا معروفًا للغاية. كم هو مريح، كم هو مريح للغاية أن تجد شخصًا لم يسمع قَطُّ عن أيٍّ من عائلتها، أو على الأقل لم يربطها بهم بعد.

بدأت تميل إلى السيدة فيشر. ربما لم تكن غريبتا الأطوار تعرفان عنها شيئًا أيضًا. عندما كتبت إليهما لأول مرة ووقعت باسمها، اسم ديستر العظيم، الذي كان يتلوى دخولًا وخروجًا عبر التاريخ الإنجليزي مثل خيط دموي، لأن حامليه يمارسون القتل باستمرار، اعتبرت أنه من المسلم به أنهما ستعرفان من هي، وفي المقابلة التي أُجريت في شارع شافتسبري، كانت متأكدة أنهما تعرفان ذلك، لأنهما لم تطلبا رسائل التزكية الشخصية، كما كانتا ستفعلان لو كان الأمر خلاف ذلك.

بدأت سكراب تبتهج. إذا لم يكن أحد من الموجودين في سان سالفاتوري قد سمع عنها من قبل، وإذا استطاعت التخلص من شخصيتها لمدة شهر كامل، والابتعاد فورًا عن كل ما يتعلق بها، وتمكنت حقًّا من نسيان كل

التشبث والعرقلة والضجيج، فربما تتمكن من أن تصنع من نفسها شيئًا في نهاية المطاف. ربما تفكر حقًّا، وتصفي ذهنها حقًّا، وتتوصل إلى نتيجة ما بالفعل.

مالت إلى الأمام في مقعدها، وشبَّكت يديها حول ركبتيها وهي تنظر إلى السيدة فيشر، التي كان مقعدها أعلى منها، وكادت تشعر بالحماس، بسبب سعادتها الغامرة لأن السيدة فيشر لا تعرف شيئًا عنها، وقالت:

- ما أريد أن أفعله هنا هو التوصل إلى نتيجة، هذا كل ما في الأمر. هذا ليس الكثير لأطلبه، أليس كذلك؟ هذا فقط.

حدقت إلى السيدة فيشر، وفكرت أن أي نتيجة تقريبًا ستكفيها. كان الشيء العظيم هو الإمساك بشيء ما، والتمسك به جيدًا، والتوقف عن الانجراف.

تفحصتها عينا السيدة فيشر الصغيرتان، وقالت:

- أعتقد أن ما تريده امرأة شابة مثلك هو زوج وأطفال.

قالت سكراب بنبرة ودود:

- حسنًا، هذا أحد الأشياء التي سأفكر فيها، لكنني لا أعتقد أنها ستكون نتيجة.

نهضت السيدة فيشر، حيث تسللت إليها برودة الحجر الآن، وقالت:

- وفي هذه الأثناء، لن أزعج رأسي بالأفكار والاستنتاجات، لو كنت مكانك. أؤكد لك أن رؤوس النساء لم تُخلَق للتفكير. سأذهب إلى الفراش وأتعافى.

قالت سكراب:

- أنا بخير.

- إذن لماذا أرسلت رسالة مفادها أنك مريضة؟

- لم أفعل.

- إذن فقد تجشمت عناء المجيء إلى هنا من دون سبب.

سألتها سكراب بابتسامة:

- لكن ألا تفضلين الخروج كي تجديني بصحة جيدة، بدلًا من الخروج لتجديني مريضة؟

حتى السيدة فيشر تأثرت بالابتسامة.

قالت بتسامح:

- حسنًا، أنت مخلوقة جميلة. من المؤسف أنك لم تولدي قبل خمسين عامًا. كان أصدقائي سيحبون النظر إليك.

قالت سكراب: مكتبة سُر مَن قرأ

- يسعدني للغاية أنني لم أولد حينها، فلا أحب أن ينظر إليَّ أحد.

تجهمت السيدة فيشر مرة أخرى، وقالت:

- هذه سخافة، فلهذا خُلقت الشابات من أمثالك. لأي غرض آخر خُلقن، بحق السماء؟ وأؤكد لك لو أن أصدقائي نظروا إليك، لكنت خضعت لأنظار بعض الأشخاص العظماء للغاية.

عبست سكراب قائلة:

- لا يعجبني الأشخاص العظماء للغاية.

كان هناك حادث قد وقع مؤخرًا... هؤلاء العظماء، حقًّا...

قالت السيدة فيشر، التي صارت الآن في مثل برودة الحجر الذي قامت من فوقه:

- ما لا يعجبني أناهو ذلك الوضع الذي تتخذه المرأة الشابة العصرية. يبدو لي مثيرًا للشفقة، مثيرًا للشفقة تمامًا، بكل سخافته.

ثم سارت مبتعدة وعصاها تسحق الحصى.

قالت سكراب لنفسها: «لا بأس في ذلك».

ثم عادت إلى وضعها المريح ورأسها على الوسادة وقدماها فوق الحاجز.

ما دام الناس سيبتعدون فحسب، فلم يكن يهمها قَطُّ سبب رحيلهم.

سألت والدتها والدَها قبل فترة قصيرة من تصرفها الغريب الأخير ذاك المتعلق بهروبها إلى سان سالفاتوري:

- ألا تعتقد أن سكراب العزيزة صارت غريبة الأطوار بعض الشيء، بعض الشيء فحسب؟

حيث شعرت بالانزعاج من الأشياء الغريبة للغاية التي قالتها سكراب، والطريقة التي اعتادت بها التسلل بعيدًا كلما استطاعت ذلك، وتجنب الجميع سوى الشباب الصغار للغاية، الذين يكادون يكونون صبية تقريبًا، وهي علامة على التقدم في السن.

كان جواب والدها الشغوف بها:

- إيه؟ ماذا؟ غريبة الأطوار؟ حسنًا، دعيها تكن غريبة الأطوار إذا شاءت ذلك. المرأة التي تتمتع بمثل ملامحها يمكنها أن تكون أي شيء تريده.

قالت والدتها بخنوع:

- أنا أدعها بالفعل.

وفي الواقع، حتى لو لم تدعها، فما الفرق الذي سيشكله ذلك في الأمر؟

ندمت السيدة فيشر لأنها أزعجت نفسها بشأن الليدي كارولين. مضت عبر الردهة نحو غرفة جلوسها الخاصة، وضربت عصاها وهي تسير على الأرض الحجرية بقوة متناغمة مع مشاعرها. كانت هذه الأوضاع محض سخافة، ولم يكن لديها صبر للتعامل معها. لقد حاول شباب الجيل الحالي، غير القادرين على أن يصنعوا من أنفسهم شيئًا أو يفعلوا أي شيء بأنفسهم، حاولوا اكتساب سمعة بالذكاء من خلال شجب كل ما كان عظيمًا وجيدًا على نحو واضح، ومن خلال مدح كل شيء مختلف، مهما كان سيئًا على نحو واضح. فكرت السيدة فيشر بانفعال: «حمقى، حمقى، حمقى!». وفي غرفة جلوسها، وجدت مزيدًا من الحمقى، أو ما بدا لها كذلك في حالتها المزاجية الحالية، حيث كانت السيدة أربوثنوت هناك تشرب القهوة بهدوء، بينما جلست السيدة ويلكنز إلى المكتب، المكتب الذي نظرت إليه السيدة فيشر بالفعل بوصفه له قداسة، وهي تستخدم قلمها، قلمها الخاص الذي

جلبته لنفسها فقط من برينس أوف ويلز تيراس: جلست السيدة ويلكنز تكتب على المكتب في غرفتها، بقلمها الخاص.

قالت السيدة أربوثنوت بمودة:

- أليس هذا مكانًا مبهجًا؟ لقد اكتشفناه للتو.

أدارت السيدة ويلكنز رأسها، وقالت بمودة أيضًا:

- أنا أكتب إلى ميلرش.

فكرت السيدة فيشر: «كما لو أنني أكترث بمن تكتب إليه، أو أعرف من يكون ذلك الشخص الذي دعته ميلرش».

تابعت السيدة ويلكنز بتفاؤل استمدته من محيطها:

- سيريد أن يعرف أنني وصلت إلى هنا بأمان.

١١

كانت الروائح الطيبة المنتشرة في كل مكان في سان سالفاتوري وحدها كفيلة بأن تشيع الانسجام. تسللت إلى غرفة الجلوس من الزهور الموجودة في الشرفات، والتقت بالروائح المنبعثة من الزهور الكائنة في الغرفة، حتى فكرت السيدة ويلكنز أنها يمكن رؤيتها تقريبًا وهي تتبادل التحية مع بعضها بقبلة مقدسة. من يمكنه الشعور بالغضب وسط مثل هذه الرقة؟ ومن يستطيع التصرف بطريقة متملكة وأنانية، بذلك الأسلوب اللندني القديم المبتذل، في ظل هذا الجمال السخي؟

ومع ذلك، بدا أن السيدة فيشر تتسم بكل هذه الخصال الثلاث.

كان هناك الكثير جدًّا من الجمال، يكفي لكل شخص ويفيض، إلى درجة أنه بدا من العبث أن يحاول المرء الانفراد بركن منه.

ومع هذا، حاولت السيدة فيشر الانفراد بركن منه، وخصصت جزءًا لاستخدامها الحصري.

حسنًا، سرعان ما ستتجاوز ذلك الأمر، كانت السيدة ويلكنز متأكدة أنها ستتجاوزه لا محالة، بعد يوم أو يومين في جو السلام الاستثنائي الذي يسود ذلك المكان.

لكن في الوقت الحالي، بدا من الواضح أنها لم تبدأ حتى في تجاوز الأمر. وقفت تنظر إليها هي وروز بتعبير بدا عليه الغضب. الغضب، تخيل! فكرت السيدة ويلكنز، يا لها من مشاعر لندنية سخيفة، ناتجة عن توتر الأعصاب،

ورأت بعينيها الغرفة مليئة بالقبلات، وكل من فيها يتلقَّين القبلات، والسيدة فيشر تتلقَّاها بغزارة مثلها هي وروز.

نهضت السيدة ويلكنز على الفور، بعد أن ركزت على الحقيقة، كما هي عادتها، وقالت:

- أنتِ لا تحبين وجودنا هنا. لماذا؟

قالت السيدة فيشر وهي تتكئ على عصاها:

- كنت أعتقد أنكما ستتمكنان من رؤية أن هذه غرفتي الخاصة.

قالت السيدة ويلكنز:

- تقصدين بسبب الصور؟

نهضت السيدة أربوثنوت أيضًا، التي تخضب وجهها وفوجئت بعض الشيء.

قالت السيدة فيشر:

- وورق الرسائل. ورق رسائل مكتوب عليه عنواني في لندن. وذلك القلم...

أشارت إليه، وكان لا يزال في يد السيدة ويلكنز.

وضعته السيدة ويلكنز على الطاولة، وقالت:

- ملك لكِ. أنا آسفة جدًّا.

ثم ابتسمت وأضافت قائلة إنها كتبت للتو بعض الأشياء اللطيفة للغاية.

وجدت السيدة أربوثنوت نفسها غير قادرة على الإذعان لترتيبات السيدة فيشر، من دون مقاومة بسيطة على الأقل، وسألت:

- لكن لماذا لا ينبغي لنا أن نكون هنا؟ إنها غرفة جلوس.

قالت السيدة فيشر:

- هناك واحدة أخرى، ولا يمكنك أنتِ وصديقتك الجلوس في غرفتين في آنٍ واحد، وإذا لم تكن لديَّ رغبة في إزعاجكما في غرفتكما، فلا أرى سببًا يدفعكما إلى الرغبة في إزعاجي في غرفتي.

شرعت السيدة أربوثنوت في الحديث مرة أخرى:

- لكن لماذا...

قاطعتها السيدة ويلكنز، حيث بدا على روز العناد:

- إنه أمر طبيعي تمامًا.

ثم التفتت إلى السيدة فيشر وقالت إنه على الرغم من أن مشاركة الأشياء مع الأصدقاء أمر ممتع، فإنها تستطيع أن تفهم أن السيدة فيشر، التي لا تزال غارقة في أسلوب حياة برينس أوف ويلز تيراس، لا ترغب في ذلك بعد، لكنها ستتخلص من ذلك السلوك بعد قليل، وسيختلف شعورها تمامًا. طمأنتها السيدة ويلكنز قائلة:

- قريبًا، سترغبين في أن نتشارك، بل ربما يصل بك الحد إلى مطالبتي باستخدام قلمك، إذا علمتِ أنني لا أمتلك واحدًا.

انفعلت السيدة فيشر من هذا الخطاب بدرجة كادت تخرج عن حدود السيطرة. فقد أثار انفعالها بشدة أن تربت على ظهرها امرأة شابة مضطربة من هامبستيد، إن جاز التعبير، وتؤكد لها بيقين مبهج أنها سرعان ما ستتحسن، أكثر مما أثارها أي شيء آخر منذ أن اكتشفت لأول مرة أن السيد فيشر لم يكن كما يبدو. يجب إيقاف السيدة ويلكنز عند حدها، بكل تأكيد. لكن كيف؟ فقد بدت كما لو أنها لا تتأثر، على نحو غريب. في تلك اللحظة، على سبيل المثال، كانت تبتسم بسرور وبوجه صافٍ كما لو أنها لم تقل شيئًا وقحًا على الإطلاق. فهل ستعرف أن هناك من يوقفها عند حدها؟ إذا لم تعرف، وإذا كانت أكثر غلظة من أن تشعر بذلك، فماذا إذن؟ لا شيء سوى تفاديها، ولا شيء سوى غرفة جلوس خاصة بالمرء، على وجه التحديد.

قالت السيدة فيشر:

- أنا امرأة عجوز، وأحتاج إلى غرفة لنفسي. لا أستطيع التحرك بسبب عصاي. وبما أنني لا أستطيع التحرك، يجب أن أجلس. فلماذا لا أجلس بهدوء ومن دون إزعاج، كما أخبرتكما في لندن بأنني أنوي

ذلك؟ وإذا كان الناس سيدخلون ويخرجون طوال اليوم، ويثرثرون ويتركون الأبواب مفتوحة، فستكونان قد خرقتما الاتفاق الذي يقضي بأن أنعم بالهدوء.

بدأت السيدة أربوثنوت تقول:

- لكن ليست لدينا أدنى رغبة...

فقاطعتها السيدة ويلكنز مرة أخرى.

قالت السيدة ويلكنز:

- سيسعدنا جدًّا حصولك على هذه الغرفة، إذا كان ذلك يسعدك. لم نكن نعلم بهذا، وهذا هو كل ما في الأمر. لم نكن لندخل لو أننا علمنا... ليس قبل أن توجهي إلينا الدعوة، على أي حال.

ثم نظرت إلى السيدة فيشر وختمت حديثها بمرح قائلة:

- وأتوقع أنك سوف تفعلين ذلك قريبًا.

ثم التقطت رسالتها وأمسكت بيد السيدة أربوثنوت وسحبتها نحو الباب.

لم ترغب السيدة أربوثنوت في الذهاب. على الرغم من أنها كانت من أكثر النساء حلمًا، فإنها امتلأت برغبة غريبة، وليست من شيم المسيحية بكل تأكيد، من أجل البقاء والشجار. لم ترغب في الشجار الفعلي بالطبع، ولا حتى بأي كلمات عدوانية بكل تأكيد. لا، بل أرادت فقط النقاش مع السيدة فيشر، والتفاهم بصبر. لكنها شعرت بأن شيئًا ما يجب أن يُقال، وأنه لا ينبغي لها السماح بأن تُقيَّم بحيث تظهر كما لو أنها تلميذة ضبطها المسؤولون متلبسة بسوء السلوك.

مع ذلك، جذبتها السيدة ويلكنز بقوة نحو الباب حتى خرجتا منه، ومرة أخرى، تساءلت روز عن لوتي، وعن توازنها، ومزاجها اللطيف الهادئ، وهي التي كانت شديدة الاضطراب في إنجلترا. منذ لحظة وصولهما إلى إيطاليا، بدت لوتي كما لو أنها هي الأكبر سنًّا. كانت سعيدة جدًّا بكل تأكيد، بل هانئة في الواقع. هل السعادة تحمي المرء بشكل كامل؟ هل تجعل

المرء محصنًا إلى هذا الحد، وحكيمًا للغاية؟ كانت روز نفسها سعيدة، لكنها لم تكن سعيدة إلى ذلك الحد. بدا بوضوح أنها لم تكن كذلك، لأنها لم ترغب في الشجار مع السيدة فيشر فحسب، بل أرادت شيئًا آخر، شيئًا أكثر من هذا المكان الجميل، شيئًا يكمله: أرادت فريدريك. لأول مرة في حياتها، كانت محاطة بالجمال المثالي، وكان كل ما تفكر فيه هو أن تريه إياه، وتشاركه معه. لقد أرادت فريدريك، وكانت تتوق إلى فريدريك. آه، لو أن فريدريك فقط...

قالت السيدة ويلكنز وهي تغلق الباب بلطف في وجه السيدة فيشر وانتصارها:

- يا لها من عجوز مسكينة. تخيلي، في يوم مثل هذا...

قالت السيدة أربوثنوت:

- إنها امرأة عجوز وقحة للغاية.

- سوف تتغلب على ذلك. أشعر بالأسف فحسب لأننا اخترنا الذهاب إلى غرفتها والجلوس فيها.

قالت السيدة أربوثنوت:

- إنها أجمل غرفة على الإطلاق، كما أنها ليست غرفتها.

- أوه، لكن هناك الكثير من الأماكن الأخرى، وهي امرأة عجوز مسكينة. دعيها تحصل على الغرفة. ما الذي يهم في الأمر؟

ثم قالت السيدة ويلكنز إنها ستذهب إلى القرية لمعرفة مكان مكتب البريد وإرسال رسالتها إلى ميلرش، وسألت إذا كانت روز ستذهب أيضًا.

قالت السيدة ويلكنز بينما كانتا تسيران، إحداهما خلف الأخرى، عبر الطريق المتعرج الضيق الذي تسلَّقتاه تحت المطر في الليلة السابقة:

- كنت أفكر في ميلرش.

تقدمت هي في السير، وتبعتها السيدة أربوثنوت الآن، على نحو طبيعي. أما في إنجلترا فكان الأمر على العكس من ذلك: كانت لوتي خجولًا

ومترددة، إلا عندما تنفجر في الحديث على نحو أخرق للغاية، وتتبع روز الهادئة العاقلة كلما استطاعت ذلك.

كررت السيدة ويلكنز وهي تلتفت خلفها، حيث بدا أن روز لم تسمعها:

- كنت أفكر في ميلرش.

قالت روز:

- حقًّا؟

وبدا في صوتها نبرة نفور طفيف، لأن تجاربها مع ميلرش لم تكن من النوع الذي يجعلها تستمتع بتذكره. لقد خدعت ميلرش، لذلك لم تكن تحبه. لم تكن واعية بأن هذا هو سبب كراهيتها، واعتقدت أن السبب هو أنه لا تبدو عليه النعمة الإلهية بدرجة كبيرة، هذا إن كان يتمتع بها على الإطلاق. ومع ذلك، وبخت نفسها لاعتقادها أنه من الخطأ الشعور بذلك، ومن الوقاحة أيضًا. ولا شك أن زوج لوتي أقرب إلى الرب بكثير، أكثر مما ستكون هي في أي وقت من الأوقات. ومع ذلك، لم تحبه.

قالت السيدة ويلكنز:

- لقد تصرفتُ بدناءة ولؤم.

سألتها السيدة أربوثنوت، غير مصدقة لما سمعته:

- ماذا؟

- لقد رحلت وتركته في ذلك المكان الكئيب، بينما أمرح أنا في الجنة. لقد خطط لاصطحابي بنفسه إلى إيطاليا لقضاء عيد الفصح. هل أخبرتك بذلك؟

قالت السيدة أربوثنوت:

- لا.

وفي الواقع، لم تشجع الحديث عن الأزواج، وكلما بدأت لوتي التفوُّه بأشياء من دون تفكير، كانت تسرع بتغيير موضوع الحديث. شعرت بأن أحد الزوجين سيقود إلى الآخر، في المحادثة كما في الحياة، ولم تستطع

الحديث عن فريدريك، ولم ترغب في ذلك. وبعيدًا عن حقيقة وجوده فحسب، لم يرِد ذكره. كان لا بد من ذكر ميلرش، بسبب كونه يشكل عائقًا، لكنها حرصت على منع ذكره خارج حدود الضرورة.

قالت السيدة ويلكنز:

- حسنًا، لقد فعل. لم يفعل شيئًا كهذا في حياته من قبل، وقد شعرت بالرعب. تخيلي... في الوقت نفسه الذي خططت فيه للمجيء بنفسي.

توقفت على الطريق، ونظرت إلى روز.

قالت روز وهي تحاول التفكير في شيء آخر للحديث عنه:

- أجل.

- ها أنت ذي ترين الآن ما الذي أعنيه حينما أقول إنني تصرفت بدناءة ولؤم. لقد خطط هو لقضاء عطلة في إيطاليا معي، بينما خططت أنا لقضاء عطلة في إيطاليا بعد أن أتركه في المنزل.

تابعت قائلة، وعيناها مثبتتان على وجه روز:

- أعتقد أن ميلرش لديه كل الأسباب التي تجعله غاضبًا ومتألمًا.

اندهشت السيدة أربوثنوت، وأربكتها السرعة غير العادية التي تبدلت بها لوتي تحت عينيها، ساعة بعد ساعة، لتصبح أكثر نكرانًا للذات. تحوَّلت على نحو مدهش إلى ما يشبه القديسة. وها هي ذي الآن تتعاطف مع ميلرش، ميلرش الذي بدا في ذلك الصباح فحسب، بينما هما تدليان أقدامهما في البحر، كما لو أنه مجرد كائن قزحي الألوان، أو مجرد نسيج رقيق، كما أخبرتها لوتي. حدث ذلك في هذا الصباح فحسب، وبحلول وقت الغداء، تطور الأمر مع لوتي إلى درجة أن ميلرش اكتسب من الصلابة مرة أخرى ما يكفي للكتابة إليه، والكتابة بإسهاب. والآن، ها هي ذي بعد دقائق قليلة، تعلن أن لديه كل الأسباب التي تجعله غاضبًا منها ومتألمًا، وأنها هي نفسها - كانت اللغة غير عادية، لكنها عبرت عن الندم الحقيقي - تصرفت بدناءة ولؤم.

حدقت إليها روز بذهول. إذا استمرت على هذا النحو، فقد يتوقع المرء

ظهور هالة حول رأسها قريبًا. وقد بدا أن هناك واحدة بالفعل، إذا لم يكن المرء يعلم أن الشمس تسللت عبر جذوع الأشجار والتمعت فوق شعرها الذي بلون الرمل.

بدا أن لوتي تجتاحها رغبة عظيمة في الحب وتكوين الصداقات: أن تحب الجميع، وتصادق الجميع... رغبة في الخير المطلق. كانت تجربة روز الخاصة هي أن الخير، وحالة الصلاح هذه، لا يتم الوصول إليهما إلا من خلال المصاعب والألم، ويستغرق الأمر وقتًا طويلًا للوصول إليهما، وفي الواقع لم يكن المرء يصل إلى ذلك قَطُّ، أو إذا حدث أن وصل إلى لحظة خاطفة، فكان ذلك يدوم لتلك اللحظة الخاطفة فحسب. كانت هناك حاجة إلى المثابرة المستميتة للنضال عبر ذلك الطريق، الذي تفترشه الشكوك، إلا أن لوتي طارت عبره ببساطة. فكرت روز أنها لم تتخلص من اندفاعها بكل تأكيد، بل اتخذ ذلك الاندفاع اتجاهًا آخر فحسب. وها هي ذي الآن تصير قديسة على نحو متهور. هل يمكن حقًّا أن يصل المرء إلى الصلاح بهذه القوة؟ ألن يكون هناك رد فعل على نفس القدر من القوة؟

قالت روز بحذر، وهي تنظر إلى عينَي لوتي اللامعتين:

- لن... لن أبادر إلى الشعور بالثقة في ذلك بسرعة كبيرة.

كان الطريق شديد الانحدار، بحيث صارت لوتي أسفلها بكثير.

- لكنني متأكدة من هذا، وقد كتبت له وأخبرته بذلك.

حدقت إليها روز، وشرعت قائلة:

- لكن، هذا الصباح فحسب...

قاطعتها لوتي، وهي تنقر على الظرف وتبدو سعيدة:

- كل شيء مذكور هنا.

- ماذا... كل شيء؟

- هل تقصدين بشأن الإعلان وإنفاق مدخراتي؟ أوه، لا... ليس بعد. لكنني سأخبره بكل ذلك عندما يأتي.

كررت روز قائلة:

- عندما يأتي؟

- لقد دعوته ليأتي ويبقى معنا.

لم يسع روز إلا مواصلة التحديق.

- هذا أقل ما يمكنني فعله. علاوة على ذلك... انظري إلى هذا.

لوَّحت لوتي بيدها، وتابعت قائلة:

- من البغيض عدم مشاركته. كانت دناءة ولؤمًا مني أن أرحل وأتركه، لكنني لم أسمع عن أي دنيء يتصف بمثل ذلك القدر من اللؤم الذي سأكون عليه إذا لم أحاول إقناع ميلرش بالقدوم والاستمتاع بكل هذا أيضًا. إن أبسط قواعد اللياقة يقتضي أن ينال بعض المتعة من مدخراتي. ففي النهاية، لقد آواني وأطعمني لسنوات. ولا ينبغي للمرء أن يكون فظًّا.

- لكن... هل تعتقدين أنه سيأتي؟

قالت لوتي بإخلاص شديد:

- أوه، أتمنى ذلك.

ثم أضافت قائلة:

- ذلك الحمل المسكين.

عندها شعرت روز بأنها ترغب في الجلوس. ميلرش حمل مسكين؟ ميلرش نفسه الذي كان قبل ساعات قليلة مجرد وميض؟ كان هناك مقعد عند منعطف الممر، توجهت إليه روز وجلست. أرادت التقاط أنفاسها، وكسب الوقت. إذا توفر لديها الوقت، فقد تتمكن من اللحاق بلوتي التي تتواثب في خطواتها، وربما تستطيع منعها قبل أن تلزم نفسها بما قد تندم عليه عما قريب. ميلرش في سان سالفاتوري؟ ميلرش الذي بذلت لوتي جهدًا كبيرًا للهروب منه مؤخرًا؟

قالت لوتي كأنها ترد على أفكارها:

- أراه هنا.

نظرت إليها روز بقلق حقيقي: ففي كل مرة قالت فيها لوتي «أرى» بنبرة الاقتناع تلك، أصبح ما رأته حقيقة. إذن من المفترض أن يصير وجود السيد ويلكنز حقيقة عما قريب.

قالت روز بقلق:

- أتمنى لو كان في وسعي أن أفهمك.

ابتسمت لوتي قائلة:

- لا تحاولي ذلك.

- لكن لا بد لي من ذلك، لأنني أحبك.

قالت لوتي وهي تنحني بسرعة وتقبِّلها:

- عزيزتي روز.

قالت روز:

- أنت سريعة جدًّا. لا أستطيع ملاحقة تطوراتك، ولا يمكنني البقاء على تواصل. هذا هو ما حدث مع فريدر...

قطعت حديثها، وبدا عليها الخوف.

بدا أن لوتي لم تلاحظ، فتابعت الحديث مرة أخرى:

- كان الهدف من فكرة مجيئنا هنا برمتها هو الابتعاد، أليس كذلك؟ حسنًا، لقد ابتعدنا. والآن، بعد ذلك بيوم واحد فقط، تريدين الكتابة إلى نفس الأشخاص...

توقفت عن الحديث.

أكملت لوتي قائلة:

- نفس الأشخاص الذين أردنا الابتعاد عنهم. هذا صحيح تمامًا، ويبدو الأمر غير منطقي إلى حد الغباء. لكنني سعيدة للغاية، وبخير، وأشعر بأنني في أحسن حال إلى حدٍّ بعيد. هذا المكان... يشعرني بأنني أفيض بالحب.

حدقت إلى روز بنوع من الدهشة المشرقة.

صمتت روز للحظة، ثم قالت:

- وهل تعتقدين أنه سيكون له نفس التأثير في السيد ويلكنز؟

ضحكت لوتي، وقالت:

- لا أعرف، لكن حتى لو لم يكن الأمر كذلك، فهناك ما يكفي من الحب حولنا لإغراق خمسين من السيد ويلكنز، كما تسمينه. من العظيم أن يكون هناك الكثير من الحب من حولك.

تابعت قائلة:

- لا أرى، أو على الأقل لا أرى هنا، أن هناك أهمية لمن يقدم الحب، ما دام هناك من يقدمه، على الرغم من أنني كنت أرى في المنزل أن لذلك أهمية. كنت بخيلة ووضيعة في المنزل، واعتدت القياس والعد. وكان لديَّ هوس غريب بشأن العدالة. كما لو أن للعدالة أهمية، وكما لو أنه يمكن حقًّا تمييز العدالة عن الانتقام. الحب وحده هو ما يفيد. في المنزل، رفضت أن أحب ميلرش إلا إذا أحبني بنفس القدر تمامًا، وبإنصاف مطلق. هل تصدقين ذلك؟ وبما أنه لم يفعل، فلم أفعل أنا أيضًا، ويا لجفاف ذلك المنزل! ذلك الجفاف...

لم تقل روز شيئًا، حيث أذهلتها لوتي. كان أحد التأثيرات الغريبة لسان سالفاتوري في صديقتها التي تتطور بسرعة هو استخدامها للكلمات القوية بحرية وعلى نحو مفاجئ. لم تستخدم مثل تلك الكلمات في هامبستيد، حيث كانت «وضيعة» و«دنيئة» أكثر قوة مما تسمح به هامبستيد. تحررت لوتي من قيودها فيما يتعلق بالكلمات أيضًا.

لكنها تمنت الآن، أوه، كم تمنت روز، لو أن بمقدورها هي أيضًا الكتابة إلى زوجها لتقول له: «تعالَ». مهما كان ميلرش متغطرسًا ومغرورًا، وقد بدا لروز متغطرسًا، فإن ميلرش ولوتي كانا يتمتعان بعلاقة صحية وأكثر طبيعية منها هي وزوجها. كان في إمكان لوتي الكتابة إلى ميلرش، وستحصل على

رد. لكنها لم تكن تستطيع الكتابة إلى فريدريك، لأنها كانت تعلم جيدا أنه لن يجيب. أو على الأقل، قد يجيب برسالة خربشها على عجل، موضحًا مدى الضجر الذي استشعره وهو يفعل ذلك، مع شكر روتيني على رسالتها. لكن ذلك سيكون أسوأ من عدم الإجابة على الإطلاق، لأن خط يده واسمها على الظرف الذي أرسله سيبدوان بمنزلة طعنة موجهة إلى قلبها. ذكرها ذلك بشدة برسائل بداياتهما معًا: رسائله التي يغلب عليها الوحشة الشديدة بسبب البعد، ويملأها ألم الحب والشوق. إذا رأت ما يبدو كأنه رسالة من نفس هذه الرسائل تصل إليها، ثم فتحتها لتجد:

> عزيزتي روز، شكرًا لك على رسالتك. أنا سعيد لأنك تقضين وقتًا ممتعًا. لا تتعجلي في العودة، وأخبريني ما إذا كنت تريدين أي أموال. كل شيء يسير على نحو رائع هنا. المخلص لك،
> فريدريك

لا، لا يمكن تحمُّل ذلك.

نظرت إلى لوتي وقد عتمت عيناها فجأة، وقالت:

- لا أعتقد أنني سأنزل معك إلى القرية اليوم، أعتقد أنني أرغب في التفكير.

قالت لوتي:

- حسنًا.

وشرعت على الفور في النزول بخفة عبر الطريق، ونادت وراءها قائلة:

- لكن لا تطيلي التفكير، واكتبي إليه، ووجهي إليه الدعوة في الحال.

سألتها روز بدهشة:

- أدعو من؟

- زوجك.

١٢

عند وجبة المساء، وهي المرة الأولى التي جلست فيها الأربع حول طاولة غرفة الطعام معًا، ظهرت سكراب.

ظهرت في الموعد المحدد تمامًا، وهي تلبس رداءً أو ثوبًا منزليًّا، من تلك الثياب التي توصف أحيانًا بأنها ساحرة. وكان هذا الثوب ساحرًا حقًّا، ومن المؤكد أنه سحر السيدة ويلكنز، التي لم تستطع رفع عينيها عن تلك الهيئة الفاتنة الجالسة قبالتها. كان ثوبًا بلون وردي كالصدف، والتصق بجسد سكراب الرائعة كما لو أنه هو أيضًا يحبها.

صاحت السيدة ويلكنز بحماس:

- يا له من فستان جميل!

نظرت إليه سكراب، كما لو أنها تتفقد أي ثوب ترتديه، وقالت:

- ماذا؟ هذه الخرقة القديمة؟ إنه لديَّ منذ زمن طويل.

وصبَّت تركيزها على حسائها.

قالت السيدة فيشر باستياء:

- لا بد أنك تشعرين بالبرد الشديد فيه.

حيث كشف الثوب قدرًا كبيرًا من جسد سكراب: ذراعيها بالكامل، على سبيل المثال، وحتى الأماكن المغطاة، كان لا يزال من الممكن رؤيتها، لأن الثوب كان خفيفًا للغاية.

رفعت سكراب عينيها للحظة، وقالت:

- من... أنا؟ أوه، لا.

وواصلت تناول حسائها.

شعرت السيدة أربوثنوت بأنه يجب الحفاظ على مثل هذا الجمال بأي ثمن، كي لا يُصاب بأذى، فقالت:

- كما تعلمين، يجب ألا تصابي بالبرد، فهناك فرق كبير في درجات الحرارة هنا عندما تغرب الشمس.

قالت سكراب وهي تتناول حساءها بهمة:

- أشعر بالدفء الشديد.

قالت السيدة فيشر:

- يبدو كما لو أنك لا ترتدين تحته أي شيء على الإطلاق.

قالت سكراب وهي تنهي حساءها:

- لا أرتدي أي شيء بالفعل، أو على الأقل لا أرتدي أي شيء تقريبًا.

قالت السيدة فيشر:

- يا له من تهور، وكم هو تصرف غير لائق إلى حدٍّ بعيد.

حينها، حدقت إليها سكراب.

وصلت السيدة فيشر إلى العشاء وهي تشعر بالود تجاه الليدي كارولين. فعلى الأقل، لم تقتحم غرفتها وتجلس إلى طاولتها وتكتب بقلمها. وافترضت السيدة فيشر أنها تعرف كيفية التصرف على نحو لائق. لكن بدا الآن أنها لا تعرف ذلك، فهل كان سلوكًا لائقًا منها أن تأتي لتناول الطعام مرتدية - لا، بل غير مرتدية - ملابسها على هذا النحو؟ لم يكن مثل هذا السلوك غير لائق للغاية فحسب، بل كان طيشًا بالغًا أيضًا، لأن تلك المخلوقة الحساسة ستصاب بالبرد بكل تأكيد، ثم تصيب المجموعة بأكملها بالعدوى. كانت السيدة فيشر تعارض بشدة إصابة الآخرين بالبرد، حيث كان ذلك دائمًا نتيجة للحماقة، وبعد ذلك تُصاب هي بالعدوى، مع أنها لم تفعل شيئًا قَطُّ لتستحق ذلك.

تأملت السيدة فيشر الليدي كارولين بصرامة، وفكرت: «حمقاء، ولا يشغل بالها شيء سوى الغرور».

قالت السيدة ويلكنز:

- لكن لا يوجد رجال هنا، فكيف يمكن أن يكون هذا أمرًا غير لائق؟

ثم سألت السيدة فيشر، التي حاولت التظاهر بأنها لم تسمع:

- هل لاحظتِ مدى صعوبة التصرف على نحو غير لائق في غياب الرجال؟

لم ترد عليها السيدة فيشر ولم تنظر إليها، لكن سكراب نظرت إليها، ورسمت على شفتيها ما كان سيُعتبر على أي فم آخر ابتسامة خفيفة، لكن بالنسبة إلى من رآها عبر وعاء زهور «أبو خنجر»، بدت كأجمل ابتسامة قصيرة مصحوبة بالغمازات.

راقبت سكراب السيدة ويلكنز وقد بدأ ينمو داخلها شعور بالاهتمام، وفكرت أنها تمتلك وجهًا مفعمًا بالحيوية. بدا أشبه بحقل من الذرة، تجتاحه الأضواء والظلال. لاحظت سكراب أنها هي وتلك الأخرى ذات الشعر الداكن بدَّلتا ملابسهما، لكن كي ترتديا بلوزتين حريريتين فحسب، وفكرت أن نفس القدر من الجهد كان سيكفي لأن ترتديا ملابس لائقة كما يجب. وبطبيعة الحال، بدا مظهرهما غريبًا بهاتين البلوزتين. ولم يكن يهم ما ترتديه السيدة فيشر، وفي الواقع، كان الشيء الوحيد المناسب لها، بخلاف الريش وفرو القاقم، هو ما ترتديه بالفعل. لكن هاتين الأخريين كانتا لا تزالان صغيرتين جدًّا في السن، وجذابتين للغاية. من المؤكد أنهما كانتا حقًّا تمتلكان وجهين جميلين. كم ستختلف الحياة بالنسبة إليهما، إذا اعتنتا بمظهريهما إلى أقصى حد، بدلًا من أقل حد. ومع ذلك، شعرت سكراب بالملل فجأة، وصرفت أفكارها جانبًا، وتناولت الخبز المحمص بشرود. ماذا يهم في الأمر؟ فإذا اعتنيت بمظهرك إلى أقصى حد، فستحيط نفسك فقط بالأشخاص الذين ينتهي بهم المطاف وهم يرغبون في التشبث بك.

شرعت السيدة ويلكنز تقول، وعيناها تلتمعان:

- لقد أمضيت يومًا رائعًا.

خفضت سكراب عينيها، وفكرت: «أوه، سوف تثرثر بالحديث».

خفضت السيدة فيشر عينيها أيضًا، وفكرت: «كما لو أن هناك من يهتم بيومها».

وفي الواقع، كلما تحدثت السيدة ويلكنز، تعمدت السيدة فيشر خفض عينيها. هكذا ستظهر استياءها. علاوة على ذلك، بدا هذا الشيء الوحيد الآمن الذي يمكنها فعله بعينيها، حيث لم يكن أحد يستطيع التنبؤ بما ستتفوّه به تلك المخلوقة الجامحة لاحقًا. مثل ما قالته للتو، على سبيل المثال، بخصوص الرجال - وكان الحديث موجهًا إليها أيضًا - ما الذي يمكن أن تعنيه بذلك؟ فكرت السيدة فيشر أنه من الأفضل عدم التخمين، وعلى الرغم من أنها خفضت عينيها، فإنها رأت الليدي كارولين تمد يدها إلى قنينة النبيذ، وتملأ كأسها مرة أخرى.

مرة أخرى. سبق أن فعلت ذلك مرة بالفعل، وقد رُفعت أطباق السمك من الغرفة للتو فحسب. رأت السيدة فيشر أن العضوة المحترمة الأخرى من بين المجموعة، السيدة أربوثنوت، لاحظت الأمر هي أيضًا. كانت تأمل وتعتقد أن السيدة أربوثنوت محترمة وحسنة النية. صحيح أنها بالمثل اقتحمت غرفة جلوسها، لكن لا شك أن تلك الأخرى هي التي جرتها إلى هناك، ولم تكن السيدة فيشر تحمل في نفسها أي شيء ضد السيدة أربوثنوت، ولاحظت باستحسان أنها اكتفت بشرب الماء فقط. هكذا يجب أن يكون الأمر. وفي الواقع، كي توفيها حقها، هكذا فعلت الأخرى ذات النمش أيضًا. كان ذلك هو الصواب في سنهما هذه. كانت هي نفسها تتناول النبيذ، لكن باعتدال: كأس واحدة في الوجبة الواحدة. وكانت في الخامسة والستين من عمرها، وقد يكون من اللائق، بل ومن المفيد لها، أن تتناول كأسين على الأقل.

قاطعت ما كانت تحكيه لهن السيدة ويلكنز عن يومها الرائع، وأشارت إلى كأس النبيذ قائلة لليدي كارولين:

- هذا مضر جدًّا لك.

مع ذلك، لم يكن من الممكن أن تكون الليدي كارولين قد سمعتها، لأنها واصلت احتساء النبيذ ومرفقها مستند فوق الطاولة، بينما هي تستمع إلى ما تقوله السيدة ويلكنز.

وما الذي كانت تقوله؟ لقد دعت شخصًا ما ليأتي ويبقى؟ رجلًا؟

لم تستطع السيدة فيشر أن تُصدق أذنيها. ومع ذلك، فمن الواضح أنه كان رجلًا، لأنها تحدثت عن الشخص بصيغة المذكر.

وفجأة ولأول مرة - لكن هذا لأن الأمر فائق الأهمية - خاطبت السيدة فيشر السيدة ويلكنز مباشرة. كانت في الخامسة والستين من عمرها، ولم تكن تهتم كثيرًا بنوع النساء اللاتي تصادف وجودها معهن لمدة شهر، لكن إذا اختلطت النساء بالرجال فسيصبح الأمر مختلفًا تمامًا. لن تسمح باستغلالها، فلم تأتِ إلى هنا لتضفي بوجودها شرعية على ما كان يُطلق عليه في أيامها «سلوك منحل». لم يُذكر أي شيء عن الرجال في المقابلة التي أُجريت في لندن، ولو حدث، لكانت رفضت الحضور بالطبع.

تدخلت السيدة فيشر في الحديث فجأة، وسألتها:

- ما اسمه؟

التفتت إليها السيدة ويلكنز بدهشة طفيفة، وقالت:

- ويلكنز.

- ويلكنز؟

- نعم.

- اسمك؟

- واسمه أيضًا.

- هل هو من أقاربك؟

- لا توجد بيننا صلة دم.

- ما علاقته بك؟

- زوج.

خفضت السيدة فيشر عينيها مرة أخرى، ولم تستطع التحدث مع السيدة ويلكنز. كان هناك شيء ما بخصوص الأشياء التي تتفوَّه بها... «زوج»، مما يوحي بأنه واحد من بين عدة أزواج. دائمًا ما تلوي كل شيء على ذلك النحو غير اللائق. لماذا لا تستطيع أن تقول «زوجي»؟ علاوة على ذلك، فقد ظنت السيدة فيشر، من دون أن تعرف هي نفسها سببًا لذلك، أن كلتا الشابتين الآتيتين من هامبستيد أرملتان. أرملتا حرب. لم يرِد ذكر أي أزواج خلال المقابلة، واعتبرت أن هذا لن يكون طبيعيًّا إذا كان لهؤلاء الأشخاص وجود في نهاية المطاف. وإذا لم يكن الزوج من الأقارب، فمن يكون؟ «لا توجد بيننا صلة دم». يا لها من طريقة للحديث. إن الزوج في مقدمة جميع الأقارب. كانت تذكر جيدًا أن راسكن... لا، لم يكن راسكن، بل الكتاب المقدس هو الذي قال إن على الرجل أن يترك أباه وأمه ويرتبط بزوجته فقط، مما يظهر أنها صارت أقوى حتى من علاقة الدم عن طريق الزواج. وإذا كان والد الزوج ووالدته سيصبحان لا شيء بالنسبة إليه مقارنة بزوجته، فمن الواجب أن يصبح والد الزوجة ووالدتها أقل بكثير من لا شيء، مقارنة بزوجها. لم تتمكن هي نفسها من ترك والدها ووالدتها من أجل الارتباط بالسيد فيشر، لأنهما لم يعودا على قيد الحياة عندما تزوجت، لكنها كانت ستتركهما بالتأكيد، لو كانا موجودين. لا توجد بيننا صلة دم، حقًّا! يا له من كلام سخيف.

كان العشاء جيدًا للغاية، وتتالت الأطباق الشهية، واحدًا تلو واحد. قررت كوستانزا أن تتصرف كما يحلو لها فيما يتعلق بالكريمة والبيض في الأسبوع الأول، ثم ترى ما يحدث عند نهاية الأسبوع عندما يحين دفع الفواتير. كانت تجربتها مع الإنجليز أنهم شديدو الصمت فيما يتعلق بالفواتير: كانوا قليلي

الحديث، ويصدقون ما يُقال لهم بسهولة. إلى جانب ذلك، من كانت السيدة هنا؟ في غياب أي سيدة محددة، خطر لكوستانزا أنها يمكن أن تتولى دور السيدة بنفسها، لذا فعلت ما يحلو لها بخصوص العشاء، وكان جيدًا للغاية.

ومع ذلك، انشغلت الأربع بشدة بمحادثتهن الخاصة، إلى درجة أنهن تناولنه من دون أن يلاحظن مدى جودته. وحتى السيدة فيشر، التي كانت طباعها أشبه بالرجال في مثل هذه الأمور، لم تلاحظ ذلك. بدا كل ذلك الطهي الممتاز بالنسبة إليها كأنه لم يكن، مما يدل على مدى انفعالها.

كانت منفعلة، وكانت تلك المدعوة السيدة ويلكنز هي السبب. كانت كفيلة بإثارة انفعال أي شخص. وقد شجعتها الليدي كارولين على ذلك بلا شك، والتي تأثرت بدورها بالنبيذ، من دون ريب.

كانت السيدة فيشر سعيدة جدًّا بعدم وجود رجال، لأنهم بالتأكيد سيتصرفون بحماقة بشأن الليدي كارولين. أدركت السيدة فيشر أنها كانت بالتحديد من ذلك النوع من الشابات اللاتي يُفقدن الرجال توازنهم، ولا سيما في تلك اللحظة. ربما كان النبيذ هو الذي عزز من شخصيتها للحظات، لكنها بدت شديدة الجاذبية بلا شك، ولم يكن هناك الكثير مما تكرهه السيدة فيشر أكثر من الاضطرار إلى مشاهدة الرجال الأذكياء والعقلاء، الذين كانوا يتحدثون في اللحظة السابقة، بجدية وعلى نحو مثير للاهتمام، عن أمور حقيقية، وقد أصبحوا مجرد حمقى يبتسمون ابتسامات متكلفة - لقد رأتهم يبتسمون بتكلف بالفعل - لمجرد أن امرأة جميلة حمقاء دخلت الغرفة. وحتى السيد جلادستون، رجل الدولة الحكيم العظيم، الذي استقرت يده ذات مرة على رأسها للحظة لا تُنسى، شعرت بأنه إذا رأى الليدي كارولين، فسيتوقف عن الحديث المنطقي ويشرع في الهزل على نحو مريع.

قالت السيدة ويلكنز:

- كما ترين...

وهي حيلة سخيفة تبدأ بها معظم جملها، وفي كل مرة كانت السيدة فيشر

تريد أن تقول: «عفوًا، أنا لا أرى، بل أسمع»، لكن لماذا تجشم نفسها العناء؟ مالت السيدة ويلكنز عبر الطاولة نحو الليدي كارولين، وتابعت قائلة:

- كما ترين، لقد اتفقنا في لندن على أنه إذا أرادت أيٌّ منا ذلك، فيمكنها أن تدعو ضيفًا واحدًا، أليس كذلك؟ لذا فأنا أفعل ذلك الآن.

قالت السيدة فيشر وعيناها على طبقها:

- لا أتذكر ذلك.

- أوه، نعم، لقد فعلنا، أليس كذلك يا روز؟

قالت الليدي كارولين:

- بلى، أتذكر. لكن بدا شيئًا لا يُصدق، أن يرغب المرء في ذلك، حيث كانت الفكرة برمتها هي أن يبتعد المرء عن أصدقائه.

- وعن أزواجه.

ها هي ذي مرة أخرى، صيغة الجمع غير اللائقة تلك. فكرت السيدة فيشر أن الأمر بدا غير لائق على الإطلاق. يا لها من تلميحات. ومن الواضح أن السيدة أربوثنوت ظنت ذلك أيضًا، حيث تخضب وجهها.

قالت الليدي كارولين:

- وعن المشاعر الأسرية.

هل كان النبيذ هو الذي يتحدث؟ بالتأكيد كان النبيذ.

قالت السيدة ويلكنز:

- وعن الحاجة إلى المشاعر الأسرية.

يا له من ضوء، ذلك الذي ألقته على حياتها الأسرية وشخصيتها الحقيقية.

قالت الليدي كارولين:

- لن يكون ذلك أمرًا سيئًا للغاية. يمكنني البقاء في وجود ذلك، فمن شأنه أن يمنح المرء مساحة.

صاحت السيدة ويلكنز:

- أوه لا، لا... إنه أمر مروع. يبدو الأمر كما لو أن المرء عارٍ من الملابس.

قالت الليدي كارولين:

- لكنني أحب ذلك.

قالت السيدة فيشر:

- حقًّا...

وجَّهت الليدي كارولين حديثها بالكامل إلى السيدة ويلكنز، متجاهلة الاثنتين الأخريين، وقالت:

- إنه شعور رائع أن يتخلص المرء من الأشياء.

- أوه، لكن أن يكون المرء عاريًا في مواجهة الرياح المريرة، وأن يعرف أنه لن يرتدي شيئًا أبدًا، وأنه سيزداد برودة أكثر فأكثر، حتى يموت بسبب ذلك في النهاية، هكذا يبدو الأمر، عندما يعيش المرء مع شخص لا يحبه.

فكرت السيدة فيشر: «هذه الأسرار...»، ولم يكن هناك أي عذر قَطُّ للسيدة ويلكنز، التي أفصحت عنها من دون أن تتناول شيئًا سوى الماء الصافي. ووفقًا لملامح وجهها، بدا أن السيدة أربوثنوت تشارك السيدة فيشر استياءها تمامًا، حيث أخذت تتململ.

سألت الليدي كارولين، بكل وقاحة وعدم تحفظ، مثل السيدة ويلكنز:

- لكن ألم يفعل؟

- ميلرش؟ لم يُظهر أي دليل على ذلك.

تمتمت الليدي كارولين:

- رائع.

قالت السيدة فيشر:

- حقًّا...

- لم أعتقد أن ذلك كان رائعًا قَطُّ. كنت بائسة، والآن، منذ وصولي إلى هنا، أحدق إلى نفسي ببساطة وأنا بائسة. بائسة إلى ذلك الحد، وبسبب ميلرش.

- تقصدين أنه لم يكن يستحق ذلك؟

قالت السيدة فيشر:

- حقًّا...

- لا، لا أقصد ذلك، بل أعني أنني تحسنت فجأة.

أدارت الليدي كارولين ساق كأسها ببطء بين أصابعها، وتفحصت الوجه المشرق الجالس قبالتها.

- والآن بعد أن صرت بخير، وجدت أنني لا أستطيع الجلوس هنا والشماتة بمفردي. لا أستطيع أن أنعم بالسعادة بينما أبقيه بعيدًا، بل يجب أن أشاركه. أفهم تمامًا ماهية شعور الفتاة المباركة.

سألتها سكراب:

- ماذا تكون الفتاة المباركة؟

قالت السيدة فيشر:

- حقًّا...

ونطقتها بشدة هذه المرة، إلى درجة أن الليدي كارولين التفتت إليها.

سألت:

- هل يجب أن أعرف؟ لا أعرف شيئًا عن التاريخ الطبيعي. يبدو كأنه طائر.

قالت السيدة فيشر بنبرة باردة على نحو غير عادي:

- إنها قصيدة.

قالت سكراب:

- أوه.

قالت السيدة ويلكنز التي تغضن وجهها بالضحك:

- سأعيرك إياها.

قالت سكراب:

- لا.

قالت السيدة فيشر ببرود:

- كما أن مؤلفها كثيرًا ما جلس إلى مائدة والدي، على الرغم من أن طبيعته ربما كانت تخالف ما يتمناه المرء نوعًا ما.

قالت سكراب:

- يا له من أمر ممل، بالنسبة إليكِ. هذا هو ما تفعله والدتي على الدوام: تدعو المؤلفين. لن أمانع وجودهم إلى هذا الحد، لو أنهم لم يؤلفوا الكتب.

ثم التفتت إلى السيدة ويلكنز قائلة:

- تابعي حديثك عن ميلرش.

قالت السيدة فيشر:

- حقًّا...

قالت السيدة ويلكنز:

- كل تلك الأسِرَّة الخالية.

سألت سكراب:

- أي أسِرَّة خالية؟

- تلك الموجودة في هذا المنزل. بالطبع يجب أن يضم كلٌّ منها شخصًا سعيدًا. ثمانية أسِرَّة، وأربعة أشخاص فقط. إنه أمر مروع، من المروع أن يكون المرء جشعًا للغاية، ويحتفظ بكل شيء لنفسه فقط. وأريد أن تطلب روز من زوجها الحضور أيضًا. أنتِ والسيدة فيشر ليس لديكما زوجان، لكن لماذا لا تمنحان أحد أصدقائكما وقتًا رائعًا؟

عضت روز شفتها، وتخضب وجهها، ثم شحبت. فكرت، لو أن لوتي لزمت الصمت فحسب. من الجيد للغاية أن تصير قديسة فجأة، وترغب في حب الجميع، ولكن هل يجب عليها أن تفتقر إلى اللباقة إلى هذا الحد؟ شعرت روز بأن كل بقعة مسكينة تتألم بداخلها تتعرض للوطء بالأقدام. لو أن لوتي التزمت الصمت فحسب...

قالت السيدة فيشر، ببرود أكبر من ذلك الذي استقبلت به جهل الليدي كارولين بالفتاة المباركة:

- لا توجد سوى غرفة نوم واحدة فقط غير مأهولة في هذا المنزل.

رددت السيدة ويلكنز مندهشة:

- واحدة فقط؟ إذن من يقيم في باقي الغرف الأخرى؟

قالت السيدة فيشر:

- نحن.

- لكننا لا نقيم في كل غرف النوم. لا بد أن هناك ستًّا على الأقل، وهذا يترك غرفتين خاليتين، وقد أخبرنا المالك بأن هناك ثمانية أسِرَّة، أليس كذلك يا روز؟

قالت السيدة فيشر:

- هناك ست غرف نوم.

حيث فتشت هي والليدي كارولين المنزل بدقة عند وصولهما، لمعرفة أي جزء منه ستنعمان فيه بقدر أكبر من الراحة، وكانتا تعلمان أن هناك ست غرف نوم: اثنتان منها صغيرتان جدًّا، وفي واحدة من هذه الغرف الصغيرة، كانت فرانشيسكا تنام برفقة كرسي وخزانة ذات أدراج، بينما كانت الأخرى المفروشة بنفس الطريقة خالية.

لم تتفحص السيدة ويلكنز والسيدة أربوثنوت المنزل تقريبًا، بعد أن أمضتا معظم وقتهما في الخارج وهما تحدقان إلى المناظر الطبيعية، وفي غفلة ذهنيهما المضطربين عندما بدأتا التفاوض لأول مرة بخصوص سان سالفاتوري، خطر لهما أن الأسِرَّة الثمانية التي تحدث عنها المالك تعني وجود ثماني غرف نوم، لكن ذلك لم يكن صحيحًا. كانت هناك ثمانية أسِرَّة بالفعل، لكن أربعة منها كانت في غرفتَي السيدة ويلكنز والسيدة أربوثنوت.

كررت السيدة فيشر:

- هناك ست غرف نوم. لدينا أربع، وفرانشيسكا لديها الخامسة، والسادسة خالية.

قالت سكراب:

- لذا، مهما شعرنا بأننا سنكون كريمات إذا استطعنا، فإننا لا نستطيع ذلك. أليس هذا من حسن الحظ؟

قالت السيدة ويلكنز وهي تنظر إلى الوجوه الثلاثة حولها:

- إذن هناك مكان لشخص واحد فقط؟

قالت سكراب:

- نعم، وقد حصلت أنتِ عليه.

فوجئت السيدة ويلكنز. كانت مسألة الأسِرَّة هذه غير متوقعة. عندما دعت ميلرش، كانت تنوي إنزاله في إحدى الغرف الأربع الاحتياطية التي تخيلت وجودها هناك. ففي وجود كثير من الغرف وعدد كافٍ من الخدم، لم يكن هناك سبب يدفعهما إلى مشاركة الغرفة نفسها، مثلما كانا يفعلان في منزلهما الصغير الذي يضم خادمتين. إن الحب، حتى ذلك الحب العام، ذلك النوع من الحب الذي شعرت بأنه يغمرها، لا ينبغي أن يخضع للاختبار. كانت هناك حاجة إلى الكثير من الصبر وإنكار الذات من أجل مشاركة فراش الزوجية بنجاح. كما كانت هناك حاجة أيضًا إلى الهدوء والإيمان الراسخ. كانت على يقين من أنها ستحب ميلرش بدرجة أكثر بكثير، كما أنه لن يمانع وجودها إلى هذا الحد تقريبًا، إذا لم يصيرا حبيسين معًا خلال الليل، وإذا تمكنا في الصباح من الالتقاء بالمودة المبهجة التي يتسم بها الصديقان اللذان لا يوجد بينهما أي ظل للخلافات حول النافذة أو ترتيبات الاغتسال، أو مشاعر الاستياء البسيطة السخيفة المكتومة بسبب شيء بدا لأحدهما غير عادل. شعرت بأن سعادتها وقدرتها على أن تصير صديقة للجميع، كانتا نتيجة لحريتها الجديدة المفاجئة وسلامها. هل سيبقى هذا الشعور بالحرية، وذلك السلام، بعد قضاء ليلة مع ميلرش؟ هل ستتمكن

في الصباح من أن تظل ممتلئة تجاهه، كما كانت ممتلئة في تلك اللحظة، بلا شيء على الإطلاق سوى اللطف والمحبة؟ ففي النهاية، لم تقضِ وقتًا طويلًا في الجنة. ماذا لو أنها لم تمضِ هناك ما يكفي من الوقت لتظل ثابتة على لطفها؟ ويا لها من فرحة غير عادية، تلك التي أحست بها في ذلك الصباح فحسب، عندما استيقظت لتجد نفسها بمفردها، وبوسعها سحب أغطية الفراش على أي نحو تشاء!

اضطرت فرانشيسكا إلى وكزها، حيث استغرقت في أفكارها بشدة إلى درجة أنها لم تلحظ الحلوى.

تناولت السيدة ويلكنز الحلوى بشرود، وفكرت: «إذا شاركت غرفتي مع ميلرش، فسوف أخاطر بفقدان كل ما أشعر به تجاهه الآن. ومن جهة أخرى، إذا أنزلته في الغرفة الإضافية الوحيدة، فسأمنع السيدة فيشر والليدي كارولين من تقديم هدية إلى شخصٍ ما. صحيح أنه لا يبدو أنهما ترغبان في ذلك في الوقت الحالي، لكن في أي لحظة في هذا المكان قد تنتاب إحداهما أو الأخرى الرغبة في إسعاد شخصٍ ما، ومن ثَمَّ لن تتمكنا من ذلك بسبب ميلرش».

عقدت حاجبيها، وقالت بصوت مرتفع:

- يا لها من مشكلة.

قالت سكراب:

- ما المشكلة؟

- أين يقيم ميلرش.

حدقت إليها سكراب، وسألتها:

- لماذا، ألا تكفيه غرفة واحدة؟

- أوه، بلى، تمامًا. لكن بعد ذلك لن يتبقى أي مكان على الإطلاق... أي مكان لشخص قد ترغبين في دعوته.

قالت سكراب:

- لن أرغب في ذلك.
قالت السيدة ويلكنز للسيدة فيشر:
- أو أنتِ. روز، بالطبع، لا تحتسب. أنا متأكدة أنها ترغب في مشاركة غرفتها مع زوجها، فهذا واضح عليها تمامًا.
قالت السيدة فيشر:
- حقًّا...
التفتت إليها السيدة ويلكنز بأمل، وسألتها:
- حقًّا ماذا؟
حيث اعتقدت أن الكلمة هذه المرة تمهيد لاقتراح مفيد.
لكنها لم تكن كذلك، بل وقفت منفردة. لذا كانت كالسابق، مجرد برود.
لكن عندما واجهها التحدي، ربطتها السيدة فيشر بجملة، وسألت:
- حقًّا، هل أفهم من ذلك أنك تقترحين حجز الغرفة الإضافية الوحيدة لاستخدام عائلتك الحصري؟
قالت السيدة ويلكنز:
- إنه ليس من عائلتي، إنه زوجي. وكما ترين...
لم تستطع السيدة فيشر الامتناع عن المقاطعة هذه المرة... فيا لها من حيلة لا تطاق.
- لا أرى شيئًا، بل أسمع، على أقصى تقدير، وذلك على مضض.
لكن السيدة ويلكنز لم تتأثر بالتوبيخ، كما خشيت السيدة فيشر، وكررت صيغة الحديث المملة تلك على الفور، وانطلقت في خطاب طويل يفتقر إلى التهذيب على نحو مفرط، بخصوص أفضل مكان للنوم لذلك الشخص الذي أطلقت عليه اسم «ميلرش».
كان ميلرش، على ما يبدو، زوج السيدة ويلكنز - تذكرت السيدة فيشر الأشخاص الذين حملوا أسماء توماس وجونز وألفريد وروبرت في عصرها، وهي أسماء عادية، ومع ذلك صار أصحابها من العظماء، وفكرت أنه محض

تكلف أن يُسمَّى أحدهم «ميلرش» - لذا كان مكان إقامته محددًا بوضوح. فلماذا هذا الحديث؟ كما لو كانت تتوقع وصوله، وضعت هي نفسها فراشا ثانيًا في غرفة السيدة ويلكنز. كانت هناك أشياء معينة في الحياة لا يتم الحديث عنها مطلقًا، بل تُنفذ فحسب. لا تخضع معظم الأمور المتعلقة بالأزواج للنقاش، وكان انشغال طاولة العشاء بأكملها بالنقاش بخصوص المكان الذي يجب أن ينام فيه أحدهم إهانة للآداب، حيث إن كيفية ومكان نوم الأزواج لا يجب أن يكونا معروفين إلا لزوجاتهم. وفي بعض الأحيان، لم يكن الأمر معروفًا لهن، وحينها كانت الزيجة تمر بلحظات أقل سعادة، لكن لا يتم الحديث عن هذه اللحظات أيضًا، ويستمر الحفاظ على الآداب. على الأقل، كان الأمر كذلك في أيامها. كان الاضطرار إلى معرفة ما إذا كان ينبغي للسيد ويلكنز النوم مع السيدة ويلكنز أم لا، والأسباب التي تمنعه من ذلك، أمرًا غير مثير للاهتمام ويفتقر إلى التهذيب.

ربما تمكنت من النجاح في فرض اللياقة وتغيير موضوع الحديث، لو لا الليدي كارولين، حيث شجعت الليدي كارولين السيدة ويلكنز، وانخرطت في النقاش من دون تحفظ مثل السيدة ويلكنز نفسها. لا شك أن النبيذ هو الذي دفعها إلى ذلك في هذه المناسبة، ولكن مهما كان السبب، فهذا هو ما حدث. وكما هو متوقع منها، كانت الليدي كارولين مؤيدة تمامًا لمنح السيد ويلكنز الغرفة الإضافية المنفردة، وأخذت ذلك كأمر مسلَّم به. قالت إن أي ترتيب آخر سيكون مستحيلًا، وكان التعبير الذي استخدمته هو «وحشي». شعرت السيدة فيشر بالرغبة في السؤال: ألم تقرأ الكتاب المقدس من قبل «ويكون الاثنان جسدًا واحدًا»؟ هذا من الواضح، إذن هي غرفة واحدة. لكن السيدة فيشر لم تسأل، ولم ترغب حتى في الإشارة إلى مثل هذه النصوص لشخص غير متزوج.

ومع ذلك، كانت هناك طريقة واحدة يمكنها من خلالها إجبار السيد ويلكنز على الإقامة في مكانه المناسب وإنقاذ الموقف: يمكنها أن تقول

إنها هي نفسها تنوي دعوة صديق. كان هذا حقها، وقالت جميعهن ذلك. وبصرف النظر عن اللياقة، فقد كان أمرًا فظيعًا أن ترغب السيدة ويلكنز في احتكار الغرفة الاحتياطية الوحيدة، بينما يوجد في غرفتها الخاصة كل ما هو ضروري لزوجها. وربما توجِّه الدعوة إلى شخص ما بالفعل... لن توجِّه الدعوة، بل تقترح المجيء. كانت هناك كيت لوملي، على سبيل المثال. كانت كيت تستطيع تمامًا المجيء ودفع حصتها، كما أنها تنتمي إلى عصرها، وتعرف، وعرفت معظم الأشخاص الذين تعرفهم هي، وكانت تعرفهم. كانت كيت تلزم الهامش فقط، بالطبع، واعتادت أن تُدعى إلى الحفلات الكبيرة فحسب، وليس إلى الحفلات الصغيرة، وظلت تلزم الهامش فقط حينها. هناك بعض الأشخاص الذين لا يبتعدون أبدًا عن الهامش، وكانت كيت واحدة منهم. ومع ذلك، في كثير من الأحيان، كان الوجود مع أولئك الناس ألطف على الدوام من الوجود مع الآخرين، حيث إنهم يظلون ممتنين.

نعم، قد تفكر حقًّا في كيت. لم تتزوج تلك المسكينة قَطُّ، لكن لا يمكن أن يتوقع الجميع الزواج، وكانت ميسورة الحال إلى حدٍّ بعيد... ليست ميسورة الحال بدرجة كبيرة، لكن ميسورة بما يكفي كي تدفع نفقاتها الخاصة إذا جاءت، وتظل ممتنة مع ذلك. نعم، كانت كيت هي الحل. رأت السيدة فيشر أنه بقدومها، ستتم تسوية وضع الزوجين ويلكنز، وستمنع السيدة ويلكنز من الحصول على أكثر من نصيبها من الغرف، بضربة واحدة. كما أن السيدة فيشر ستنقذ نفسها من العزلة: العزلة الروحية. كانت ترغب في العزلة الجسدية بين الوجبات، لكنها كانت تكره تلك العزلة الروحية. خشيت أنها ستعاني تلك العزلة بالتأكيد، مع هؤلاء الشابات الثلاث. وحتى السيدة أربوثنوت، بسبب صداقتها مع السيدة ويلكنز، كانت بالضرورة غريبة عنها في التفكير. ستمثل كيت دعمًا لها، ومن دون أن تتطفل على غرفة جلوسها، نظرًا إلى أنها سهلة الانقياد، ستكون كيت موجودة في أوقات الوجبات كي تدعمها.

لم تقل السيدة فيشر شيئًا في تلك اللحظة، لكن بعد قليل، عندما تجمعن

حول مدفأة الحطب في غرفة الاستقبال - اكتشفت عدم وجود مدفأة في غرفة الجلوس الخاصة بها، ولذلك ما دامت الأمسيات باردة، فستضطر إلى قضائها في الغرفة الأخرى - وبينما كانت فرانشيسكا تقدم القهوة، والليدي كارولين تسمم الهواء بالدخان، قالت السيدة ويلكنز وقد بدا عليها الارتياح والسعادة:

- حسنًا، إذا لم يكن أحد يريد تلك الغرفة حقًّا، ولن يستخدمها أحد بأي حال من الأحوال، فسأكون سعيدة جدًّا إذا حصل عليها ميلرش.

قالت الليدي كارولين:

- بالطبع لا بد أن يحصل عليها.

عندئذٍ تحدثت السيدة فيشر.

قالت بصوتها العميق:

- لديَّ صديقة.

وحل الصمت المفاجئ على الأخريات.

قالت السيدة فيشر:

- كيت لوملي.

لم يتكلم أحد.

تابعت السيدة فيشر، مخاطبة الليدي كارولين:

- ربما تعرفينها؟

لا، لم تكن الليدي كارولين تعرف كيت لوملي، وتابعت السيدة فيشر حديثها من دون أن تسأل الأخريين عما إذا كانتا تعرفانها، لأنها كانت متأكدة أنهما لا تعرفان أحدًا. قالت السيدة فيشر:

- أود دعوتها إلى الانضمام إليَّ.

ساد الصمت التام.

ثم التفتت سكراب إلى السيدة ويلكنز قائلة:

- هذا يسوي مسألة ميلرش، إذن.

قالت السيدة فيشر:

- إنه يسوي مسألة السيد ويلكنز، على الرغم من أنني عاجزة عن فهم سبب وجود مسألة من الأساس، فيما يتعلق بالحل الوحيد الصائب.

قالت الليدي كارولين للسيدة ويلكنز مرة أخرى:

- أخشى أنك ستتحملين الأمر إذن.

ثم أضافت قائلة:

- إلا إذا كان لا يستطيع الحضور.

لكن السيدة ويلكنز، التي بدا على جبينها الاضطراب - فماذا لو أنها لم تستقر تمامًا في الجنة بعد؟ - لم يسعها إلا أن تقول بشيء من القلق:

- أراه هنا.

١٣

مرت أيام هادئة – هادئة ظاهريًّا فقط – تحت فيض أشعة الشمس، وتوصل الخدم، وهم يراقبون السيدات الأربع، إلى استنتاج مفاده أنهن لا يتمتعن إلا بقدر ضئيل للغاية من الحيوية.

بدت سان سالفاتوري غارقة في النوم بالنسبة إلى الخدم. لم يأتِ أحد لتناول الشاي، ولم تذهب السيدات إلى أي مكان لتناول الشاي. كان المستأجرون الآخرون في فصول الربيع الأخرى أكثر نشاطًا بكثير. وكانت هناك ضجة ونشاط، حيث استُخدم القارب، وأُجريت رحلات، وطُلبت عربة بيبو، وجاء الناس من ميتزاجو لقضاء اليوم، وعلا رنين الأصوات في المنزل، وفي بعض الأحيان حتى كانت تُشرب الشمبانيا. بدت الحياة متنوعة، ومثيرة للاهتمام. لكن هذا؟ ما هذا؟ لم يتعرض الخدم للتوبيخ حتى، وتُركوا وشأنهم تمامًا، حتى تثاءبوا.

كان الأمر المحير أيضًا هو الغياب الكامل للرجال. كيف يمكن للرجال الابتعاد عن كل هذا القدر من الجمال؟ حيث إنه عند جمعهن معًا، وحتى بعد طرح السيدة العجوز، أنتجت الشابات الثلاث الأصغر سنًّا حاصلًا إجماليًّا هائلًا مما يسعى خلفه الرجال عادة.

كما أن الرغبة الواضحة لدى كل سيدة في قضاء ساعات طويلة منفصلة عن السيدات الأخريات أثارت حيرة الخدم. وكانت النتيجة سكونًا مميتًا في المنزل، باستثناء أوقات الوجبات. بدا كما لو أنه خالٍ، كما كان طوال فصل

الشتاء، بسبب عدم وجود أي أصوات للحياة. جلست السيدة العجوز في غرفتها وحدها، وتجولت السيدة ذات العينين الداكنتين بمفردها وهي تتسكع بين الصخور على نحو غير مفهوم، كما أخبرهم دومينيكو الذي كان يصادفها أحيانًا في أثناء أداء واجباته. كما استلقت السيدة الشقراء فائقة الجمال على كرسيها المنخفض في الحديقة العلوية وحدها، أما السيدة الشقراء الأقل جمالًا، وإن كانت لا تزال جميلة، فقد كانت تصعد إلى التلال، وتبقى فوقها لساعات بمفردها. وفي كل يوم، أشرقت الشمس ببطء حول المنزل، وغابت في البحر عند المساء، ولم يحدث أي شيء قَطُّ.

تثاءب الخدم.

ومع ذلك، بينما كانت أجساد الزائرات الأربع جالسة - كان هذا جسد السيدة فيشر - أو مستلقية - كان ذلك جسد الليدي كارولين - أو تتسكع - كان ذلك جسد السيدة أربوثنوت - أو حتى تصعد إلى التلال في عزلة - كان ذلك جسد السيدة ويلكنز - فإنها لم تكن خاملة على الإطلاق في الواقع، حيث انشغلت عقولهن على نحو غير عادي. وحتى خلال الليل، كانت عقولهن منشغلة، وبدت الأحلام التي راودتهن صافية وخفيفة وسريعة، ومختلفة تمامًا عن الأحلام الثقيلة التي تراودهن في المنزل. كان هناك شيء ما في سان سالفاتوري يؤدي إلى النشاط الذهني لدى الجميع، باستثناء السكان المحليين. حيث كانوا كما سبق، وبصرف النظر عن الجمال المحيط بهم، وبصرف النظر عما فعلته المواسم الباذخة، يتمتعون بحصانة من الأفكار المغايرة لتلك التي اعتادوها. لقد رأوا طوال حياتهم، عامًا بعد عام، مشهد شهر أبريل المذهل والمتكرر في الحدائق، حتى جعلته العادة غير مرئي بالنسبة إليهم. لقد عموا عنه وباتوا غير واعين به، مثل كلب دومينيكو النائم في الشمس.

لكن لم يكن من الممكن أن تعمى عنه الزائرات، حيث بدا لافتًا للغاية بعد شهر مارس في لندن، الذي كان رطبًا وكئيبًا بشكل زائد. أن ينتقل المرء فجأة

إلى ذلك المكان، حيث كان الهواء ساكنًا كما لو أنه يحبس أنفاسه، وحيث كان الضوء ذهبيًّا للغاية إلى درجة أن معظم الأشياء العادية تغيرت... أن ينتقل المرء إلى ذلك الدفء الرقيق، وذلك العطر الذي يلاطفه، وأن تكون القلعة الرمادية العتيقة خلفية للمشهد، وعلى مسافة بعيدة التلال الصافية الهادئة مثل تلك التي تظهر في خلفية لوحات بيروجيني، بدا ذلك تباينًا مذهلًا. وحتى الليدي كارولين التي أَلِفت الجمال طوال حياتها، والتي ذهبت إلى كل مكان ورأت كل شيء، شعرت بالاندهاش منه. كان ربيعًا رائعًا على وجه الخصوص في ذلك العام، ومن بين جميع الأشهر في سان سالفاتوري، كان أبريل هو الأفضل إذا كان الطقس جيدًا. كان شهر مايو حارقًا وذابلًا، في حين كان شهر مارس مضطربًا، ويمكن أن يبدو قاسيًا وباردًا في سطوعه، لكن شهر أبريل أتى بهدوء كأنه نعمة، وإذا كان الجو صافيًا في أبريل، فإنه يصير فائق الجمال بدرجة يستحيل معها عدم الشعور بالاختلاف، وعدم الشعور بالإثارة والتأثر.

استجابت السيدة ويلكنز لذلك على الفور، كما رأينا، حيث خلعت كل ملابسها على الفور، إن جاز التعبير، وانغمست مباشرة في الروعة، من دون تردد، مع صيحة من النشوة.

وقد اضطربت السيدة أربوثنوت وتأثرت، لكن على نحو مختلف، إذ انتابتها أحاسيس غريبة، سنصفها بعد قليل.

ونظرًا إلى كون السيدة فيشر عجوزًا، فقد كانت ذات طبيعة أكثر انغلاقًا، وأقل تأثرًا، وأبدت مزيدًا من المقاومة، لكن راودتها هي الأخرى مشاعر غريبة، ستوصف في محلها المناسب أيضًا.

ومع أن الليدي كارولين كانت على دراية جيدة بالمنازل والأجواء الجميلة، ولم يكن من الممكن أن تصيبها بنفس القدر من الدهشة، فإنها كانت سريعة الاستجابة مثل السيدة ويلكنز. أثَّر المكان فيها هي أيضًا بشكل فوري تقريبًا، وأدركت جزءًا من هذا التأثير: لقد جعلها ترغب في التفكير

منذ مساء اليوم الأول، ولعب معها دور الضمير، على نحو غريب. أما الشيء الذي بدا أن هذا الضمير يلفت انتباهها إليه بإصرار أدهشها - ترددت الليدي كارولين في قبول الكلمة، لكنها ظلت تتبادر إلى ذهنها - فهو أنها تافهة.

تافهة. هي تافهة. تخيل ذلك.

يجب أن تفكر في ذلك.

في صباح اليوم التالي لتناول العشاء الأول معًا، استيقظت وهي تشعر بالندم لأنها تحدثت كثيرًا مع السيدة ويلكنز في الليلة السابقة. تساءلت ما الذي دفعها إلى ذلك. والآن، سترغب السيدة ويلكنز بالطبع في التشبث بها، وستريد ألا تفترق عنها، وكانت فكرة التشبث وعدم الافتراق لأربعة أسابيع كفيلة بجعل روح سكراب تذوي بداخلها. لا شك أن السيدة ويلكنز تشجعت، وستجدها كامنة في الحديقة العلوية، منتظرة أن تعترض طريقها عند خروجها، وتحييها ببهجة في الصباح. كم كانت تكره تلقي تحية الصباح ببهجة، أو تلقي أي تحية على الإطلاق في الواقع. لم يكن عليها أن تشجع السيدة ويلكنز في الليلة السابقة. كان التشجيع مميتًا. كان عدم التشجيع سيئًا بما فيه الكفاية، حيث إن مجرد جلوسها من دون التفوُّه بأي شيء كان يتسبب في توريطها عادة، لكن التشجيع الفعلي بدا أمرًا انتحاريًّا. ما الذي دفعها إلى هذا، بحق السماء؟ والآن، ستضطر إلى إهدار كل ذلك الوقت الثمين، الوقت الثمين الرائع الذي يمكنها قضاؤه في التفكير، وفي تصفية حساباتها مع نفسها، ستهدره في التخلص من السيدة ويلكنز.

عندما بدَّلت ملابسها، تسللت خارجة إلى ركنها بحذر شديد، على أطراف أصابعها، وهي توازن نفسها بعناية خشية أن يصدر الحصى صوتًا، لكن الحديقة كانت خالية. لم يكن من الضروري التخلص من أحد. لم ترَ السيدة ويلكنز، ولا أي شخص آخر. انفردت بنفسها تمامًا في الحديقة، باستثناء دومينيكو، الذي جاء ليحوم في الحال وهو يروي نباتاته مرة أخرى، وخصوصًا جميع النباتات القريبة منها. لم يخرج أحد قَطُّ، وبعد

فترة طويلة من ملاحقة الأفكار التي بدت كما لو أنها تهرب منها تمامًا بمجرد وصولها إليها، والسقوط في غفوات متقطعة في خضم تلك الملاحقة، شعرت بالجوع ونظرت إلى ساعتها فرأت أن الساعة قد تجاوزت الثالثة، وأدركت أن أحدًا لم يكلف نفسه عناء مناداتها لتناول طعام الغداء. لذا، لم يكن في وسع سكراب إلا أن تلاحظ أنه لو كان هناك من تم التخلص منه، فقد كانت هي ذلك الشخص.

حسنًا، كم هو أمر مبهج، وجديد تمامًا. ستصبح قادرة الآن على التفكير بالفعل، من دون مقاطعة. كم هو رائع أن تُنسى.

ومع ذلك، كانت جائعة. وبعد تلك المودة المفرطة في الليلة السابقة، كان يمكن للسيدة ويلكنز على الأقل أن تبلغها أن الغداء جاهز. وقد تصرفت بمودة مفرطة بالفعل، وكانت لطيفة جدًّا فيما يتعلق بترتيبات نوم ميلرش، وأرادته أن يحصل على الغرفة الإضافية. لم تكن تهتم عادة بمثل هذه الترتيبات، وفي الواقع لم تكن تهتم بها قَطُّ. لذا اعتبرت سكراب أنها بذلت قصارى جهدها تقريبًا لتتصرف بلطف مع السيدة ويلكنز، وفي المقابل، لم تهتم السيدة ويلكنز حتى بما إذا كانت قد تناولت أي غداء أم لا.

من حسن الحظ، على الرغم من أنها كانت جائعة، فإنها لم تمانع في تفويت وجبة. كانت الحياة مليئة بالوجبات، التي تستغرق نسبة هائلة من وقت المرء، كما كانت تخشى أن السيدة فيشر واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يتأخرون في تناول الطعام. تناولت العشاء مرتين الآن مع السيدة فيشر، وفي كل مرة كان من الصعب جعلها تغادر مكانها في النهاية، حيث تأخرت وهي تكسر ببطء عددًا لا يحصى من المكسرات، وتشرب على مهل كأسًا من النبيذ الذي بدا كما لو أنه لن ينتهي أبدًا. ربما سيكون من الجيد اعتياد تفويت وجبة الغداء، وبما أنه كان من السهل جدًّا أن تطلب إحضار الشاي لها، وحيث إنها كانت تتناول الإفطار في غرفتها، فلن تضطر إلى الجلوس إلى مائدة غرفة الطعام وتحمل المكسرات سوى مرة واحدة يوميًّا.

دفنت سكراب رأسها وسط الوسائد على نحو مريح، ووضعت قدميها فوق بعضهما على الحاجز المنخفض، واستسلمت لمزيد من التفكير. قالت لنفسها، كما فعلت على فترات متقطعة طوال الصباح: «سأفكر الآن». لكن الأمر كان صعبًا، لأنها لم يسبق أن فكرت في أي شيء في حياتها من قبل. من الغريب كيف أن انتباه المرء لا يبقى ثابتًا، ومن الغريب كيف ينزلق عقل المرء في أفكار جانبية. بعد أن استقرت على مراجعة ماضيها كتمهيد للنظر في مستقبلها، وبدأت البحث فيه عن أي مبرر لتلك الكلمة المؤلمة، «تافهة»، لم تنتبه إلا وهي لا تفكر في تلك الكلمة على الإطلاق، لكن بطريقة ما، تحوَّل تفكيرها إلى السيد ويلكنز.

حسنًا، كان من السهل جدًّا التفكير في السيد ويلكنز، على الرغم من أن ذلك لم يكن ممتعًا. ترقبت قدومه بشك، حيث لم تكن إضافة رجل إلى المجموعة أمرًا غير متوقع ومملًا بدرجة كبيرة فحسب، بل ورجل أيضًا من ذلك النوع الذي كانت متأكدة أن السيد ويلكنز سيكون عليه، لكنها شعرت بالخوف أيضًا – وكان خوفها نتيجة لتجربة لا تتغير على نحو كئيب – أنه قد يرغب في أن يحوم حولها.

من الواضح أن هذا الاحتمال لم يخطر على بال السيدة ويلكنز بعد، ولم يكن من الممكن أن تلفت انتباهها إليه، ليس من دون أن تبدو شديدة الحماقة. حاولت أن تأمل أن يكون السيد ويلكنز استثناءً رائعًا لهذه القاعدة المروعة. لو كان كذلك، لأحست بالامتنان البالغ له، إلى درجة أنها اعتقدت أنها قد تحبه حقًّا.

لكن كانت لديها شكوك. ماذا لو أنه حام حولها، حتى طردها من حديقتها العلوية الجميلة، وماذا لو انطفأ ذلك الضوء في وجه السيدة ويلكنز بضحكته المرتعشة؟ شعرت سكراب بأنها لن تحب حدوث هذا لوجه السيدة ويلكنز، لكنها لم تقابل في حياتها أي زوجات قَطُّ، ولا أي واحدة على الإطلاق، استطاعت أن تفهم أنها لا تريد زوجها بتاتًا. كثيرًا ما قابلت زوجات لا يُردن

أزواجهن أيضًا، لكن ذلك لم يقلل من سخطهن إذا ظنن أن شخصًا آخر يريدهم، ولم يقلل من ثقتهن بأن سكراب تحاول الفوز بهم، عند رؤيتهم يحومون حولها. تحاول الفوز بهم! إن مجرد الفكرة، ومجرد تذكر هذه المواقف، ملأها بضجر شديد، إلى درجة دفعتها إلى النوم مرة أخرى على الفور.

عندما استيقظت، واصلت التفكير في السيد ويلكنز.

فكرت سكراب، إذا لم يكن السيد ويلكنز استثناءً، وتصرف بالطريقة المعتادة، فهل ستتفهم السيدة ويلكنز الأمر، أم أن ذلك سيفسد إجازتها ببساطة؟ بدت ذكية، لكن هل ستكون ذكية بخصوص هذا الموضوع؟ بدا أنها تفهم وترى ما بداخل المرء، لكن هل ستفهم وترى ما بداخل المرء عندما يتعلق الأمر بالسيد ويلكنز؟

امتلأت سكراب الخبيرة بالشكوك. حركت قدميها فوق الحاجز، وعدلت من وضع إحدى الوسائد. ربما كان من الأفضل لها أن تحاول أن تشرح للسيدة ويلكنز، خلال الأيام المتبقية قبل وصوله - تشرح بطريقة عامة، على نحو غامض نوعًا ما، وتتحدث بشكل عام - موقفها تجاه مثل هذه الأشياء. وربما تشرح لها أيضًا الكراهية الخاصة التي تكنها لأزواج الأخريات، ورغبتها العميقة في أن تُترك وشأنها، على الأقل لهذا الشهر.

لكن الشك انتاب سكراب بخصوص هذا أيضًا. كان مثل هذا الحديث يعني نوعًا من الألفة، ويعني الدخول في صداقة مع السيدة ويلكنز. ولو أنها شرعت في تلك الصداقة، وواجهت ما تنطوي عليه من خطورة التعامل مع السيدة ويلكنز بدرجة زائدة على الحد، وتبين في النهاية أن السيدة ويلكنز ماكرة - حيث كان الناس يصيرون ماكرين للغاية عندما يصممون على أمر ما - وتمكنت من التسلل إلى الحديقة العلوية، ربما تعتقد السيدة ويلكنز بسهولة أنها تعرضت للخداع، وأن سكراب مخادعة! مخادعة! وفيما يتعلق بالسيد ويلكنز. إن الزوجات مثيرات للشفقة حقًّا.

في الرابعة والنصف، سمعت أصوات صحون على الجانب الآخر من شجيرات الدفنة. هل سيُرسل إليها الشاي؟

لا، لم تقترب الأصوات، وتوقفت بالقرب من المنزل. كان الشاي سيُقدم في الحديقة، في حديقتها. فكرت سكراب أنه كان يمكنهم سؤالها على الأقل عما إذا كانت تمانع في إزعاجها، حيث كانوا جميعًا يعرفون أنها جالسة هناك.

ربما يجلب لها أحدهم الشاي في ركنها الخاص.

لا، لم يحضر أحد شيئًا.

حسنًا، كانت جائعة جدًّا بدرجة لم يسعها معها سوى الذهاب لتناول الشاي مع الأخريات اليوم، لكنها ستعطي فرانشيسكا أوامر صارمة فيما يتعلق بالمستقبل.

نهضت وسارت متجهة نحو أصوات الشاي بذلك التمهل والرشاقة اللذين كانا من عوامل الجاذبية الهائلة التي تتمتع بها. أدركت أنها لم تكن تشعر بالجوع الشديد فحسب، بل أرادت أيضًا التحدث مع السيدة ويلكنز مرة أخرى. لم تتشبث بها السيدة ويلكنز، وتركتها حرة تمامًا طوال اليوم، على الرغم من تقاربهما في الليلة السابقة. كانت غريبة الأطوار بالطبع، وارتدت بلوزة حريرية لتناول العشاء، لكنها لم تتشبث بها، وكان هذا شيئًا رائعًا. توجهت سكراب إلى طاولة الشاي وهي تتطلع تمامًا إلى رؤية السيدة ويلكنز، وعندما اقتربت منها، لم ترَ سوى السيدة فيشر والسيدة أربوثنوت.

كانت السيدة فيشر تصب الشاي، والسيدة أربوثنوت تقدم للسيدة فيشر حلوى المعكرون. في كل مرة قدمت فيها السيدة فيشر أي شيء للسيدة أربوثنوت - فنجانها، أو الحليب، أو السكر - قدمت لها السيدة أربوثنوت حلوى المعكرون، وعرضتها عليها بإصرار غريب، يكاد يشارف العناد. هل كانت لعبة؟ تساءلت سكراب عن الأمر وهي تجلس وتلتقط قطعة من المعكرون.

سألت سكراب:

- أين السيدة ويلكنز؟

لم يكن لديهما علم، أو على الأقل لم تكن السيدة أربوثنوت تعلم، بناءً على سؤال سكراب، بينما ظهر على وجه السيدة فيشر عند سماعها للاسم عدم الاهتمام التام.

لم تظهر السيدة ويلكنز منذ الإفطار، على ما يبدو، واعتقدت السيدة أربوثنوت أنها ربما ذهبت في نزهة. افتقدتها سكراب، وتناولت في صمت قطع المعكرون الضخمة التي كانت أكبر وأفضل من أيٍّ مما صادفته منها من قبل. كان الشاي من دون السيدة ويلكنز مملًّا، وكانت السيدة أربوثنوت تتمتع بسمة الأمومة القاتلة تلك، والرغبة في التربيت على المرء، وجعله مرتاحًا للغاية، وإقناعه بتناول الطعام - إقناعها هي، التي كانت بصراحة شديدة، تأكل بالفعل بإفراط - والتي بدا أنها رافقت خطوات سكراب طيلة حياتها. ألا يمكن للناس أن يتركوا المرء وشأنه؟ كانت قادرة تمامًا على أكل ما تريد، من دون تشجيع. حاولت إخماد حماسة السيدة أربوثنوت بأن تصرفت بوقاحة معها، بلا جدوى، حيث لم تكن وقاحتها واضحة. بل بقيت، كما بقيت كل مشاعر سكراب الخبيثة، مغطاة بحجاب جمالها الذي لا يمكن اختراقه.

جلست السيدة فيشر منتصبة، ولم تعِر انتباهًا لأيٍّ منهما. مرت بيوم غريب، وشعرت بالقلق بعض الشيء. كانت وحدها تمامًا، إذ لم تأتِ أيٌّ من الثلاث لتناول طعام الغداء، ولم تكلف أيٌّ منهن نفسها عناء إبلاغها أنها لن تأتي، وعندما جاءت السيدة أربوثنوت على نحو عرضي لتناول الشاي، تصرفت بغرابة حتى انضمت إليهما الليدي كارولين وشغلت انتباهها.

كانت السيدة فيشر على استعداد لئلا تكره السيدة أربوثنوت، التي بدا شعرها المفروق وتعبيرها اللطيف لائقًا وأنثويًّا للغاية، لكنها بالتأكيد كانت تتصف بعادات من الصعب أن تحبها. إن عادتها المتمثلة في تكرار أي عرض يُقدم لها على الفور بشأن الطعام أو الشراب، وإلقاء العرض في وجه المرء

مرة أخرى، إن جاز التعبير، لم يكن ما يتوقعه المرء منها، بطريقة أو بأخرى. «هل تريدين مزيدًا من الشاي؟»، كان بالتأكيد سؤالًا يُجاب عنه ببساطة إما بنعم وإما بلا، لكن السيدة أربوثنوت أصرت على تلك الحيلة التي أظهرتها في اليوم السابق في أثناء تناول الإفطار، وأضافت إلى كلمة نعم أو لا عبارة «هل تريدين أنتِ؟». فعلت ذلك مرة أخرى في ذلك الصباح في أثناء تناول الإفطار، وها هي ذي تفعل ذلك في أثناء تناول الشاي، الوجبتين اللتين ترأستهما السيدة فيشر وتولت خلالهما صب الشاي. لماذا فعلت ذلك؟ فشلت السيدة فيشر في فهم الأمر.

لكن هذا لم يكن ما يقلقها، بل كان مجرد أمر عابر. ما أقلقها هو أنها كانت غير قادرة تمامًا على التركيز على أي شيء في ذلك اليوم، ولم تفعل شيئًا سوى التجول بقلق من غرفة جلوسها إلى شرفاتها، ثم العودة مرة أخرى. لقد كان يومًا ضائعًا، وكم كانت تكره الهدر. حاولت القراءة، وحاولت الكتابة إلى كيت لوملي، لكن لا... قرأت بضع كلمات، وكتبت بضعة أسطر، ثم نهضت مرة أخرى وخرجت إلى الشرفات وحدقت إلى البحر.

لا يهم أن الرسالة إلى كيت لوملي لم تُكتب، فهناك متسع من الوقت لذلك. لتدع الأخريات يعتقدن أن مجيئها أمر مؤكد. هذا أفضل. هكذا سيبقى السيد ويلكنز بعيدًا عن الغرفة الإضافية، ويقيم في المكان الذي ينتمي إليه. أما كيت فيمكنها الانتظار، ويمكن إبقاؤها رهن الاحتياط. وكان لكيت وهي رهن الاحتياط نفس فعالية وجود كيت في الواقع، لكن كانت هناك مميزات في كيت وهي رهن الاحتياط، قد تكون مفقودة عند وجود كيت في الواقع. على سبيل المثال، إذا كانت السيدة فيشر ستشعر بالقلق، فقد كانت تفضِّل ألا تكون كيت موجودة لتراها. كان القلق والهرولة جيئة وذهابًا يستتبعان نقصًا في الكرامة. لكن كان من المهم أنها لم تستطع قراءة جملة واحدة من كتابات أيٍّ من أصدقائها الموتى العظماء، لا، ولا حتى براونينج، الذي أمضى وقتًا طويلًا في إيطاليا، ولا راسكن، الذي أحضرت معها كتابه «أحجار البندقية»

كي تعيد قراءته بالقرب من المكان نفسه تقريبًا، ولا حتى جملة من كتاب مثير للاهتمام حقًّا مثل ذلك الذي وجدته في غرفة جلوسها، عن الحياة العائلية للإمبراطور الألماني، ذلك الرجل المسكين - الذي كُتب في تسعينيات القرن التاسع عشر، قبل أن يصبح مظلومًا أكثر مما ظَلم، حيث كانت على اقتناع تام بأن هذا هو ما يحدث له الآن، وكان الكتاب مليئًا بأشياء مثيرة عن ولادته، وذراعه اليمنى، وطبيبه المولد - من دون الحاجة إلى وضعه جانبًا والذهاب للتحديق إلى البحر.

كانت القراءة مهمة جدًّا، والتمرين السليم وتنمية عقل الفرد واجبًا أساسيًّا. وكيف يمكن للمرء القراءة، إذا ظل يهرول دخولًا وخروجًا باستمرار؟ كان هذا القلق غريبًا. هل ستصاب بالمرض؟ لا، فقد شعرت بأنها على ما يرام، وفي الواقع، كانت بخير على نحو غير معتاد، حتى إنها دخلت وخرجت بسرعة كبيرة - بل هرولت في الواقع - ومن دون عصاها. فكرت أنه من الغريب جدًّا ألا تتمكن من الجلوس في سكون، وتجهمت وهي تنظر عبر قمم بعض زهور الياقوتية الأرجوانية عند خليج سبيتسيا المتلألئ خلف الرأس البحري. من الغريب جدًّا أنها هي، التي كانت تسير ببطء شديد، بالاعتماد على عصاها، صارت تهرول فجأة.

شعرت بأنه سيكون من المثير للاهتمام التحدث مع شخص ما حول هذا الموضوع. ليس مع كيت، بل مع شخص غريب. حيث إن كيت ستنظر إليها فحسب، وتقترح تناول فنجان من الشاي. دائمًا ما تقترح كيت تناول فناجين الشاي. وإلى جانب ذلك، كانت ملامح وجه كيت باردة. أما تلك السيدة ويلكنز، فعلى الرغم من كونها مزعجة، وذات لسان بذيء، ووقحة، وبغيضة، فإنها من المحتمل أن تفهم، وربما تعرف ما الذي يجعلها تشعر على هذا النحو. لكن لا يمكنها إخبار السيدة ويلكنز بأي شيء. كانت آخر شخص يمكن أن يعترف له المرء بمشاعره، والكرامة وحدها تمنع ذلك. هل تثق بالسيدة ويلكنز؟ أبدًا.

وبينما كانت السيدة أربوثنوت تتولى بحزن العناية بسكراب، التي قاومت محاولاتها تلك في أثناء تناول الشاي، شعرت أيضًا بأنها مرَّت بيوم غريب. مثل السيدة فيشر، كان مليئًا بالنشاط، لكنه على عكس السيدة فيشر، كان نشاطًا ذهنيًّا فقط. كان جسدها ساكنًا تمامًا، لكن عقلها لم يكن ساكنًا على الإطلاق، بل كان نشطًا بشكل مفرط. حرصت سنوات عديدة على ألا يكون لديها وقت للتفكير. كانت حياتها التي تسير وفقًا لجدول في الأبرشية تمنع الذكريات والرغبات من التطفل عليها. لكنها تزاحمت عليها في ذلك اليوم. عادت لتناول الشاي وهي تشعر بالاكتئاب، ونظرًا إلى شعورها ذاك في مثل هذا المكان، وكل شيء حولها يدفعها إلى الابتهاج، لم يزِدها ذلك إلا اكتئابًا. لكن كيف يمكنها الابتهاج وحدها؟ كيف يمكن لأي شخص أن يبتهج ويستمتع ويبدي تقديره، يبدي تقديره حقًّا، بمفرده؟ باستثناء لوتي. بدت لوتي قادرة على ذلك. نزلت التل بعد الإفطار مباشرة، وكانت بمفردها، لكن من الواضح أنها كانت مبتهجة، لأنها لم تقترح أن تذهب روز أيضًا، وشرعت تغني بينما هي تمضي في طريقها.

أمضت روز اليوم بمفردها، وجلست ويداها معقودتان حول ركبتيها، وهي تحدق أمامها مباشرة. كان ما تحدق إليه هو السيوف الفضية لصبار الأجاف، وعلى سيقانها العالية، زهور السوسن الشاحبة التي نمت في المكان البعيد الذي وجدته، بينما خلفها، بين الأوراق الرمادية والزهور الزرقاء، رأت البحر. كان المكان الذي وجدته عبارة عن ركن خفي، أحرقت فيه الشمس الأحجار المغطاة بالزعتر، ومن غير المرجح أن يأتي إليه أحد. كان بعيدًا عن مرمى بصر وسمع من في المنزل، وبعيدًا عن أي مسار، وكان قريبًا من الرأس البحري. جلست في سكون شديد إلى درجة أن السحالي سرعان ما اندفعت فوق قدميها، كما أن بعض الطيور الصغيرة مثل طائر الحسون، التي خافت في البداية، عادت مرة أخرى وحلقت بين الشجيرات المحيطة بها كما لو أنها لم تكن هناك. كم كان الأمر جميلًا. لكن ما جدواه مع عدم

وجود أحد هناك: لا أحد يحب الوجود مع المرء، وينتمي إلى المرء، ويمكن للمرء أن يقول له: «انظر». وألن يقول المرء: «انظر يا عزيزي»؟ بلى، سيقول المرء: «عزيزي»، وبمجرد قول تلك الكلمة العذبة لشخص يحب المرء، سيشعر المرء بالسعادة.

جلست ساكنة تمامًا، وهي تحدق أمامها مباشرة. من الغريب أنها لم تشعر بالرغبة في الصلاة في هذا المكان. هي التي اعتادت الصلاة باستمرار في المنزل، لم يبدُ أنها قادرة على القيام بذلك هنا على الإطلاق. في الصباح الأول، ألقت كلمة شكر قصيرة فحسب إلى السماء عند نهوضها من الفراش، ثم توجهت مباشرة إلى النافذة لترى كيف يبدو كل شيء... ألقت كلمة الشكر بلامبالاة مثل الكرة، ولم تعد للتفكير في الأمر. وفي هذا الصباح، تذكرت ذلك وشعرت بالخجل، وركعت بتصميم، لكن ربما كان التصميم سيئًا بالنسبة إلى الصلاة، لأنها لم تستطع التفكير في شيء لتقوله. وأما بالنسبة إلى الصلاة قبل النوم، فلم تتلُ أي صلاة في أيٍّ من الليلتين، إذ إنها نسيتها. انشغلت بشدة في التفكير في أشياء أخرى، إلى درجة أنها نسيتها. وبمجرد دخولها إلى الفراش، كانت تغرق في النوم وتدور بين الأحلام المشرقة الرقيقة السريعة، قبل أن يتاح لها الوقت كي تتمطى.

ما الذي حل بها؟ لماذا تخلت عن مرساة الصلاة؟ كما واجهت صعوبة أيضًا في تذكر الفقراء، وفي تذكر حتى أن هناك وجودًا للفقراء. كانت العطلات مفيدة، بطبيعة الحال، ويدرك الجميع كونها مفيدة، لكن هل يجب أن تمحو الحقائق تمامًا، وتلحق بها مثل هذه الفوضى؟ ربما كان من المفيد أن تنسى الفقراء، كي تعود إليهم بحماس أكبر. لكن لا يمكن أن يكون نسيان صلواتها مفيدًا، وما هو أكثر من ذلك، لا يمكن أن يكون من المفيد ألا تمانع هذا.

لم تكن روز تمانع، وكانت تعلم أنها لا تمانع. والأسوأ من ذلك هو أنها عرفت أنها لا تمانع عدم الممانعة. في هذا المكان، صارت غير مبالية

بالأشياء التي ملأت حياتها وجعلتها تبدو كأنها سعيدة لسنوات. حسنًا، لو كان في إمكانها فقط أن تبتهج في محيطها الجديد الرائع، وأن يكون لديها على الأقل ما يمكنها من مواجهة اللامبالاة، والتخلي عن الأمور... لكنها لم تستطع ذلك. لم يكن لديها عمل، ولم تصلِّ، وباتت خاوية.

لقد أفسدت لوتي يومها هذا، كما أفسدت يومها السابق... لوتي، بدعوتها لزوجها، واقتراحها أن تقوم هي أيضًا بدعوة زوجها. وبعد أن أعادت لوتي فريدريك إلى ذهنها في اليوم السابق، تخلت عنها، حيث تركتها وحدها مع أفكارها طوال فترة ما بعد الظهيرة. ومنذ ذلك الحين، دارت كلها حول فريدريك. بينما كان يزورها في أحلامها فقط في هامبستيد، فإنه ترك أحلامها حرة هنا، ولازمها في أثناء النهار بدلًا من ذلك. ومرة أخرى في ذلك الصباح، بينما كانت تجاهد كي لا تفكر فيه، سألتها لوتي، قبل أن تختفي وهي تغني في الطريق، إذا كانت قد كتبت إليه بعد ووجهت إليه الدعوة، فتبادر إلى ذهنها مرة أخرى، ولم تتمكن من إخراجه.

كيف يمكنها أن توجِّه إليه الدعوة؟ لقد استمرت غربتهما فترة طويلة، كل هذه السنوات، ولن تكاد تعرف الكلمات التي يتعين استخدامها، وعلاوة على ذلك، فهو لن يأتي. فلماذا يأتي؟ لم يكن مهتمًّا بالوجود معها. وما الذي يمكنهما الحديث عنه؟ كان يحول بينهما حاجز عمله، وتدينها. لم تستطع - وكيف يمكنها ذلك، وهي تؤمن بالفضيلة، وبمسؤولية المرء عن تأثير أفعاله في الآخرين - أن تتحمل عمله، وتتحمل العيش من عائده. كانت تعرف أنه استاء من تدينها في البداية، ثم شعر بالضجر منه فحسب. تركها تفلت من بين يديه، وتخلى عنها، ولم يعد يهتم، بل تقبل تدينها بلامبالاة، كحقيقة ثابتة. كانت هي وتدينها - أصبح عقل روز أكثر إشراقًا في الضوء الواضح لشهر أبريل في سان سالفاتوري، وفجأة رأى الحقيقة - يصيبانه بالضجر.

وبطبيعة الحال، عندما رأت هذا، وعندما ومضت الفكرة في ذهنها في ذلك الصباح لأول مرة، لم يعجبها ذلك. لم يعجبها على الإطلاق، إلى درجة

أن جمال إيطاليا كله انمحى بعض الوقت. ما الذي يمكن فعله حيال ذلك؟ لا يمكنها التخلي عن الإيمان بالخير وعدم حب الشر، ولا بد أن العيش بالكامل على عائدات الزناة محض شر، مهما كانوا ذوي مكانة، أو موتى منذ سنوات طويلة. وعلاوة على هذا، إذا فعلت ذلك، وإذا ضحت بماضيها كله، وتربيتها، وعملها خلال السنوات العشر الماضية، فهل ستثير ضجره بدرجة أقل؟ شعرت روز في أعمق أعماقها بأنه إذا حدث أن أثارت ضجر شخص تمامًا، فيكاد يكون من المستحيل أن تعود لتثير اهتمامه. فكرت أنه ما إن تصير مضجِرًا، حتى تظل مضجِرًا على الدوام بكل تأكيد، بالنسبة إلى الشخص الذي يشعر بالضجر في الأساس.

فكرت وهي تنظر إلى البحر بعينين صارتا دامعتين، أنه من الأفضل إذن أن تتمسك بتدينها. كان ذلك - ولم تلحظ تقريبًا كم تستوجب فكرتها تلك الاستهجان - أفضل من لا شيء. لكن أوه، كم أرادت التشبث بشيء ملموس، وأن تحب كائنًا حيًّا، يمكن أن يضمه المرء إلى قلبه، ويمكن أن يراه المرء ويلمسه، ويفعل أشياء من أجله. لو لم يكن طفلها المسكين قد مات... لم يكن الأطفال يشعرون بالضجر من المرء، ويستغرق الأمر منهم وقتًا طويلًا حتى يكبروا ويكتشفوا حقيقة المرء. وربما لم يكن طفل المرء يكتشف حقيقته قَطُّ، وربما يظل المرء بالنسبة إلى طفله، مهما كبر ونمت لحيته، شخصًا مميزًا، شخصًا مختلفًا عن أي شخص آخر، وإذا لم يكن هناك أي سبب آخر، شخصًا عزيزًا لأن المرء لا يمكن أن يتكرر أبدًا.

جلست بعينين دامعتين تنظر إلى البحر، وشعرت برغبة عارمة في أن تضم شيئًا خاصًّا بها قريبًا من صدرها. كانت روز نحيلة، ومتحفظة في مظهرها كما في شخصيتها، ومع ذلك انتابها شعور غريب - كيف يمكنها وصف الأمر؟ - بالرغبة في ضم أحدهم إلى صدرها. كان هناك شيء ما في سان سالفاتوري جعلها تشعر بالرغبة الشديدة في الاحتضان. أرادت أن تضم إلى صدرها، وتواسي وتحمي وتهدئ الرأس العزيز الذي سيستلقي

على صدرها، بأرق لمسات وهمسات الحب. فريدريك، وطفل فريدريك، وقد جاءا إليها، وتوسدا صدرها لأنهما يشعران بالتعاسة، ولأنهما أُصيبا بالأذى... سيحتاجان إليها حينها، إذا أُصيبا بالأذى، وسيدعانها تحبهما ساعتها، إذا شعرا بالتعاسة.

حسنًا، لقد رحل الطفل، ولن يأتي الآن أبدًا. لكن ربما يأتي فريدريك - يومًا ما - عندما يصبح عجوزًا ومتعبًا...

كانت هذه أفكار السيدة أربوثنوت ومشاعرها في اليوم الأول الذي قضته في سان سالفاتوري بمفردها. عادت لتناول الشاي وهي مكتئبة على نحو لم تشعر به منذ سنوات. سلبتها سان سالفاتوري مظهر السعادة الذي شيدته بعناية، ولم تعطِها شيئًا في المقابل. نعم، لقد أعطتها شعورًا بالشوق في المقابل: هذا الألم والشوق، وهذا الشعور الغريب بالرغبة في ضم أحدهم إلى صدرها، لكن ذلك كان أسوأ من لا شيء. وعلى الرغم من أنها تعلمت الحفاظ على توازنها، ولم تكن تشعر بالانزعاج قَطُّ في المنزل، وكانت دائمًا قادرة على التصرف بلطف، فإنها حتى في حالة حزنها، لم تستطع أن تتحمل عصر ذلك اليوم تولي السيدة فيشر دورَ المضيفة في أثناء تناول الشاي.

كان المرء ليفترض أن مثل ذلك الشيء البسيط لن يؤثر فيها، لكنه فعل. فهل تغيرت طبيعتها؟ وهل كانت ستتحول أيضًا إلى شخص يرغب في الشجار بشأن أشياء بسيطة، بدلًا من العودة إلى تطلعاتها المكبوتة منذ زمن طويل بشأن فريدريك فحسب؟ وبعد تناول الشاي، عندما اختفت السيدة فيشر والليدي كارولين مرة أخرى - بدا من الواضح تمامًا أن لا أحد يريدها - صارت أكثر اكتئابًا من أي وقت مضى، وغمرها التناقض بين الروعة المحيطة بها، والدفء، والجمال الزاخر والاكتفاء الذاتي للطبيعة، وفراغ قلبها الخاوي.

ثم عادت لوتي لتناول العشاء، وبدا أن نمشها زاد بشكل لا يُصدق، وهي تنضح بأشعة الشمس التي جمعتها طوال اليوم، وتتحدث وتضحك،

وتتصرف من دون لباقة، ومن دون حكمة، ومن دون تحفظ، وتيقظت الليدي كارولين، التي كانت هادئة للغاية في أثناء تناول الشاي، وبدت عليها الحيوية، ولم تكن السيدة فيشر ملحوظة بدرجة كبيرة، وبدأت روز تتعافى بعض الشيء، حيث كانت معنويات لوتي المرتفعة معدية وهي تصف مباهج يومها، وهو يوم يمكن أن يبدو بكل سهولة لشخص آخر كما لو أنه لم ينطوِ على شيء سوى نزهة طويلة وحارة للغاية، وبعض الشطائر، إلى أن التقت عيناها بعينَي روز، وقالت فجأة:

- هل أرسلت الرسالة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

تورَّد وجه روز. قلة اللباقة هذه...

سألت سكراب باهتمام:

- أي رسالة؟

كان مرفقاها على الطاولة، وذقنها مسندًا بين يديها، حيث وصلت مرحلة الجوز، ولم يكن أمامها سوى الانتظار في وضع مريح قدر الإمكان حتى تنتهي السيدة فيشر من تقشير الجوز.

قالت لوتي:

- كي تدعو زوجها للقدوم إلى هنا.

رفعت السيدة فيشر عينيها. زوج آخر؟ ألم يكن هناك حد لهم؟ إذن لم تكن هذه أيضًا أرملة، لكن زوجها كان بلا شك رجلًا كريمًا محترمًا، يمتهن مهنة كريمة محترمة. كان لديها أمل ضئيل في السيد ويلكنز، ضئيل للغاية، إلى درجة أنها أحجمت عن الاستفسار عما يعمله.

عندما لم تقل روز شيئًا، أصرت لوتي قائلة:

- هل أُرسلت؟

قالت روز:

- لا.

قالت لوتي:

- أوه، حسنًا، غدًا إذن.

أرادت روز أن تقول لا لهذا مرة أخرى. كانت لوتي ستفعل لو أنها في مكانها، وعلاوة على ذلك، كانت ستشرح جميع أسبابها. لكنها لم تستطع أن تكشف نفسها هكذا، وتدعو «كل من هب ودب» لإلقاء نظرة. كيف لم تتمكن لوتي، التي استطاعت رؤية كثير من الأشياء، من أن ترى في قلبها تلك البقعة المؤلمة حيث كان فريدريك، وتلزم الصمت حيالها عند رؤيتها؟

سألتها السيدة فيشر وهي تضبط بعناية جوزة أخرى بين كسارة الجوز:

- من زوجك؟

قالت روز بسرعة، وقد أثارت السيدة فيشر غضبها على الفور:

- من يمكن أن يكون، سوى السيد أربوثنوت؟

- أعني بالطبع، ماذا يكون السيد أربوثنوت؟

تضرج وجه روز بالحمرة على نحو مؤلم حينها، وقالت بعد صمت قصير:

- إنه زوجي.

اشتاطت السيدة فيشر غضبًا، بطبيعة الحال، ولم تُصدق أن هذه المرأة، بتصفيفة شعرها الوقور وصوتها اللطيف، يمكنها أن تكون وقحة هي الأخرى.

١٤

في ذلك الأسبوع الأول، بدأت الوستارية في الذبول، وتساقطت زهور شجرة الزمزريق وأشجار الخوخ وغطت الأرض باللون الوردي. ثم اختفت جميع زهور الفريزيا، وقلَّت أعداد زهور السوسن. بعد ذلك، بينما كانت هذه الزهور تختفي، ظهرت وردات بانسيا المزدوجة، وتباهى الورد الصيفي الكبير بنفسه فجأة على نحو رائع على الجدران والتعريشات. كانت وردة «الحظ الأصفر» واحدة منها، وهي وردة فائقة الجمال. وسرعان ما صار الأثل والدفنة في أفضل حالاتهما، والزنابق في أطول مستوى لها. بحلول نهاية الأسبوع، كانت أشجار التين تلقي بظلها، وتفتحت زهور البرقوق بين الزيتون، وظهرت شجيرات الويجيلا المتواضعة في ملابسها الوردية الجديدة، وتناثرت فوق الصخور كتل من الزهور سميكة الأوراق نجمية الشكل، بعضها أرجواني زاهٍ، وبعضها ليموني شاحب وصافٍ.

وبحلول نهاية الأسبوع أيضًا، وصل السيد ويلكنز، وكما توقعت زوجته أنه سيفعل، أتى بالفعل. وكانت هناك علامات تدل على حماسه تقريبًا بشأن قبوله لاقتراحها، لأنه لم ينتظر أن يكتب رسالة ردًّا على اقتراحها، بل أرسل برقية.

ومن المؤكد أن ذلك كان حماسًا. اعتقدت سكراب أن ذلك يظهر رغبة أكيدة في لم الشمل، وبينما كانت تراقب وجه زوجته السعيد، وتدرك رغبتها في أن يستمتع ميلرش بإجازته، قالت لنفسها إنه سيكون أحمق على نحو

غير عادي إذا أضاع وقته في الاهتمام بأي شخص آخر. فكرت سكراب: «إذا لم يعاملها بلطف، فسيؤخَذ إلى الشرفات المُفرَّجة، ويُلقى من فوقها». فبحلول نهاية الأسبوع، صارت هي والسيدة ويلكنز تناديان بعضهما كارولين ولوتي، وأصبحتا صديقتين.

لطالما كانت السيدة ويلكنز صديقتها، لكن سكراب جاهدت كي لا تكون كذلك. حاولت جاهدة التزام الحذر، لكن كم كان الحذر صعبًا مع السيدة ويلكنز! لقد تحررت تمامًا من كل أثر له، وكانت غير متحفظة على الإطلاق، وصريحة تمامًا، وسرعان ما أصبحت سكراب، قبل أن تدرك ما تفعله تقريبًا، غير متحفظة هي الأخرى، ولم يكن هناك من هو أكثر صراحة من سكراب، ما إن تطلق لنفسها العنان.

كانت المشكلة الوحيدة في لوتي هي أنها دائمًا ما تكون في مكان آخر تقريبًا، فلا يمكن الإمساك بها، ولا يمكن القبض عليها كي تأتي لتبادل الحديث. بدت مخاوف سكراب من أنها قد تتشبث بها مضحكة عندما تذكرت الأمر. لم تكن تتشبث قَطُّ، وكان الوقت الوحيد الذي يراها المرء فيه حقًّا هو في أثناء العشاء، وبعد العشاء. كانت تغيب عن الأنظار طوال اليوم، وتعود في وقت متأخر من العصر وهي تبدو بمظهر مثالي، وشعرها ممتلئ بقطع الطحالب، ونمشها أسوأ من أي وقت مضى. ربما كانت تستغل وقتها إلى أقصى حدٍّ قبل وصول ميلرش لتفعل كل الأشياء التي تريد القيام بها، وكانت تنوي أن تكرس نفسها بعد ذلك للتجول معه، بشكل أنيق، مرتدية أفضل ملابسها.

راقبتها سكراب باهتمام رغمًا عنها، لأنه بدا من الغريب جدًّا أن تسعد إلى هذا الحد بسبب أشياء بسيطة للغاية. كانت سان سالفاتوري جميلة، والجو رائعًا، لكن المناظر الطبيعية والطقس لم يكونا أمرًا كافيًا قَطُّ بالنسبة إلى سكراب، فكيف يمكن أن يكونا كافيين لشخص سيضطر إلى تركهما قريبًا والعودة إلى الحياة في هامبستيد؟ كما كان هناك أيضًا قدوم ميلرش

الوشيك، ميلرش ذاك الذي هربت منه لوتي مؤخرًا. كان من الجيد للغاية أن يشعر المرء بأنه يجب عليه المشاركة، وأن يقوم بإيماءة طيبة لذلك، لكن الإيماءات الطيبة التي عرفتها سكراب لم تسعد أحدًا. لم يكن أحد يحب بالفعل أن يكون هدفًا لواحدة من تلك الإيماءات، ودائمًا ما كان ذلك يعني جهدًا من جانب صاحب الإيماءة. ومع ذلك، كان عليها الاعتراف بأنه لم يكن هناك أي جهد من جانب لوتي، حيث كان من الواضح تمامًا أن كل ما فعلته وقالته كان بلا جهد، وأنها كانت ببساطة سعيدة تمامًا.

وكانت السيدة ويلكنز كذلك بالفعل، حيث اختفت في منتصف الأسبوع شكوكها فيما يتعلق بما إذا كانت قد حظيت بما يكفي من الوقت لتظل ثابتة على هدوئها بدرجة كافية، حتى تتمكن من مواصلة الهدوء في صحبة ميلرش عندما تحظى بها على مدى الساعة من دون انقطاع، وباتت تشعر الآن بأن لا شيء يمكن أن يزعزعها. صارت على استعداد لأي شيء. باتت مزروعة بقوة ومترسخة، كما لو أنها جزء أصيل من الجنة. وبصرف النظر عما يقوله ميلرش أو يفعله، فلن تتزحزح قيد أنملة من الجنة، ولن تنفعل ولو للحظة واحدة حتى تخرج منها وينتابها الغضب. بل على العكس من ذلك، ستسحبه إلى الداخل معها، وسيجلسان معًا على نحو مريح، يغمرهما الضوء، ويضحكان على مدى خوفها منه في هامبستيد، وكيف دفعها خوفها ذاك إلى أن تصبح مخادعة. لكنه لن يحتاج إلى كثير من السحب، بل سيدخل بشكل طبيعي تمامًا بعد يوم أو يومين، بعد أن تسوقه على نحو لا يقاوم النسائم العطرة لذلك الهواء الرائع، وسيجلس هناك ملتفًّا بالنجوم. هكذا فكرت السيدة ويلكنز، التي كانت تطفو في ذهنها بين الحين والحين شذرات مشرقة من الشعر، وسط الكثير من الركام الآخر. ضحكت قليلًا من صورة ميلرش، محامي الأسرة المحترم ذي القبعة العالية، والسترة السوداء، والنجوم تكسوه، لكنها ضحكت بمودة، تكاد تشارف الفخر الأمومي، لمدى روعة مظهره في مثل هذه الملابس الجميلة. غمغمت

لنفسها بمودة: «يا للحمل المسكين»، وأضافت قائلة: «ما يحتاج إليه هو أن يتشبع تمامًا بالهواء».

كان ذلك خلال النصف الأول من الأسبوع. وبحلول بداية النصف الأخير، الذي وصل في نهايته السيد ويلكنز، توقفت حتى عن التأكيد لنفسها أنها لا تتزعزع، وأن الأجواء تخللتها على نحو غير قابل للتغيير، ولم تعد تفكر في ذلك أو تلاحظه، بل أخذته كأمر مسلم به. إذا جاز للمرء أن يقول ذلك، وقد قالت ذلك بالفعل، ليس لنفسها فحسب، بل لليدي كارولين أيضًا، فقد وجدت ساقيها السماويتين.

وعلى العكس من فكرة السيدة فيشر عما هو لائق - لكن بالطبع كان على العكس، فما الذي يمكن للمرء أن يتوقعه من السيدة ويلكنز خلاف ذلك؟ - لم تذهب لمقابلة زوجها في ميتزاجو، بل سارت فقط إلى النقطة التي ستتركه فيها عربة بيبو مع أمتعته في الشارع في كاستانييتو. لم تعجب السيدة فيشر بقدوم السيد ويلكنز، وكانت متأكدة أن أي شخص يمكنه الزواج بالسيدة ويلكنز يجب أن يكون على الأقل ذا تصرفات غير حكيمة، ولكن الزوج، مهما كانت شخصيته، يجب أن يحظى بمقابلة لائقة. دائمًا ما حظي السيد فيشر بمقابلة لائقة، ولم يحدث ولو لمرة طيلة حياته الزوجية أن لم يقابله أحد في المحطة، كما كان يحظى بمن يودعه دائمًا. هذا الاهتمام، وهذه المجاملات، تقوي أواصر الزواج، وتجعل الزوج يشعر بأنه يستطيع الاعتماد على وجود زوجته دائمًا. وكان الوجود الدائم هو السر الأساسي بالنسبة إلى الزوجة. فضَّلت ألا تفكر فيما كان سيحدث للسيد فيشر، لو أنها أهملت التصرف وفقًا لهذا المبدأ. لقد حدث له ما يكفي بطبيعة الحال، فمهما كان اهتمام المرء بسد الثغرات، يبدو مع ذلك أن الحياة الزوجية تحوي مزيدًا منها.

لكن السيدة ويلكنز لم تبذل أي جهد. بل نزلت التل فحسب وهي تغني - كان في إمكان السيدة فيشر سماعها - والتقطت زوجها من الطريق

على نحو عرضي، كما لو كان دبوسًا. أما الثلاث الأخريات، اللاتي كن لا يزلن في الفراش، لأن وقت الاستيقاظ لم يحِن بعد، فقد سمعنها وهي تمر من أسفل نوافذهن على الطريق المتعرج لمقابلة السيد ويلكنز، الذي كان قادمًا بقطار الصباح، فابتسمت سكراب، وتنهدت روز. أما السيدة فيشر فقرعت جرسها، وطلبت من فرانشيسكا أن تحضر لها وجبة الإفطار في غرفتها. تناولت ثلاثتهن الإفطار في ذلك اليوم في غرفهن، مدفوعات بغريزة مشتركة للاختباء.

دائمًا ما كانت سكراب تتناول الإفطار في الفراش، لكن كانت لديها نفس غريزة الاختباء، وفي أثناء الإفطار وضعت خططًا لقضاء اليوم بأكمله حيثما كانت. ومع ذلك، ربما لن يكون ذلك ضروريًّا في ذلك اليوم مثلما سيكون في اليوم التالي. فكرت سكراب أن ميلرش سيكون منشغلًا ذلك اليوم، وسيرغب في الاستحمام. وكان الاستحمام في سان سالفاتوري أمرًا معقدًا، ومغامرة حقيقية إذا أراد المرء حمَّامًا ساخنًا في الحمَّام. كان الأمر يستغرق كثيرًا من الوقت، ويتطلب حضور جميع العاملين: يحاول دومينيكو وذلك الصبي جوزيبي حث الموقد ذي براءة الاختراع على الاشتعال، ويحدان من قوته عندما يشتد اشتعاله، ويستخدمان المنفاخ عندما يهدد بأن يخبو، ويعيدان إشعاله عندما يخبو بالفعل، بينما تحوم فرانشيسكا بقلق حول الصنبور، لتنظم تدفقه، لأنه إذا فُتح بالكامل، فسيبرد الماء على الفور، وإذا لم يُفتح بقدر كافٍ، فسينفجر الموقد بالداخل، ويغرق المنزل على نحو غامض، وفي أثناء ذلك تهرول أنجيلا وكوستانزا صعودًا ونزولًا لجلب دلاء الماء الساخن من المطبخ لاستكمال ماء الصنبور.

رُكِّب هذا الحمَّام مؤخرًا، وكان في الوقت نفسه مصدر فخر ورعب للخدم. كان اختراعًا جديدًا للغاية، ولم يفهم أحد طريقة عمله تمامًا. كانت هناك تعليمات مطولة مطبوعة بخصوص طريقة التعامل الصحيحة معه،

معلقة على الحائط، تكررت فيها كلمة «خطر» باللغة الإيطالية. وعندما رأت السيدة فيشر هذه الكلمة وهي في طريقها إلى الحمَّام، عادت إلى غرفتها مرة أخرى وطلبت الاستحمام بالإسفنجة بدلًا من ذلك. وعندما اكتشفت الأخريات ما يعنيه استخدام الحمَّام، وكيف بدا الخدم مترددين في تركهن بمفردهن مع الموقد، وكيف رفضت فرانشيسكا ذلك تمامًا، وبقيت مديرة ظهرها تراقب الصنبور، وكيف ظل باقي الخدم منتظرين خارج الباب بقلق، حتى يخرج المستحم بأمان مرة أخرى، طلبن إحضار حمَّامات إسفنجية إلى غرفهن أيضًا بدلًا من ذلك.

لكن السيد ويلكنز كان رجلًا، ومن المؤكد أنه سيريد حمَّامًا كبيرًا، وقدرت سكراب أن ذلك سيبقيه منشغلًا فترة طويلة. بعد ذلك سيفرغ أمتعته، وبعدها، بعد الليلة التي قضاها في القطار، سينام حتى المساء على الأرجح. لذا سيكون منشغلًا طوال ذلك اليوم، ولن يُطلق سراحه بينهن حتى العشاء.

لذلك توصلت سكراب إلى استنتاج مفاده أنها ستكون آمنة تمامًا في الحديقة في ذلك اليوم، ونهضت كالمعتاد بعد الإفطار، وتباطأت كعادتها في ارتداء ملابسها، وأمالت رأسها بعض الشيء وهي تصيخ السمع إلى أصوات وصول السيد ويلكنز، وأمتعته تُحمل إلى غرفة لوتي على الجانب الآخر من بسطة السلم، وصوته المهذب وهو يستفسر من لوتي، أولًا: «هل أُعطي هذا الرجل أي شيء؟»، وبعد ذلك مباشرة: «هل يمكنني الحصول على حمَّام ساخن؟»، وصوت لوتي وهي تؤكد له بمرح أنه ليس في حاجة إلى أن يعطي الرجل أي شيء لأنه البستاني، وأجل، يمكنه الحصول على حمَّام ساخن. وبعد ذلك بوقت قصير، امتلأت بسطة السلم بالأصوات المألوفة لجلب الخشب، وجلب الماء، وركض الأقدام، وصخب الألسنة، في الواقع، في أثناء إعداد الحمَّام.

انتهت سكراب من ارتداء ملابسها، ثم تلكأت عند نافذتها، منتظرة سماع السيد ويلكنز يدخل الحمَّام. عندما يصل إلى هناك بأمان، ستتسلل خارجة

وتستقر في حديقتها، وتستأنف تساؤلاتها عن المعنى المحتمل لحياتها. تقدمت في تساؤلاتها تلك، وصارت تغفو بمعدل أقل بكثير، وبدأت تميل إلى الموافقة على أن «تافه» هي الكلمة التي تنطبق على ماضيها، كما خشيت أيضًا أن مستقبلها يبدو قاتمًا.

ها قد سمعت صوت السيد ويلكنز المهذب مرة أخرى. انفتح باب لوتي، وخرج منه وهو يسأل عن طريقه إلى الحمَّام.

أجابه صوت لوتي:

- إنه حيث ترى ذلك الحشد المتجمع.

وسعدت سكراب عندما لاحظت أن نبرتها لا تزال مرحة.

تردد وقع خطاه عبر البسطة، وبدا أن وقع خطوات لوتي يتوجه نحو الطابق السفلي، ثم بدا بعد ذلك أن هناك مشاجرة قصيرة عند باب الحمَّام. لم يكن شجارًا بقدر ما كان جوقة صاخبة من الأصوات من جانب، وتصميمًا صامتًا من الجانب الآخر، حسب تخمين سكراب، ليستحم بمفرده.

لم يكن السيد ويلكنز يعرف اللغة الإيطالية، لذا لم تؤثر فيه كلمة «خطر» كما يجب، أو كما يجب لو أنه رآها، لكن من الطبيعي أنه لم ينتبه للمطبوعات الموجودة على الحائط. أغلق الباب بإحكام في وجه الخدم، وقاوم دومينيكو، الذي حاول الدخول حتى النهاية، وحبس نفسه كما ينبغي للرجل عند الاستحمام، وهو يفكر بتعقل بينما يقوم باستعداداته البسيطة للدخول، في معايير السلوك الغريبة لهؤلاء الأجانب، ذكورًا وإناثًا، الذين بدا أنهم يرغبون في البقاء معه في أثناء الاستحمام. وفي فلندا، كما سمع، لم تكن النساء المحليات يحضرن في مثل هذه المناسبات فحسب، بل يغسلن في الواقع المسافر الذي يستحم. ومع ذلك، لم يسمع أن هذا ينطبق أيضًا على إيطاليا، التي بدت بطريقة ما أقرب بكثير إلى التحضر، وربما كان ذلك بسبب أن المرء يذهب إلى هناك، ولا يذهب إلى فنلندا.

بعد أن تأمل السيد ويلكنز هذه الفكرة بحيادية، ووازن بدقة بين مزاعم

كلٍّ من إيطاليا وفنلندا بالتحضر، دخل إلى حوض الاستحمام، وأغلق الصنبور. كان من الطبيعي أن يغلق الصنبور، فهذا هو ما يفعله المرء. ولكن في التعليمات المطبوعة بأحرف حمراء، كانت هناك فقرة تنص على أنه لا يجب إغلاق الصنبور ما دامت لا تزال هناك نار مشتعلة في الموقد. يجب تركه مفتوحًا - ليس بدرجة كبيرة، لكن مفتوحًا - حتى تنطفئ النار تمامًا، وإلا، وهنا ذُكرت كلمة «خطر» مرة أخرى، سينفجر الموقد.

دخل السيد ويلكنز حوض الاستحمام، وأغلق الصنبور، فانفجر الموقد، تمامًا كما ذكرت التعليمات المطبوعة. ومن حسن الحظ أنه انفجر من الداخل فقط، لكن الانفجار أحدث ضجيجًا هائلًا، فقفز السيد ويلكنز من حوض الاستحمام، واندفع نحو الباب، وكانت الغريزة التي تولدت لديه بفضل سنوات من التدريب فحسب هي التي جعلته يختطف المنشفة في أثناء اندفاعه.

كانت سكراب في منتصف البسطة وهي في طريقها إلى الخروج، عندما سمعت الانفجار.

تذكرت التعليمات، وفكرت قائلة: «يا إلهي، ها قد ضاع السيد ويلكنز!».

ثم ركضت إلى رأس الدرج لتستدعي الخدم، وبينما كانت تجري، ركض السيد ويلكنز إلى الخارج ممسكًا بمنشفته، واصطدما ببعضهما.

صاح السيد ويلكنز:

- ذلك الحمَّام اللعين!

ونسي نفسه ربما للمرة الأولى في حياته، لكنه كان مستاءً.

هكذا كان اللقاء: السيد ويلكنز، الذي استتر بمنشفته على نحو غير كامل، وكتفاه مكشوفتان من طرف، وساقاه من الطرف الآخر، والليدي كارولين ديستر، التي ابتلع كل غضبه من زوجته وجاء إلى إيطاليا لمقابلتها.

فقد أخبرته لوتي في رسالتها بمن كان في سان سالفاتوري إلى جانبها هي والسيدة أربوثنوت، وأدرك السيد ويلكنز على الفور أن هذه فرصة

قد لا تتكرر أبدًا. كان كل ما قالته لوتي فحسب هو: «توجد هنا امرأتان أخريان، السيدة فيشر والليدي كارولين ديستر»، لكن ذلك كان كافيًا. كان يعرف كل شيء عن آل درويتويتش، وثروتهم، وعلاقاتهم، ومكانتهم في التاريخ، والقوة التي يتمتعون بها، إذا اختاروا ممارستها، في إسعاد محامٍ آخر بإضافته إلى أولئك الذين يعملون لديهم بالفعل. كان بعض الناس يعينون محاميًا لفرع من فروع شؤونهم، ومحاميًا آخر لفرع ثانٍ. ولا بد أن لشؤون آل درويتويتش فروعًا عديدة. كما سمع أيضًا - حيث كان يُعدُّ جزءًا من عمله أن يسمع، وأن يتذكر بعد أن يسمع - عن جمال ابنة الزوجين درويتويتش الوحيدة. وحتى لو لم يكن اللورد درويتويتش وزوجته بأنفسهما في حاجة إلى خدماته، فقد تحتاج إليه ابنتهما. حيث إن الجمال يقود الإنسان إلى مواقف غريبة، ولا يمكن أن تضر المشورة أبدًا. وإذا لم يكن أيٌّ منهم، لا الوالدان ولا الابنة ولا أي من أبنائهم اللامعين، في حاجة إليه بصفته المهنية، فمن الواضح أن معرفتهم كانت مفيدة للغاية، وتفتح له الآفاق، ومليئة بالفرص. ربما يستمر في العيش في هامبستيد سنوات، من دون أن تتاح له فرصة كهذه مرة أخرى.

بمجرد أن وصلت إليه رسالة زوجته، أرسل إليها برقية وحزم أمتعته. كان هذا عملًا، ولم يكن رجلًا يضيع الوقت عندما يتعلق الأمر بالعمل، كما لم يكن رجلًا يجازف بفقدان الفرص من خلال إهماله التصرف على نحو ودود. التقى زوجته بود تام، مدركًا أن الود في مثل هذه الظروف يُعدُّ من الحكمة. وعلاوة على ذلك، فقد كان يشعر بالود حيالها بالفعل، وبشدة. لأول مرة، كانت لوتي تساعده حقًّا. قبّلها بمودة عندما ترجل من عربة بيبو، وأبدى مخاوفه من أن تكون قد اضطرت إلى الاستيقاظ في وقت مبكر للغاية. لم يشكُ من شدة انحدار الطريق في أثناء صعودهما إلى الأعلى، وحكى لها عن رحلته بسرور، وعندما دعته إلى ذلك، أطاعها وأبدى إعجابه بالمناظر الطبيعية. كان كل شيء مخططًا بدقة في ذهنه، ما كان سيفعله في اليوم الأول:

الحلاقة، والاستحمام، وارتداء ملابس نظيفة، والنوم بعض الوقت، ثم يأتي الغداء والتعارف مع الليدي كارولين.

كان قد تخيَّر كلمات تحيته في القطار، وراجعها بعناية: تعبير بسيط عن سعادته بلقاء شخص سمع عنه، هو والعالم بأكمله، لكن سيعبر عن ذلك برقة بالطبع، برقة شديدة، وإشارة طفيفة إلى والديها المتميزين، والدور الذي لعبته عائلتها في تاريخ إنجلترا، بلباقة ملائمة بالطبع، وعبارة أو عبارتان عن شقيقها الأكبر اللورد وينشكومب، الذي فاز بوسام صليب فيكتوريا في الحرب الأخيرة في ظل ظروف لا يمكن إلا أن تجعل - ربما يضيف هذا أو ربما لا يضيفه - قلب كل رجل إنجليزي ينبض بفخر بقوة أكثر من أي وقت مضى، وحينها سيكون قد اتخذ الخطوات الأولى نحو ما قد يكون نقطة تحوُّل في حياته المهنية.

وها هو ذا... لا، كان الأمر فظيعًا للغاية، ما الذي يمكن أن يكون أكثر فظاعة؟ لا يرتدي سوى منشفة، والماء يسيل من ساقيه، وتلك العبارة التي صاح بها. عرف على الفور أن المرأة هي الليدي كارولين، عرف ذلك في اللحظة التي خرجت فيها تلك العبارة من فمه. نادرًا ما استخدم السيد ويلكنز هذه الكلمة، ولم يستخدمها قَطُّ في حضور سيدة أو عميل. أما بالنسبة إلى المنشفة... لماذا أتى؟ لماذا لم يبقَ في هامبستيد؟ سيكون من المستحيل نسيان هذا.

لكن السيد ويلكنز لم يضع سكراب في حساباته. في الواقع، تغضن وجهها عند أول لمحة منه رأتها عيناها المندهشتان، وهي تبذل جهدًا هائلًا كي لا تضحك، وبعد أن كبتت ضحكاتها ورسمت الجدية على ملامحها مرة أخرى، قالت بهدوء كما لو أنه يرتدي كامل ملابسه:

- كيف حالك؟

يا لها من لباقة مثالية. كان من الممكن أن يعبدها السيد ويلكنز. هذا التجاهل الرائع. كان تأثير دمائها الزرقاء بالطبع هو الذي ظهر.

غمره الامتنان، وأمسك بيدها الممدودة وقال بدوره:

- كيف حالكِ؟

وبدا أن مجرد تكرار الكلمات العادية يعيد الوضع إلى طبيعته بطريقة سحرية. في الواقع، شعر بالارتياح الشديد، وكان من الطبيعي جدًّا أن يتصافح، وأن يلقي التحية التقليدية، إلى درجة أنه نسي أنه لا يرتدي إلا منشفة، وعاد إليه سلوكه المهني. نسي كيف تبدو هيئته، لكنه لم ينسَ أن هذه هي الليدي كارولين ديستر، السيدة التي قطع الطريق إلى إيطاليا لرؤيتها، ولم ينسَ أنه ألقى تلك العبارة الرهيبة في وجهها، وجهها الجميل والمهم. يجب عليه أن يطلب منها العفو على الفور. أن يتفوَّه بمثل تلك الكلمة أمام سيدة... أي سيدة... لكن من بين جميع السيدات، هذه فقط...

شرع السيد ويلكنز قائلًا بجدية شديدة، بنبرة رسمية وجادة، كما لو أنه يرتدي ملابسه:

- أخشى أنني استخدمت لغة لا تغتفر.

قالت سكراب، التي اعتادت سماع اللعنات:

- ظننتها ملائمة تمامًا.

شعر السيد ويلكنز بالارتياح والهدوء على نحو لا يُصدق من جوابها هذا. لم تستأ إذن. كان هذا تأثير دمائها الزرقاء مرة أخرى، فلا يمكن إلا لأصحاب الدماء الزرقاء إظهار مثل هذا السلوك الليبرالي المتفهم.

سألها:

- أنا أتحدث إلى الليدي كارولين ديستر، أليس كذلك؟

وبدت نبرته مصقولة بعناية أكبر من المعتاد حتى، إذ كان عليه أن يكبت الكثير من السعادة والارتياح، والكثير من فرحة من نال الصفح والعفو، كي لا تظهر في صوته.

قالت سكراب:

- بلى.

ولم تستطع منع نفسها من الابتسام على الإطلاق. لم تكن لديها حيلة في الأمر. لم تنوِ الابتسام للسيد ويلكنز قَطُّ، لكن في الحقيقة كان يبدو... وفوق كل ذلك نبرة صوته، وهو غافل عن منشفته وعن ساقيه، ويتحدث تمامًا كما لو أنه في الكنيسة.

قال السيد ويلكنز بنبرة رسمية تليق بغرفة الاستقبال:

- اسمحي لي أن أقدم نفسي، اسمي ميلرش ويلكنز.

ومد يده بشكل غريزي مرة أخرى عندما نطق بتلك الكلمات.

قالت سكراب:

- ظننت ذلك.

وبعد أن صافحها للمرة الثانية، لم تستطع منع نفسها من الابتسام للمرة الثانية.

كان على وشك الشروع في التفوُّه بأولى عبارات المديح اللطيفة التي أعدها في القطار، غافلًا، لأنه لم يتمكن من رؤية نفسه، أنه كان من دون ملابسه، عندما جاء الخدم يركضون على الدرج، وفي الوقت نفسه، ظهرت السيدة فيشر في مدخل غرفة جلوسها. وحيث إن كل هذا حدث بسرعة كبيرة، فإن الخدم الموجودين في المطبخ، والسيدة فيشر وهي تتجول في شرفاتها، لم يسنح لهم ما يكفي من الوقت للظهور عقب سماع الضجيج، قبل المصافحة الثانية.

عندما سمع الخدم الضجيج المخيف، عرفوا على الفور ما حدث، واندفعوا مباشرة إلى الحمَّام لمحاولة وقف الفيضان، من دون أن يعيروا انتباهًا لذلك الشخص الواقف على البسطة ملتفًّا بمنشفة، لكن السيدة فيشر لم تكن تعرف سبب هذا الضجيج، وخرجت من غرفتها للاستفسار، ووقفت متسمرة على عتبة الباب.

كان المنظر كافيًا ليتسمَّر أي شخص في مكانه: الليدي كارولين تصافح شخصًا كان سيبدو من الواضح أنه زوج السيدة ويلكنز، لو كان يرتدي ملابسه، ويتبادل كلاهما الحديث كما لو أن...

حينها، أدركت سكراب وجود السيدة فيشر، فالتفتت إليها في الحال، وقالت بلباقة:

- اسمحي لي أن أقدم لك السيد ميلرش ويلكنز. لقد وصل للتو.

ثم التفتت إلى السيد ويلكنز وأضافت قائلة:

- وهذه هي السيدة فيشر.

وكان السيد ويلكنز مهذبًا، فأبدى استجابة فورية لتلك العبارة التقليدية، وانحنى أولًا للسيدة المسنة الواقفة عند المدخل، ثم عبر نحوها، وتركت قدماه المبتلتان آثارًا وهو يمشي، وعندما وصل إليها مد يده بأدب.

قال السيد ويلكنز بنبرة صوته التي تحكم فيها بعناية:

- إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي صديقة زوجتي.

واختفت سكراب في الحديقة.

١٥

كان التأثير الغريب لهذا الحادث هو أنه عندما التقوا جميعًا ذلك المساء على العشاء، كان لدى كلٍّ من السيدة فيشر والليدي كارولين شعور فريد بالتفاهم السري مع السيد ويلكنز. لا يمكن أن يكون مثل باقي الرجال بالنسبة إليهما، ولا يمكن أن تنظرا إليه كما كانتا ستفعلان لو أنهما التقتا به وهو يرتدي ملابسه. ساد شعور بأن الجليد قد انكسر، وشعرتا بالحميمية والتسامح في آنٍ واحد. شعرتا حياله كما تشعر الممرضات تقريبًا، وكما يشعر أولئك الذين ساعدوا المرضى أو الأطفال الصغار في حمَّامهم. صارتا مطلعتين على ساقَي السيد ويلكنز.

لن يُعرف أبدًا ما قالته له السيدة فيشر في ذلك الصباح في أثناء شعورها الأوَّلي بالصدمة، لكن ما قاله لها السيد ويلكنز للرد عليها، عندما ذكره حديثها بحالته، بدا كريمًا للغاية في اعتذاره، وشديد اللياقة في ارتباكه، إلى درجة أنها أشفقت عليه بشدة في النهاية، واسترضاها تمامًا. ففي النهاية، كان الأمر حادثًا، ولا حيلة لأحد في الحوادث. وعندما رأته بعد ذلك على العشاء، مرتديًا ملابسه، ومصقولًا، وملابسه مهندمة وشعره مصفف، شعرت بهذا الإحساس الفريد بالتفاهم السري معه، ويُضاف إلى ذلك نوع من الفخر الشخصي تقريبًا بمظهره، الآن وقد ارتدى ملابسه، سرعان ما امتد بطريقة غامضة ليصبح فخرًا شخصيًّا تقريبًا بكل ما قاله.

لم يكن هناك أدنى شك في ذهن السيدة فيشر أن الرجل يمثل رفيقًا أفضل

بكثير من المرأة. وقد أدى حضور السيد ويلكنز ومحادثاته في آنٍ واحد إلى رفع مستوى مائدة العشاء من حديقة للدببة - نعم، حديقة للدببة - إلى مستوى التجمع الاجتماعي المتحضر. تحدث كما يتحدث الرجال، عن موضوعات مثيرة للاهتمام، وعلى الرغم من أنه كان شديد اللطف مع الليدي كارولين، فإنه لم يُظهر أي أثر للتحول إلى التكلف والحماقة كلما خاطبها، وكان في الواقع مهذبًا بالقدر نفسه مع السيدة فيشر نفسها. وعندما عُرضت السياسة لأول مرة على تلك الطاولة، استمع إليها بالجدية الملائمة عندما أبدت رغبتها في الحديث، وعامل آراءها بالاهتمام الذي تستحقه. بدا أنه يشاركها الرأي بخصوص لويد جورج، وفيما يتعلق بالأدب كانت آراؤه على القدر نفسه من الصواب. في الواقع، دار نقاش حقيقي، كما كان يحب المكسرات أيضًا. أما كيفية زواجه بالسيدة ويلكنز فكانت لغزًا.

ومن جانبها، فقد طالعت لوتي ذلك وقد اتسعت عيناها من الدهشة، حيث توقعت أن يستغرق ميلرش يومين على الأقل قبل أن يصل إلى هذه المرحلة، لكن تعويذة سان سالفاتوري عملت على الفور. لم يكن الأمر أنه كان لطيفًا في أثناء العشاء فحسب، لأنها دائمًا ما كانت تراه لطيفًا في أثناء العشاء مع الآخرين، لكنه كان لطيفًا طوال اليوم على انفراد، لطيفًا جدًّا إلى درجة أنه أثنى على مظهرها بينما كانت تمشط شعرها، وقبَّلها. قبَّلها! ولم يفعل ذلك وهو يقول لها صباح الخير أو تصبحين على خير.

حسنًا، في هذه الحالة، ستؤجل إخباره بالحقيقة بشأن مدخراتها، وأن روز ليست مضيفته في الواقع، حتى اليوم التالي، فمن المؤسف أن تفسد الأمور. كانت على وشك أن تصرح بالأمر فور حصوله على قسط من الراحة، لكن بدا من المؤسف إفساد حالة مزاجية رائعة للغاية مثل تلك التي تمتع بها ميلرش في هذا اليوم الأول. لتدعه هو أيضًا يزدَد استقرارًا في الجنة، وبمجرد أن يستقر، لن يمانع أي شيء.

تألق وجهها بالبهجة لذلك التأثير الفوري لسان سالفاتوري. وحتى كارثة

الحمَّام، التي أُخبرت بها عندما دخلت من الحديقة، لم تهزه. كان كل ما يحتاج إليه بالطبع هو عطلة. كم كانت قاسية معه عندما أراد أن يصطحبها بنفسه إلى إيطاليا. لكن هذه الترتيبات في الواقع كانت أفضل كثيرًا، على الرغم من أنها لم يكن لها فضل في ذلك. تحدثت وضحكت بمرح، ولم يبقَ فيها أي ذرة خوف منه، وحتى عندما قالت، مندهشة من نظافته، إنه يبدو نظيفًا للغاية بحيث يمكن للمرء أن يتناول عشاءه من فوقه، ضحكت سكراب، وضحك ميلرش أيضًا. كان سيمانع ذلك في المنزل، بافتراض أنها واتتها الجرأة لقول ذلك.

كانت أمسية ناجحة. كلما نظرت سكراب إلى السيد ويلكنز، رأته في منشفته والماء يقطر منه، وشعرت بالتسامح نحوه، وكانت السيدة فيشر سعيدة به. بدت روز مضيفة محترمة في نظر السيد ويلكنز، هادئة ووقورًا، وقد أُعجب بالطريقة التي تنازلت بها عن حقها في الجلوس إلى رأس الطاولة، كمجاملة رقيقة بالطبع للسيدة فيشر، بسبب عمرها. رأى السيد ويلكنز أن السيدة أربوثنوت منطوية بطبعها. كانت الأكثر انطواءً من بين السيدات الثلاث. التقى بها قبل العشاء بمفرده للحظة في غرفة الاستقبال، وأعرب لها بلغة مناسبة عن إحساسه بلطفها في رغبتها في انضمامه إلى مجموعتها، وبدت منطوية حينها. هل هي خجول؟ كان ذلك من المحتمل. تخضب وجهها وغمغمت كما لو أنها تستنكر ذلك، وبعد ذلك دخلت الأخريات. وفي أثناء العشاء، كانت أقلهن حديثًا. سيتعرَّف عليها بشكل أفضل بالطبع، خلال الأيام القليلة المقبلة، وكان متأكدًا أن ذلك سيكون من دواعي سروره.

وفي غضون ذلك، كانت الليدي كارولين كما تخيل السيد ويلكنز، وأكثر مما تخيله، وتقبلت بلطف ملاحظاته التي ضمنها ببراعة بين أطباق العشاء المختلفة. وكانت السيدة فيشر هي السيدة العجوز التي كان يأمل أن يقابلها طوال حياته المهنية. أما لوتي فلم تتحسن بشكل كبير فحسب، بل بدا من الواضح أنها «au mieux» - كان السيد ويلكنز يعرف ما هو ضروري باللغة

الفرنسية - أو على علاقة وثيقة بالليدي كارولين. عذبته كثيرًا خلال النهار فكرة وقوفه وهو يتحدث مع الليدي كارولين ناسيًا أنه لا يرتدي ملابسه، فكتب لها أخيرًا رسالة يعتذر فيها بشدة، ويرجوها أن تتغاضى عن سهوه المذهل وغير المفهوم، فأجابته بالقلم الرصاص على ظهر الظرف: «لا تقلق»، وأطاع وصيتها، وأبعد الأمر عن ذهنه. كانت النتيجة أنه بات يشعر بارتياح كبير الآن. وقبل أن ينام تلك الليلة قرص أذن زوجته، فاندهشت. هذه المودة...

علاوة على ذلك، لم يجلب الصباح معه أي انتكاسة للسيد ويلكنز، وحافظ على هذا المستوى العالي طوال اليوم، على الرغم من كونه اليوم الأول من الأسبوع الثاني، ومن ثَمَّ يوم سداد الفواتير.

ونظرًا إلى كونه يوم السداد، فقد دفع ذلك لوتي إلى التعجيل باعترافها، والذي كانت تميل إلى تأجيله فترة أطول قليلًا عندما حان موعده. لم تكن خائفة، وكانت تملك الشجاعة للإقدام على أي شيء، لكن ميلرش كان في حالة مزاجية رائعة، فلماذا تخاطر بتعكيرها الآن؟ ومع ذلك، عندما ظهرت كوستانزا بعد فترة وجيزة من تناول الإفطار، ومعها كومة من قصاصات الأوراق القذرة للغاية التي تغطيها الأرقام المكتوبة بالقلم الرصاص، بعد أن طرقت باب السيدة فيشر وأُرسلت بعيدًا، وباب الليدي كارولين وأُرسلت بعيدًا، وباب روز من دون أن تتلقَّى إجابة، نظرًا إلى أن روز خرجت، قاطعت طريق لوتي التي كانت تقود ميلرش في جولة إرشادية في أرجاء المنزل، وأشارت إلى قصاصات الورق وتحدثت بسرعة وبصوت عالٍ للغاية، وهزت كتفيها كثيرًا، وظلت تشير إلى قصاصات الورق، فتذكرت لوتي أن أسبوعًا قد مر من دون أن يدفع أحد أي شيء لأي شخص، وأن الوقت قد حان لتسوية الحسابات.

سألها السيد ويلكنز بنبرة معسولة:

- هل تريد هذه السيدة الطيبة شيئًا؟

قالت لوتي:

- المال.

- المال؟

- إنها فواتير التدبير المنزلي.

قال السيد ويلكنز بهدوء:

- حسنًا، لا علاقة لكِ بذلك.

- أوه، نعم، لديَّ علاقة...

وجرى التعجيل بالاعتراف.

كم كان رائعًا كيف تقبل ميلرش الأمر. كان المرء ليتصور أن فكرته الوحيدة عن المدخرات لطالما كانت أنه ينبغي إنفاقها على هذا النحو فقط. ولم يستجوبها، كما كان سيفعل في المنزل، بل تقبل كل شيء تدفق من فمها، بخصوص أكاذيبها وكل شيء، وعندما انتهت وقالت:

- أعتقد أن لديك كل الحق في أن تغضب، لكنني آمل ألا تغضب، وأن تسامحني بدلًا من ذلك.

سألها فحسب:

- ما الذي يمكن أن يكون أكثر فائدة من مثل هذه العطلة؟

حينها عقدت ذراعها بذراعه، وأمسكت بها بقوة قائلة:

- أوه، يا ميلرش، أنت حقًّا لطيف للغاية!

وتورَّد وجهها فخرًا به.

كونه تأقلم بهذه السرعة مع جو المكان، وصار لطيفًا على الفور، أظهر بالتأكيد مدى ارتباطه الحقيقي بكل ما هو طيب وجميل. كان ينتمي بشكل طبيعي تمامًا إلى هذا المكان الهادئ السماوي. كان بطبيعته - ومن الغريب كيف أساءت الحكم عليه - ابنًا للنور. تخيل أنه لم يبالِ بتلك الأكاذيب المروعة التي أقدمت عليها قبل مغادرة المنزل، وتخيل تمرير حتى تلك الأكاذيب من دون تعليق. عجيب. ومع ذلك، لم يكن عجيبًا، ألم يكن

في الجنة؟ في الجنة، لم يكن أحد يهتم بمثل تلك الأشياء التي انطوت صفحتها، ولم يكن المرء يكلف نفسه حتى عناء المسامحة والنسيان، حيث كان ينعم بالسعادة الفائقة. ضغطت على ذراعه بقوة تعبيرًا عن امتنانها وتقديرها، وعلى الرغم من أنه لم يسحب ذراعه، فإنه لم يستجب لضغطها ذاك. كان السيد ويلكنز باردًا بطبيعته، ونادرًا ما كان يشعر بأي رغبة حقيقية في الضغط.

في هذه الأثناء، أدركت كوستانزا أن السيد ويلكنز وزوجته لم يعودا يصغيان إليها، فعادت إلى السيدة فيشر، التي كانت تفهم اللغة الإيطالية على الأقل، إلى جانب كونها بوضوح في أعين الخدم الشخص المسؤول عن دفع الفواتير من بين أفراد المجموعة، وفقًا لعمرها ومظهرها. لذا، بينما انشغلت السيدة فيشر بوضع اللمسات النهائية على زينتها، حيث كانت تستعد بارتداء قبعة وخمار ووشاح من الريش وقفازين للذهاب في أول جولة لها في الحديقة السفلية - وهي الأولى بالتأكيد منذ وصولها - أوضحت لها كوستانزا أنها ما لم تتلقَّ المال لدفع فواتير الأسبوع الماضي، فسوف ترفض متاجر كاستانييتو منحها الائتمان اللازم لطعام الأسبوع الحالي. أكدت كوستانزا، التي أنفقت الكثير للغاية، أنهم لن يمنحوها الائتمان حتى، وكانت حريصة على أن تدفع لجميع أقاربها مستحقاتهم، وأيضًا أن تعرف كيف ستتقبل سيدتها الأمر، من أجل وجبات اليوم. فسرعان ما سيحل وقت الإفطار، وكيف يمكن أن يكون هناك إفطار من دون لحم، ومن دون سمك، ومن دون بيض، ومن دون...

أخذت السيدة فيشر الفواتير من يدها، ونظرت إلى مجموعها، فاندهشت بشدة من حجمها، وقد أرعبها للغاية الإسراف الذي تشهد عليه تلك الفواتير، إلى درجة أنها جلست إلى مكتبها لتتعمق في الأمر.

مرت كوستانزا بنصف ساعة سيئة للغاية. لم تعتقد أن الإنجليز يمكن أن يكونوا ماديين إلى ذلك الحد. علاوة على ذلك، كانت العجوز، كما

كان يُطلق عليها في المطبخ، تعرف الكثير من اللغة الإيطالية، وبإصرار ملأ كوستانزا بالخجل نيابة عنها، حيث كان مثل ذلك السلوك آخر شيء يتوقعه المرء من الإنجليز النبلاء، بحثت في بند تلو بند، وهي تطلب وتصمم حتى حصلت على التفسيرات.

لم تكن هناك أي تفسيرات، إلا أن كوستانزا قضت أسبوعًا رائعًا وهي تفعل ما يحلو لها تمامًا، في حرية ساحرة بلا حدود، وكانت هذه هي النتيجة.

بكت كوستانزا، التي لم يكن لديها أي تفسير. كان من المؤسف الاعتقاد بأنها ستضطر إلى طهي الطعام من الآن فصاعدًا تحت المراقبة وتحت الشك، وماذا سيقول أقاربها عندما يجدون أن الطلبات التي تلقوها قد تقلصت؟ سيقولون إنه ليس لها أي نفوذ، وسيحتقرونها.

بكت كوستانزا، لكن السيدة فيشر لم تتأثر. بلغة إيطالية بطيئة ورائعة، لها وقع مقاطع جحيم دانتي، أخبرتها بأنها لن تدفع أي فواتير حتى الأسبوع المقبل، وفي هذه الأثناء يجب أن يظل الطعام جيدًا مثلما كان من قبل، وبربع التكلفة.

رفعت كوستانزا يديها احتجاجًا.

واصلت السيدة فيشر قائلة، من دون أن تتأثر، إنها ستدفع المبلغ بالكامل إذا وجدت الأمر كذلك، وإلا... توقفت عن الحديث، حيث لم تكن هي نفسها تعرف ما ستفعله خلاف ذلك. لكنها توقفت عن الحديث، وبدت مستغلقة على الفهم ومهيبة وخطيرة، فأجبرت كوستانزا على الإذعان.

بعد ذلك، بعد أن صرفتها السيدة فيشر بإشارة منها، ذهبت للبحث عن الليدي كارولين للشكوى، حيث كان لديها انطباع بأن الليدي كارولين تولت طلب الوجبات، ومن ثَمَّ كانت مسؤولة عن الأسعار، لكن اتضح الآن أن الطاهية تُركت لتفعل ما يحلو لها تمامًا منذ وصولهن، وهو الأمر الذي كان بالطبع مشينًا بكل بساطة.

لم تكن سكراب موجودة في غرفة نومها، لكن عندما فتحت السيدة

فيشر الباب، لأنها اشتبهت في وجودها بالداخل، وأنها تتظاهر بعدم سماع الطرقات فحسب، كانت الغرفة لا تزال تعبق بأريج الزهور من أثر وجودها.

قالت السيدة فيشر لنفسها وهي تتشمم الغرفة: «عطر»، ثم أغلقت الباب مرة أخرى، وتمنت لو كان في إمكان كارليل أن يتحدث لمدة خمس دقائق متواصلة مع هذه الشابة. ومع ذلك... ربما حتى هو...

نزلت إلى الطابق السفلي لتذهب إلى الحديقة بحثًا عنها، وقابلت السيد ويلكنز في الردهة. كان يرتدي قبعته، وكان يشعل سيجارًا.

على الرغم من التسامح الذي أحست به السيدة فيشر حيال السيد ويلكنز، والارتباط الغريب والغامض حتى الذي شعرت به بعد لقاء صباح اليوم السابق، فإنها لم يعجبها السيجار داخل المنزل. كانت تتحمل ذلك في الخارج، لكن لم يكن من الضروري الانغماس في هذه العادة بالداخل، في حين أن المكان بالخارج كبير للغاية. وحتى السيد فيشر، الذي كان في الأصل رجلًا متمسكًا بالعادات، كما ينبغي لها القول، تخلص من هذه العادة بعد وقت قصير من زواجه.

مع ذلك، فقد نزع السيد ويلكنز قبعته عندما رآها، وألقى السيجار بعيدًا على الفور. ألقاه في الماء الذي افترض وجوده في جرة كبيرة من زنابق أروم، وكانت السيدة فيشر تدرك القيمة التي يعلقها الرجال على سيجارهم الذي أشعلوه للتو، فلم يسعها سوى الإعجاب بهذا التعديل الفوري المشرف والرائع.

لكن السيجار لم يصل إلى الماء، بل علق وسط الزنابق، وظل يدخن بينها بمفرده، وبدا منظره غريبًا وخبيثًا.

تقدم السيد ويلكنز من السيدة فيشر، وشرع يقول:

- إلى أين أنتِ ذاهبة، يا جميل...

لكنه قطع حديثه في الوقت المناسب تمامًا.

هل كان مزاجه في الصباح هو ما دفعه إلى مخاطبة السيدة فيشر

مستخدمًا أنشودة للأطفال؟ لم يكن يعلم حتى أنه على دراية بتلك الأنشودة. كان الأمر فائق الغرابة. ما الذي دفع بها إلى تفكيره الرصين في مثل هذه اللحظة؟ كان يكن احترامًا كبيرًا للسيدة فيشر، ولم يكن ليهينها قَطُّ بمخاطبتها بوصفها فتاة كما في الأنشودة، سواء أكانت جميلة أم خلاف ذلك. تمنى أن يحظى بالقبول لديها، حيث كانت امرأة صاحبة مواهب، كما اشتبه أيضًا في كونها صاحبة ممتلكات. كانا في غاية الدماثة مع بعضهما في أثناء الإفطار، واندهش من علاقتها الحميمية الواضحة مع أشخاص معروفين. كانوا من الفيكتوريين بالطبع، لكن الحديث عنهم بدا مريحًا بعد الإرهاق الناتج عن الحفلات الجورجية التي يقيمها صهره في هامبستيد هيث. شعر بأنهما متفاهمان على نحو رائع، وقد أظهرت بالفعل كل الأمارات الدالة على أنها سرعان ما سترغب في أن تصبح عميلة لديه، ولم يكن ليقدم على الإساءة إليها قَطُّ. سرت فيه البرودة بعض الشيء عندما أدرك كيف نجا بأعجوبة.

إلا أنها لم تلحظ ذلك حتى.

قال بتهذيب شديد:

- أنتِ في طريقك إلى الخروج.

مع كامل الاستعداد لمرافقتها إذا أكدت افتراضه ذاك.

قالت السيدة فيشر وهي تتجه نحو الباب الزجاجي المؤدي إلى الحديقة العلوية:

- أريد أن أجد الليدي كارولين.

قال السيد ويلكنز:

- إنه مسعى لطيف. هل يمكنني المساعدة في البحث؟

ثم أضاف وهو يفتح لها الباب:

- فلتسمحي لي...

قالت السيدة فيشر:

- إنها عادة ما تجلس في تلك الزاوية خلف الشجيرات. ولا أعرف ما إذا كان هذا مسعى لطيفًا، حيث إنها تركت الفواتير تتراكم على نحو شنيع، وهي في حاجة إلى التوبيخ بشدة.

قال السيد ويلكنز، وهو غير قادر على فهم مثل هذا الموقف:

- الليدي كارولين؟ ما علاقة الليدي كارولين بالفواتير هنا، إذا سمحت لي بالاستفسار؟

- لقد تُركت لها مهمة التدبير المنزلي، وبما أننا جميعًا نتشارك بالقدر نفسه، كان يجب أن يكون الأمر مسألة شرف بالنسبة إليها...

- لكن... الليدي كارولين مسؤولة عن أمور التدبير المنزلي للمجموعة هنا؟ مجموعة تضم زوجتي؟ يا سيدتي العزيزة، لقد جعلتني عاجزًا عن الكلام. ألا تعلمين أنها ابنة اللورد درويتويتش وزوجته؟

قالت السيدة فيشر وهي تطأ بقوة فوق الحصى، باتجاه الزاوية المخفية:

- أوه، أهذا من تكون؟ حسنًا، ذلك يفسر الأمر. إن تلك الفوضى التي أحدثها ذلك الرجل درويتويتش في إدارته في أثناء الحرب كانت فضيحة وطنية، بمنزلة اختلاس للمال العام.

شرع السيد ويلكنز يقول بجدية:

- لكنني أؤكد لك أنه من المستحيل أن تتوقعي من سليلة آل درويتويتش...

قاطعته السيدة فيشر قائلة:

- لا علاقة لآل درويتويتش بالأمر، حيث ينبغي للمرء تنفيذ المهام التي اضطلع بها. ولا أنوي إضاعة أموالي من أجل أيٍّ من آل درويتويتش.

كانت عجوزًا عنيدة. ربما لم يكن من السهل التعامل معها كما كان يأمل. لكن كم هي ثرية، فلا يمكن أن يكون هناك ما يدفعها إلى ازدراء آل درويتويتش على هذا النحو، سوى الشعور بالثراء الفاحش. عند سؤال لوتي، كانت مبهمة بشأن ظروفها، ووصفت منزلها بأنه ضريح كبير تعوم فيه أسماك الزينة، لكنه بات على يقين الآن أنها أكثر من مجرد ميسورة

الحال بدرجة كبيرة. ومع ذلك، تمنى لو لم ينضم إليها في هذه اللحظة، لأنه لم تكن لديه أي رغبة في أن يكون حاضرًا في مشهد مثل توبيخ الليدي كارولين ديستر.

لكن، مرة أخرى، لم يُدخل سكراب في حساباته. وبصرف النظر عما شعرت به حينما رفعت نظرها ورأت السيد ويلكنز يكتشف زاويتها في ذلك الصباح الأول، لم يظهر على وجهها سوى تعبير ملائكي. رفعت قدميها عن الحاجز عندما جلست فوقه السيدة فيشر، واستمعت باهتمام إلى ملاحظاتها الافتتاحية بخصوص عدم وجود أي أموال لديها لتنفقها في النفقات المنزلية المتهورة وغير المنضبطة، ثم قاطعت تدفق حديثها بأن سحبت إحدى الوسائد من خلفها، وقدمتها لها.

مدتها سكراب نحوها قائلة:

- اجلسي على هذه. ستشعرين بالارتياح على نحو أفضل.

وثب السيد ويلكنز ليتناولها منها.

قاطعتها السيدة فيشر قائلة:

- أوه، شكرًا لكِ.

بات من الصعب الاندماج في الموضوع مرة أخرى. أدخل السيد ويلكنز الوسادة بعناية بين السيدة فيشر التي رفعت نفسها قليلًا، وأحجار الحاجز، فاضطرت إلى أن تقول «شكرًا» مرة أخرى، وقاطعها ذلك. علاوة على هذا، لم تقل الليدي كارولين شيئًا للدفاع عن نفسها، بل نظرت إليها فحسب، واستمعت بوجه ملاك منتبه.

بدا للسيد ويلكنز أنه لا بد أن يكون من الصعب توبيخ فرد من آل ديستر يتمتع بتلك الهيئة، ويلتزم الصمت على نحو رائع. وسعد عندما رأى أن السيدة فيشر نفسها وجدت صعوبة في الأمر تدريجيًّا، حيث تراجعت حدتها، وانتهت بأن قالت بصوت واهٍ:

- كان يجب أن تخبريني بأنك لا تتولين الأمر.

قال الصوت الجميل:
- لم أكن أعلم أنك تعتقدين أنني أفعل.
قالت السيدة فيشر:
- أود الآن أن أعرف ما الذي تنوين فعله لبقية الوقت هنا.
ابتسمت سكراب قائلة:
- لا شيء.
- لا شيء؟ هل تقصدين القول...
تدخل السيد ويلكنز بألطف أسلوب مهني لديه، وقال:
- إذا سمحتما لي، أيتها السيدتان، بتقديم اقتراح...
نظرتا إليه، وتذكرتاه كما شاهدتاه لأول مرة، فشعرتا بالتسامح.
- أنصحكما بعدم إفساد عطلة مبهجة بسبب القلق بشأن التدبير المنزلي.
قالت السيدة فيشر:
- بالضبط، هذا ما أنوي تجنبه.
قال السيد ويلكنز:
- هذا في غاية التعقل.
ثم تابع:
- لماذا إذن لا تسمحين للطاهية - وهي طاهية ممتازة بالمناسبة - بمبلغ محدد «per diem» أي في اليوم لكل فرد؟
كان السيد ويلكنز يعرف ما هو ضروري باللغة اللاتينية.
- أخبريها بأنه مقابل هذا المبلغ يجب عليها أن تقدم لكِ الطعام، وليس فقط تقديم الطعام، بل تقديمه بشكل جيد كما كان دائمًا. يمكن للمرء أن يحسب ذلك بسهولة. على سبيل المثال، قد تكون رسوم فندق معتدل كافية كأساس، بعد خفضها إلى النصف، أو ربما حتى الربع.
سألت السيدة فيشر:

- وماذا عن هذا الأسبوع الذي مضى للتو؟ والفواتير الرهيبة لهذا الأسبوع الأول؟ ماذا عنها؟

قالت سكراب، التي لم تعجبها فكرة تقلص حجم مدخرات لوتي إلى حدٍّ كبير، بما يتجاوز ما كانت مستعدة له:

- سوف تكون هديتي إلى سان سالفاتوري.

ساد الصمت، وسُحب البساط من تحت قدمَي السيدة فيشر.

قالت أخيرًا مستنكرة، لكن وهي تشعر بارتياح شديد:

- بالطبع إذا اخترتِ أن تلقي بأموالك...

بينما غرق السيد ويلكنز في تأمل الخصال الكريمة لأصحاب الدماء الزرقاء. هذا الاستعداد، على سبيل المثال، لعدم الاهتمام بالمال، وهذا الجود، لم يكن المرء يعجب به في الآخرين فحسب، بل يعجب به في الآخرين ربما أكثر من أي شيء آخر، لكنه كان مفيدًا للغاية أيضًا بالنسبة إلى الطبقات العاملة. وعندما يصادفه المرء، يجب أن يشجعه بدفء الاستقبال. لكن السيدة فيشر لم تكن دافئة. تقبلت الأمر - واستنتج من ذلك أن ثراءها يرافقه البخل - لكنها تقبلته على مضض. كانت الهدايا هدايا، وشعر بأنه لا ينبغي للمرء أن يدقق فيها على هذا النحو. فإذا كانت الليدي كارولين ستجد سعادتها في تقديم طعام أسبوع كامل لزوجته وللسيدة فيشر، فسيكون من واجبهما قبول الأمر بلطف. لا ينبغي للمرء أن يصد الهدايا.

لذا عبر السيد ويلكنز نيابة عن زوجته، عما تود التعبير عنه، وقال لليدي كارولين - بنبرة من الخفة، لأنه هكذا يجب قبول الهدايا لتجنب إحراج من قدمها - إنها في هذه الحالة كانت مضيفة زوجته منذ وصولها، ثم التفت بمرح تقريبًا إلى السيدة فيشر، وأشار إلى أنه يتعين عليها هي وزوجته الآن أن تكتبا معًا خطاب الشكر المعتاد لليدي كارولين على حسن الضيافة. قال السيد ويلكنز، الذي كان يعرف ما هو ضروري في الأدب:

- لنطلق عليها اسم كولينز(*). أُفضِّل اسم كولينز لمثل هذه الرسالة، بدلًا من رسالة شكر على الاستضافة، أو رسالة شكر على الطعام. دعونا نسمِّها «كولينز».

ابتسمت سكراب، ومدت علبة سجائرها. ولم تستطع السيدة فيشر إلا أن تهدأ، حيث وجدت طريقة للتغلب على الإسراف، وذلك بفضل السيد ويلكنز، وكانت تكره الإسراف بقدر ما تكره الاضطرار إلى تحمُّل تكلفته، كما وجدت طريقة لتفادي مسؤولية التدبير المنزلي. فكرت للحظة أنه إذا حاول الجميع إجبارها على تولي شؤون التدبير المنزلي خلال إجازتها القصيرة بسبب عدم مبالاتهم (الليدي كارولين)، أو عدم قدرتهم على التحدث باللغة الإيطالية (الاثنتين الأخريين)، فستضطر في النهاية إلى الكتابة لطلب كيت لوملي. يمكن أن تتولى كيت الأمر. تعلمت هي وكيت الإيطالية معًا. لن يُسمح لكيت بالحضور إلا بشرط أن تتولى ذلك.

لكن طريقة السيد ويلكنز هذه كانت أفضل كثيرًا. يا له من رجل رائع حقًا. لم يكن هناك ما يضاهي رجلًا ذكيًّا، ليس صغيرًا جدًّا في السن، للحصول على رفقة مفيدة وممتعة. وعندما نهضت، بعد أن تمت تسوية الأمر الذي جاءت من أجله، وقالت إنها تنوي الآن الذهاب في نزهة قصيرة قبل الغداء، لم يبقَ السيد ويلكنز مع الليدي كارولين، كما كانت تخشى أن معظم الرجال الذين عرفتهم سيريدون، بل طلب السماح له بالذهاب والتنزه معها، لذلك بدا من الواضح أنه يفضِّل بالتأكيد المحادثة على الوجوه. رجل عاقل ولطيف. رجل ذكي واسع الاطلاع. رجل خبير بأمور الدنيا. رجل. كانت سعيدة للغاية لأنها لم تكتب إلى كيت في ذلك اليوم. ما الذي تريده من كيت؟ لقد وجدت رفيقًا أفضل.

(*) استخدام «كولينز» هنا بمعنى رسالة شكر هو استخدام بريطاني قديم مستوحى من شخصية ويليام كولينز في رواية جين أوستن «كبرياء وتحامل»، حيث أعرب في الرواية عن امتنانه لمضيفيه بغرور، وقال إنه سيرسل لهم شكرًا رسميًّا في رسالة. لكن هذا الاستخدام للكلمة توقف في النصف الأخير من القرن العشرين. (المترجمة).

إلا أن السيد ويلكنز لم يذهب مع السيدة فيشر بسبب حديثها، لكن لأنها عندما نهضت، ونهض هو أيضًا بسبب ذلك، وهو ينوي الانحناء لها فحسب حتى تخرج من تلك الزاوية، رفعت الليدي كارولين قدميها على الحاجز مرة أخرى، وأمالت رأسها جانبًا فوق الوسائد، وأغمضت عينيها.

أرادت سليلة آل درويتويتش الذهاب إلى النوم.

ولم يكن له أن يمنعها من ذلك ببقائه.

١٦

هكذا بدأ الأسبوع الثاني، وساد الانسجام بين الجميع. وقد أدى وصول السيد ويلكنز إلى زيادة هذا الانسجام، بدلًا من زعزعته كما خشيت ثلاث من المجموعة، في حين أن الرابعة لم يحمِها من هذا الخوف سوى إيمانها المتقد بتأثير سان سالفاتوري فيه. وجد مكانًا له هناك، وعزم على إرضاء الأخريات، وقد أرضاهن بالفعل. كان لطيفًا للغاية مع زوجته، ليس فقط في العلن، وهو ما اعتادته، ولكن في السر، في حين أنه لم يكن ليفعل ذلك بالتأكيد لو لم يرغب في ذلك. لكنه أراد ذلك. شعر بالامتنان الشديد لها، وكان سعيدًا بها للغاية، لأنها جعلته يتعرَّف على الليدي كارولين، إلى درجة أنه شعر بحبها بالفعل. كما أحس بالفخر أيضًا، حيث فكر أنه لا بد أن تكون بها مميزات أكثر مما ظن بكثير، حتى تصبح الليدي كارولين على علاقة حميمية وودود معها إلى هذا الحد. وكلما عاملها كما لو كانت لطيفة للغاية حقًّا، تفتحت شخصية لوتي أكثر، وصارت لطيفة للغاية حقًّا، ومن ثَمَّ تأثر هو بدوره على نحو أكبر، وصار هو نفسه لطيفًا للغاية. وهكذا ظلَّا يدوران، ليس في حلقة مفرغة، بل في حلقة فاضلة للغاية.

كان من إيجابيات ميلرش أنه صار يدللها. لم يكن ميلرش يميل إلى التدليل بدرجة كبيرة في أي وقت من الأوقات، لأنه كان رجلًا باردًا بطبيعته، ومع هذا، كان ذلك تأثير سان سالفاتوري فيه، كما افترضت لوتي، إلى درجة أنه في هذا الأسبوع الثاني كان يقرص أذنيها أحيانًا، واحدة تلو أخرى، بدلًا

من واحدة فقط، وتعجبت لوتي من هذه العاطفة التي تتطور سريعًا، وتساءلت ماذا سيفعل لو استمر على هذا المنوال في الأسبوع الثالث، عندما ينتهي ما لديها من آذان.

لقد كان لطيفًا بشكل خاص فيما يتعلق بحوض الاغتسال، وكان يرغب حقًّا في ألا يشغل الكثير من المساحة في غرفة النوم الصغيرة. فاستجابت لوتي بسرعة، وباتت أكثر رغبة منه في ألا تعترض طريقه، وأصبحت الغرفة مسرحًا للعديد من معارك الكرم الحنون، مما جعلهما أكثر سعادة مع بعضهما من أي وقت مضى. ولم يعُد للاستحمام في الحمَّام مرة أخرى، على الرغم من أنه جرى إصلاحه وصار جاهزًا له، لكنه نهض ونزل كل صباح إلى البحر، وعلى الرغم من أن برودة الليالي جعلت الماء باردًا في ذلك الوقت المبكر، فإنه كان يغطس كما ينبغي للرجل، ويأتي لتناول الإفطار وهو يفرك يديه ويشعر، كما قال للسيدة فيشر، بأنه مستعد لأي شيء.

بعد أن بدا من الواضح أن اعتقاد لوتي بالتأثير الذي لا يقاوم للجو السماوي في سان سالفاتوري كان له ما يبرره، وأن السيد ويلكنز، الذي عرفته روز بوصفه مثيرًا للقلق، وتصورته سكراب على أنه بارد وقاسٍ، صار رجلًا مختلفًا على نحو واضح، بدأت كلٌّ من روز وسكراب التفكير في أنه قد يكون هناك في النهاية شيء مما تصر عليه لوتي بالفعل، وأن سان سالفاتوري تؤثر في الشخصية وتطهرها.

صارتا أكثر ميلًا إلى اعتقاد ذلك، لأنهما أيضًا شعرتا بتغييرات تجري داخلهما: شعرت كلٌّ منهما بصفاء أكثر، في ذلك الأسبوع الثاني. شعرت سكراب بذلك فيما يتعلق بأفكارها، التي صار العديد منها الآن أفكارًا لطيفة جدًّا، أفكارًا لطيفة للغاية عن والديها وأقاربها، مع بصيص من الاعتراف بالمزايا غير العادية التي حصلت عليها على يد... ماذا؟ القدر؟ العناية الإلهية؟ شيء ما، على أي حال، وكيف أساءت استخدامها بعد أن تلقَّتها: لقد أساءت استخدامها لأنها فشلت في أن تكون سعيدة. كما أحست روز

بذلك في قلبها وعلى الرغم من أنه كان لا يزال يشعر بالاشتياق، فإنه كان يشتاق إلى هدف ما، حيث وصلت إلى استنتاج مفاده أن مجرد الاشتياق السلبي لا جدوى منه على الإطلاق، وأنه يجب عليها إما إيقاف شوقها بطريقة ما، وإما منحه فرصة على الأقل - كانت بعيدة المنال، لكنها لا تزال فرصة - كي يهدأ، من خلال الكتابة إلى فريدريك كي تطلب منه المجيء.

فكرت روز أنه إذا كان من الممكن أن يتغير السيد ويلكنز، فلماذا لا يتغير فريدريك؟ كم سيكون هذا رائعًا، كم سيكون رائعًا للغاية، إذا أثَّر المكان فيه هو أيضًا، وتمكن من أن يجعلهما يفهمان بعضهما ولو قليلًا، وأن يصبحا صديقين، ولو بدرجة بسيطة. وقد أخذت شخصية روز تسترخي وتلين، إلى درجة بدأت معها تفكر في أن عنادها وتزمتها بشأن كتبه، واستغراقها الصارم في الأعمال الصالحة، كانت حماقة، وربما حتى خطأ منها. كان زوجها، وقد أخافته حتى ابتعد. أخافت الحب وأبعدته، الحب الثمين، وهذا لا يمكن أن يكون جيدًا. ألم تكن لوتي على حق عندما قالت في ذلك اليوم أن لا شيء على الإطلاق يهم سوى الحب؟ ومن المؤكد أن لا شيء يبدو ذا فائدة كبيرة، إلا إذا كان قائمًا على الحب. لكن ما إن يخاف ويبتعد، هل يمكن أن يعود مرة أخرى على الإطلاق؟ نعم، ربما يعود وسط هذا الجمال، ربما يعود وسط جو السعادة الذي بدا أن لوتي وسان سالفاتوري تنشرانه بينهما مثل عدوى إلهية.

ومع ذلك، كان عليها أن تأتي به إلى هنا أولًا، ومن المؤكد أنه لن يتمكن من المجيء، إذا لم تكتب إليه وتخبره بمكان وجودها.

ستكتب إليه. يجب أن تكتب إليه. لأنها إذا فعلت، ستكون هناك على الأقل فرصة لمجيئه، وإذا لم تفعل فمن الواضح أنه لا توجد فرصة لذلك. وبعد ذلك، بمجرد أن يصبح هنا وسط هذا الجمال، وكل شيء رقيق ولطيف وجميل في كل مكان، سيكون من الأسهل إخباره، ومحاولة التوضيح، وطلب شيء مختلف، أو على الأقل محاولة القيام بشيء مختلف في

حياتهما في المستقبل، بدلًا من فراغ الانفصال، والبرد - أوه، البرد - ولا شيء على الإطلاق سوى ريح الإيمان العظيمة، وكآبة الأعمال العظيمة. إن شخصًا واحدًا في العالم، شخصًا واحدًا ينتمي إلى المرء، خاصًّا به، كي يتحدث إليه ويعتني به ويحبه ويهتم به، يساوي أكثر من كل الخطب على المنابر، وأكثر من مجاملات كل رؤساء المجالس في العالم. كما كان يساوي أيضًا أكثر من - لم تكن لروز حيلة في الأمر، حيث طرأت لها الفكرة - كل الصلوات.

لم تكن هذه الأفكار أفكارًا ذهنية، مثل أفكار سكراب، التي كانت خالية تمامًا من الرغبات، بل أفكارًا قلبية، سكنت قلبها. كان قلب روز هو ما يتألم، ويشعر بالوحدة الشديدة. وعندما كانت تخونها شجاعتها، كما يحدث في معظم الأيام، ويبدو أنه من المستحيل الكتابة إلى فريدريك، كانت تنظر إلى السيد ويلكنز وتنتعش.

ها هو ذا وقد صار رجلًا مختلفًا. ها هو ذا يدخل تلك الغرفة الصغيرة غير المريحة كل ليلة، تلك الغرفة التي كان التقارب فيها هو مصدر قلق لوتي الوحيد، ويخرج منها في الصباح، وتخرج منها لوتي أيضًا، وكلاهما صافيان ولطيفان مع بعضهما كما كانا عندما دخلا. ألم يبدُ هو، الذي كان شديد الانتقاد في المنزل لأي خطأ يحدث مثلما أخبرتها لوتي، كما لو أنه خرج من كارثة الحمَّام تلك من دون أن تُمس روحه، مثلما خرج شدرخ وميشخ وعبدنغو من النار من دون أن تُمس أجسادهم؟ كانت المعجزات تحدث في هذا المكان. وإذا كان من الممكن أن يحدث ذلك للسيد ويلكنز، فلماذا لا يحدث لفريدريك؟

نهضت بسرعة. نعم، سوف تكتب إليه. ستذهب وتكتب إليه على الفور.

لكن لنفترض...

وقفت مكانها. نفترض أنه لم يرد. لنفترض أنه لم يرد حتى.

جلست مرة أخرى للتفكير فترة أطول بعض الشيء.

قضت روز معظم الأسبوع الثاني في هذا التردد.

ثم كانت هناك السيدة فيشر، التي زاد تململها في الأسبوع الثاني. وازداد الأمر إلى حد أنها ربما لم تعد في حاجة إلى أن تكون لديها غرفة جلوس خاصة بها على الإطلاق، لأنها لم تعد قادرة على الجلوس. لم تتمكن السيدة فيشر من الجلوس لمدة عشر دقائق متواصلة. وإلى جانب تململها هذا، مع مرور أيام الأسبوع الثاني، انتابها شعور غريب أثار قلقها، بارتفاع الحيوية والرغبة في معانقة الحياة. كانت تعرف ذلك الشعور، لأنه راودها أحيانًا إبان طفولتها، ولا سيما خلال فصل الربيع بحيويته، عندما كان يبدو أن زهور الليلك تسرع لتتفتح في ليلة واحدة، لكن كان من الغريب أن يعاودها ذلك الشعور مرة أخرى بعد أكثر من خمسين عامًا. كانت ترغب في الحديث عن ذلك الشعور مع شخص ما، لكنها أحست بالخجل، حيث بدا إحساسًا سخيفًا في سنها. ومع هذا، تزايد ذلك الإحساس، في كل يوم أكثر فأكثر، وراود السيدة فيشر شعور سخيف كما لو أنها على وشك أن تزهر.

حاولت بصرامة أن تكبت ذلك الإحساس غير اللائق. تزهر، حقًّا! سبق أن سمعت عن العصي الجافة، التي هي مجرد قطع من الخشب الميت، وهي تطرح أوراقًا جديدة فجأة، لكن ذلك كان في الأساطير فقط. ولم تكن هي داخل أسطورة. كانت تعرف تمامًا ما يليق بها، وكانت الكرامة تتطلب ألا تكون لها أي علاقة بالأوراق الجديدة في سنها. ومع ذلك، ها هو ذا موجود، ذلك الشعور بأنها في أي لحظة الآن، سرعان ما قد تتفجر بالخضرة.

شعرت السيدة فيشر بالاستياء. كان هناك كثير من الأشياء التي لا تعجبها، وكان أحدها هو عندما يتخيل كبار السن أنهم يشعرون بالشباب، ويتصرفون وفقًا لذلك. بالطبع كانوا يتخيلون ذلك فحسب، وكانوا يخدعون أنفسهم فقط، ولكن كم كانت النتائج مؤسفة. وقد تقدمت هي نفسها في السن، كما يجب أن يتقدم الناس في السن، بثبات وحزم، من دون أي شيء يعطل ذلك، ولا توهج متأخر، ولا عودة متقطعة. وإذا كانت

بعد كل هذه السنوات، ستخدع نفسها الآن بنوع من الانطلاق غير اللائق، كم سيكون ذلك مهينًا.

في الواقع، أحست بالامتنان في ذلك الأسبوع الثاني، لعدم وجود كيت لوملي هناك. سيكون من المزعج للغاية، إذا حدث أي تغيير في سلوكها، أن تشاهد كيت ذلك. لقد عرفتها كيت طوال حياتها، وشعرت بأنه يمكنها أن تطلق لنفسها العنان - وهنا عبست السيدة فيشر في مواجهة الكتاب الذي كانت تحاول عبثًا التركيز في قراءته، فمن أين أتى هذا التعبير؟ - على نحو أقل إيلامًا بكثير أمام الغرباء، بدلًا من أمام صديقة قديمة. فكرت السيدة فيشر، التي كانت تأمل أن تتمكن من القراءة، أن الأصدقاء القدامى يقارنون المرء باستمرار بما كان عليه من قبل. دائمًا ما يفعلون ذلك إذا تطور المرء، ويندهشون من التطور. يعودون بذاكرتهم إلى الماضي، ويتوقعون الجمود بعد سن الخمسين، على سبيل المثال، حتى نهاية أيام المرء.

فكرت السيدة فيشر، وعيناها تتحركان بثبات، سطرًا تلو سطر على الصفحة، من دون أن تدخل كلمة واحدة إلى وعيها، أن هذه حماقة من قِبل الأصدقاء. إنه يحكم على المرء بالموت المبكر. ينبغي للمرء أن يستمر في التطور (بكرامة بالطبع)، مهما بلغ عمره. لم يكن لديها مانع ضد التطور، ضد المزيد من النضج، لأنه من الواضح أن المرء ما دام على قيد الحياة، فلن يكون ميتًا، وقررت السيدة فيشر أن التطور والتغيير والنضج جوهر الحياة. ما ستكرهه هو عدم النضج، والعودة لتصير شيئًا أخضر. ستكره ذلك بشدة، وهذا هو ما شعرت بأنها على وشك القيام به.

وبطبيعة الحال، جعلها هذا الأمر تشعر بالقلق الشديد، ولم تجد إلهاءً إلا في الحركة المستمرة. تزايد تململها، ولم تعد قادرة على حصر وجودها في شرفاتها المُفرَّجة فقط، فتجولت أكثر فأكثر، وبلا هدف أيضًا، داخل وخارج الحديقة العلوية، مما زاد من دهشة سكراب، خصوصًا عندما وجدت أن كل

ما تفعله السيدة فيشر هو التحديق إلى المنظر لبضع دقائق، وقطف بعض الأوراق الميتة من شجيرات الورد، ثم الانصراف مرة أخرى.

وجدت راحة مؤقتة في الحديث مع السيد ويلكنز، لكن على الرغم من أنه كان ينضم إليها كلما استطاع ذلك، فإنه لم يكن موجودًا دائمًا، لأنه كان يوزع انتباهه بحكمة بين السيدات الثلاث، وعندما كان يوجد في مكان آخر، كان عليها أن تواجه أفكارها وتديرها بأفضل ما تستطيع بنفسها. ربما كان فائض الضوء والألوان في سان سالفاتوري هو الذي جعل كل الأماكن الأخرى تبدو مظلمة وسوداء، وقد بدا برينس أوف ويلز تيراس بالفعل مكانًا مظلمًا للغاية يجب العودة إليه... شارع مظلم وضيق، ومنزلها مظلم وضيق مثل الشارع، ولا يوجد فيه أي شيء حي بالفعل أو يتمتع بالشباب. ولا يمكن اعتبار أسماك الزينة سوى كائن حي بالكاد، أو على الأكثر مجرد كائن نصف حي، ومن المؤكد أنها لم تكن صغيرة. وفيما عدا السمك، لم يكن هناك سوى الخادمات، اللاتي كن مخلوقات عتيقة متربة.

مخلوقات عتيقة متربة. توقفت السيدة فيشر عن التفكير، وقد لفت انتباهها ذلك التعبير الغريب. من أين أتى؟ وكيف أمكنه أن يأتيها من الأساس؟ بدا كما لو أنه من تعبيرات السيدة ويلكنز تقريبًا، بخفته تلك، وهو يكاد يكون سوقيًّا. ربما كان أحد تعبيراتها بالفعل، سمعتها تنطقه، والتقطته منها من دون وعي.

إذا كان الأمر كذلك، فهو خطير ومثير للاشمئزاز. كان من المزعج للغاية أن تتغلغل تلك المخلوقة الحمقاء داخل عقل السيدة فيشر ذاته، وترسي شخصيتها هناك، تلك الشخصية التي كانت لا تزال غريبة جدًّا عن شخصية السيدة فيشر، وبعيدة كل البعد عما تفهمه وتحبه، على الرغم من الانسجام الموجود بينها وبين زوجها الذكي، وتصيبها بعباراتها غير المرغوب فيها. لم يحدث طوال حياتها من قبل، أن طرأت مثل هذه العبارة على ذهن السيدة فيشر. ولم يسبق لها قَطُّ طيلة حياتها أن فكرت في خادماتها، ولا

في أي أشخاص آخرين، بوصفهم مخلوقات عتيقة متربة. لم تكن خادماتها مخلوقات عتيقة متربة، بل كن نساء محترمات ومهندمات للغاية، سُمح لهن باستخدام الحمَّام كل ليلة سبت. تقدم بهن العمر، بالتأكيد، لكنها كانت كذلك هي أيضًا، وكذلك كان منزلها، وأثاثها، وأسماك زينتها. تقدم العمر بهم جميعًا معًا، كما يجب. لكن كان هناك فرق كبير بين أن يتقدم بك العمر، وأن تكون مخلوقًا عتيقًا متربًا.

كم بدا صحيحًا ما قاله راسكن، أن التواصل السيئ يفسد الأخلاق الحميدة. لكن هل قال راسكن ذلك؟ بعد إعادة التفكير، لم تكن متأكدة، لكنه بدا من نوعية الأشياء التي قد يتفوَّه بها، إذا قال ذلك، وعلى أي حال كان هذا صحيحًا. إن مجرد سماع عبارات السيدة ويلكنز الخبيثة في أثناء الوجبات - لم تكن تسمعها، بل وتجنبت الاستماع، ومع ذلك من الواضح أنها سمعت - تلك العبارات الخبيثة التي كثيرًا ما كانت مبتذلة وغير مهذبة ومدنسة في الوقت نفسه، والتي يؤسفها القول إن الليدي كارولين كانت تضحك لها، والتي لا بد أن تُصنف بوصفها محض شر، كانت تفسد أخلاقها الذهنية. وسرعان ما قد لا تفكر فيها فحسب، بل تتفوَّه بها أيضًا. كم سيكون ذلك فظيعًا. إذا كان ذلك هو الشكل الذي سيتخذه إطلاقها العنان لنفسها، في صورة الحديث غير اللائق، خشيت السيدة فيشر أنها لن تكون قادرة على تحمُّل ذلك بأي درجة من رباطة الجأش.

في هذه المرحلة، تمنت السيدة فيشر أكثر من أي وقت مضى أن تتمكن من التحدث عن مشاعرها الغريبة مع شخص يفهمها. ومع ذلك، لم يكن هناك أحد يستطيع أن يفهم سوى السيدة ويلكنز نفسها. يجب أن تفهم. كانت السيدة فيشر متأكدة أنها ستعرف على الفور ما تشعر به. لكن هذا كان مستحيلًا. سيكون ذلك أمرًا حقيرًا مثل استجداء الميكروب نفسه الذي يصيب الإنسان، للحماية من مرضه.

لذا واصلت تحمُّل أحاسيسها في صمت، ودفعها ذلك إلى الظهور

المتكرر بلا هدف في الحديقة العلوية، الأمر الذي سرعان ما أثار انتباه سكراب حتى.

لاحظت سكراب الأمر، وتساءلت عن ذلك على نحو مبهم بعض الوقت، حتى سألها السيد ويلكنز ذات صباح وهو يرتب لها وسائدها - حيث جعل المساعدة اليومية لليدي كارولين كي تستقر في كرسيها امتيازًا خاصًّا له - ما إذا كان هناك خطب ما بخصوص السيدة فيشر.

في تلك اللحظة، كانت السيدة فيشر واقفة عند الجانب الشرقي من الحاجز، تظلل عينيها وتتفحص بعناية المنازل البيضاء البعيدة في ميتزاجو، وكان في وسعهما رؤيتها من بين فروع الدفنة.

قالت سكراب:

- لا أدري.

قال السيد ويلكنز:

- أعتقد أنها سيدة من غير المرجح أن يكون لديها أي شيء يشغل ذهنها؟

ابتسمت سكراب قائلة:

- أعتقد ذلك.

- إذا كان لديها ما يشغلها، كما يبدو أن تململها يشير إلى ذلك، فسأكون سعيدًا جدًّا بمساعدتها بالمشورة.

- أنا متأكدة أنك ستكون لطيفًا للغاية.

- بالطبع لديها مستشارها القانوني الخاص، لكنه ليس موجودًا في الحال. إلا أنني أنا موجود.

وتابع السيد ويلكنز، الذي كان يحاول أن يجعل أحاديثه خفيفة عندما يكلم الليدي كارولين، مدركًا أنه يجب على المرء أن يكون خفيفًا مع الشابات:

- ومحامٍ موجود في الحال، يساوي اثنين... لن نكون اعتياديين ونكمل المثل، لكن لنقل في لندن.

- عليك أن تسألها.

- أسألها إذا كانت في حاجة إلى المساعدة؟ هل تنصحين بذلك؟ ألن يكون... من الحساس بعض الشيء أن نتطرق إلى مثل هذا السؤال، سؤال سيدة ما إذا كان هناك ما يشغل بالها؟

- ربما ستخبرك إذا ذهبت وتحدثت معها. أعتقد أنه لا بد أن يشعر المرء بالوحدة إذا كان مكان السيدة فيشر.

قال السيد ويلكنز، متمنيًا لأول مرة في حياته أن يكون أجنبيًّا حتى يتمكن من تقبيل يدها باحترام عند انسحابه ليذهب مطيعًا كي يخفف من وحدة السيدة فيشر:

- كم أنتِ مليئة بالاهتمام والمراعاة.

كان من المدهش ما ابتكرته سكراب للسيد ويلكنز من أساليب متنوعة للخروج من زاويتها. كانت تجد أسلوبًا جديدًا في كل صباح، يجعله يمضي في سرور بعد أن يرتب لها وسائدها. سمحت له بترتيب الوسائد لأنها اكتشفت على الفور، في الدقائق الخمس الأولى من المساء الأول، أن مخاوفها من أن يتشبث بها ويحدق إليها بإعجاب مريع لم يكن لها أساس من الصحة. لم يكن السيد ويلكنز يبدي إعجابه بهذه الطريقة. شعرت على نحو غريزي بأن الأمر لم يكن مجرد أن هذا ليس من طبعه فحسب، لكن حتى لو كان من طبعه، لم يكن ليجرؤ على ذلك في حالتها. كان فائق الاحترام، وكان يمكنها توجيه حركاته فيما يتعلق بها بطرفة من رمشها. كان همه الوحيد هو الطاعة. وكانت على استعداد لأن تحبه لو أنه التزم عدم الإعجاب بها، وقد أحبته بالفعل. لم تنسَ ضعفه المؤثر في أول صباح وهو بمنشفته، وكان يسليها، كما كان لطيفًا مع لوتي. صحيح أنها كانت تحبه أكثر عندما لا يكون موجودًا، لكنها عادة ما تحب الجميع أكثر عندما لا يكونون موجودين. ومن المؤكد أنه بدا كأنه واحد من هؤلاء الرجال، وهو أمر نادر في تجربتها، الذين لم ينظروا قَطُّ إلى المرأة من زاوية افتراسية. لقد كانت الراحة التي جلبها هذا الأمر، والبساطة التي أدخلها على علاقات المجموعة، هائلة. من وجهة النظر

هذه، كان السيد ويلكنز مثاليًّا بكل بساطة: كان فريدًا وثمينًا. كلما فكرت فيه، ومالت نوعًا ما إلى التركيز على جوانبه المملة بعض الشيء، تذكرت ذلك وتمتمت: «لكن يا له من كنز».

في الواقع، كان هدف السيد ويلكنز الوحيد في أثناء إقامته في سان سالفاتوري هو أن يكون كنزًا. يجب أن تحبه وتثق به السيدات الثلاث اللاتي لم يكن زوجاته، بأي ثمن. وبعد ذلك، عندما تنشأ مشكلة في حياتهن – ومن ذا الذي لا تنشأ في حياته مشكلة عاجلًا أم آجلًا؟ – فإنهن سيتذكرن مدى موثوقيته ومدى تعاطفه، وسيلجأن إليه للحصول على النصيحة. كانت السيدات اللاتي لديهن ما يشغل أذهانهن هو ما يريده تمامًا. رأى أن الليدي كارولين ليس لديها أي شيء في الوقت الحالي، لكن لا بد أن كل هذا القدر من الجمال – حيث لم يسعه إلا أن يرى ما بدا بوضوح – قد واجه الصعوبات في الماضي، وسيواجه مزيدًا منها قبل أن ينقضي. لم يكن متاحًا في الماضي، لكنه أمل أن يكون كذلك في المستقبل. وفي هذه الأثناء، بدا سلوك السيدة فيشر، التالية في الأهمية بين السيدات من الناحية المهنية، واعدًا للغاية. كان من شبه المؤكد أن السيدة فيشر لديها شيء ما يشغل ذهنها. انشغل بمراقبتها باهتمام، وبدا الأمر شبه مؤكد.

أما بالنسبة إلى الثالثة، السيدة أربوثنوت، فقد حقق معها أقل قدر من التقدم حتى الآن، حيث كانت منطوية وهادئة للغاية. لكن ألا يمكن أن يشير هذا الانطواء، وهذا الميل إلى تجنب الآخرين وقضاء وقتها بمفردها، إلى أنها كانت مضطربة أيضًا؟ إذا كان الأمر كذلك، فهو الرجل المناسب لها. سيصادقها، وسيتبعها ويجلس معها، ويشجعها أن تخبره عن نفسها. كان أربوثنوت، حسبما فهم من لوتي، أحد موظفي المتحف البريطاني، ولم يكن منصبًا ذا أهمية خاصة في الوقت الحالي، لكن السيد ويلكنز اعتبر أن معرفة جميع أشكال وأنواع البشر من مهامه. علاوة على ذلك، كان من الممكن أن يحظى بترقية. قد يصبح أربوثنوت، بعد ترقيته، ذا قيمة كبيرة للغاية.

أما لوتي فكانت ساحرة، وبدا أنها تمتلك حقًّا كل الصفات التي نسبها إليها في أثناء خطبتهما، والتي بدا أنها ظلت معطلة منذ ذلك الحين. وتأكدت انطباعاته المبكرة عنها الآن من خلال المودة وحتى الإعجاب اللذين أظهرتهما لها الليدي كارولين. كان على يقين أن الليدي كارولين ديستر هي آخر شخص يخطئ في مثل هذا الموضوع. لا بد أن معرفتها بالعالم واحتكاكها المستمر بالأفضل فقط جعلاها لا تخطئ تمامًا. من الواضح إذن أن لوتي كانت كما ظنها قبل الزواج: كانت ذات قيمة. ومن المؤكد أنها كانت ذات قيمة كبيرة في تعريفه بالليدي كارولين والسيدة فيشر. ويمكن للرجل في مهنته أن يستفيد كثيرًا من زوجة ذكية وجذابة. لماذا لم تكن جذابة من قبل؟ لماذا هذا الإزهار المفاجئ؟

بدأ السيد ويلكنز أيضًا يعتقد أن هناك شيئًا غريبًا في جو سان سالفاتوري، كما أبلغته لوتي على الفور تقريبًا. كان يشجع على تفتح الشخصية، ويخرج صفات المرء الكامنة. ومع شعوره بالسعادة المتزايدة، بل والافتتان، تجاه زوجته، والرضا الشديد عن التقدم الذي أحرزه مع الاثنتين الأخريين، والأمل في إحراز التقدم مع الثالثة المنطوية، لم يستطع السيد ويلكنز أن يتذكر أنه قضى مثل هذه العطلة الممتعة من قبل. الشيء الوحيد الذي كان يمكن تحسينه ربما، هو الطريقة التي ينادينه بها اسم السيد ويلكنز.

لم يكن أحد يقول السيد ميلرش ويلكنز. ومع ذلك فقد قدم نفسه لليدي كارولين - وجفل بعض الشيء عندما تذكر الظروف - باسم ميلرش ويلكنز.

ومع ذلك، كانت هذه مسألة صغيرة، ولا شيء يستدعي القلق. سيكون من الحماقة أن يشعر بالقلق بشأن أي شيء في مثل هذا المكان ومع هذه الصحبة. ولم يكن قلقًا حتى بشأن تكلفة العطلة، وقرر أن يدفع ليس فقط نفقاته الخاصة، بل نفقات زوجته أيضًا، وأن يفاجئها في النهاية بأن يقدم لها مدخراتها سليمة تمامًا، كما كانت في البداية، ومجرد معرفة أنه يُعِد لها مفاجأة سعيدة جعلته يشعر بالدفء تجاهها أكثر من أي وقت مضى.

وفي الحقيقة، فإن السيد ويلكنز، الذي التزم التصرف على أفضل نحو في البداية، بوعي ووفقًا لخطة سابقة، استمر على ذلك من دون وعي ومن دون أي جهد على الإطلاق.

وفي هذه الأثناء، أخذت الأيام الذهبية الجميلة تتساقط برقة من الأسبوع الثاني، واحدًا تلو واحد، وجمالها مساوٍ لجمال أيام الأسبوع الأول، ووصلت رائحة حقول الفاصوليا المزهرة على جانب التل خلف القرية إلى سان سالفاتوري كلما تحرك الهواء. وفي الحديقة في ذلك الأسبوع الثاني، اختفى النرجس الشاعري من بين الحشائش الطويلة على حافة الطريق المتعرج، وحلت محله زهور الجلاديولس البرية، النحيلة ذات اللون الوردي، وتفتحت زهور القرنفل البيضاء في الأحواض، وملأت المكان كله بأريجها الدخاني العذب، كما تفجرت شجيرة لم يلحظها أحد من قبل بالروعة والعطر: كانت شجيرة ليلك أرجوانية. لم يكن من الممكن أن يُصدق مثل هذا الخليط من الربيع والصيف، إلا أولئك الذين يسكنون بين تلك الحدائق. بدا أن كل الزهور أينعت معًا: تزاحمت في شهر واحد كل الأشياء التي توزعت على نحو هزيل في إنجلترا على مدى ستة أشهر. وحتى زهور الربيع عثرت عليها السيدة ويلكنز ذات يوم في ركن بارد أعلى التلال، وعندما جلبتها إلى زهور الجارونيا وزهور رقيب الشمس في سان سالفاتوري، بدت خجولًا للغاية.

١٧

في اليوم الأول من الأسبوع الثالث، كتبت روز إلى فريدريك.

وتحسبًا في حال ما إذا ترددت مرة أخرى ولم ترسل الرسالة، فقد أعطتها لدومينيكو ليرسلها، لأنها إذا لم تكتب الآن فلن يتبقى وقت أبدًا. فقد انتهى نصف الشهر في سان سالفاتوري، وحتى لو انطلق فريدريك في طريقه بمجرد أن يتسلم الرسالة، وهو ما لن يتمكن بالطبع من فعله، مع حزم الأمتعة وجواز السفر، بالإضافة إلى عدم استعجاله للحضور، فلن يتمكن من الوصول قبل خمسة أيام.

وبعد أن فعلت ذلك، تمنت روز لو أنها لم تفعل. لن يأتي، ولن يكلف نفسه عناء الرد. وإذا أجاب، فسيكون ذلك لمجرد إعطاء سبب غير صحيح، حول كونه مشغولًا للغاية إلى درجة أنه لا يستطيع الرحيل، وسيكون كل ما نالته من الكتابة إليه هو أنها ستصبح أكثر تعاسة من ذي قبل.

يا للأشياء التي يفعلها المرء حينما يكون خاملًا. إن إعادة إحياء فريدريك، أو بالأحرى هذه المحاولة لإعادة إحيائه، ماذا تكون، إن لم تكن مجرد نتيجة لعدم وجود أي شيء لتفعله؟ تمنت لو أنها لم تذهب في عطلة قَطُّ. ما الذي تريده من العطلات؟ كان العمل هو خلاصها. العمل هو الشيء الوحيد الذي يحمي الإنسان، ويبقيه ثابتًا، ويبقي قيمه صحيحة. في منزلها في هامبستيد، كانت مستغرقة ومنشغلة، وتمكنت من تجاوز أمر فريدريك، ولم تفكر فيه مؤخرًا إلا بتلك الكآبة الرقيقة التي يفكر بها المرء في شخص أحبه ذات

يوم، لكنه مات منذ زمن طويل. والآن أعادها هذا المكان، والخمول في هذا المكان الناعم، إلى الحالة البائسة التي خرجت منها بحرص شديد منذ سنوات. إذا جاء فريدريك، فستثير ضجره فحسب. ألم ترَ في لمح البصر بعد وقت قصير من وصولها إلى سان سالفاتوري أن هذا هو ما أبعده عنها حقًّا؟ ولماذا تفترض الآن، بعد هذه القطيعة الطويلة، أنها لن تكون قادرة على إثارة ضجره، وستتمكن من فعل أي شيء سوى الوقوف أمامه مثل أبله معقود اللسان، وقد ارتبكت روحها تمامًا؟ علاوة على ذلك، يا له من موقف ميؤوس منه، أن تضطر إلى التوسل، إن جاز التعبير: من فضلك انتظر قليلًا... من فضلك لا تكن نافد الصبر... أعتقد أنني قد لا أعود مملة عما قريب.

تمنت روز ألف مرة في اليوم، لو أنها تركت فريدريك وشأنه. أما لوتي، التي كانت تسألها كل مساء عما إذا كانت قد أرسلت رسالتها بعد، فقد هتفت بسعادة عندما أتى الرد أخيرًا بالإيجاب، وأحاطتها بذراعيها. صاحت لوتي المتحمسة:

- الآن سنكون سعداء تمامًا!

لكن لم يكن هناك ما يبدو أقل يقينًا بالنسبة إلى روز، وأصبح التعبير المرتسم على وجهها أكثر فأكثر تعبير شخص لديه ما يشغل ذهنه.

أراد السيد ويلكنز معرفة ماهية الأمر، فتجول في الشمس مرتديًا قبعة بنما خاصته، وبدأ يقابلها بالمصادفة.

قال السيد ويلكنز في المرة الأولى وهو يرفع قبعته بلطف:

- لم أكن أعلم أنك أيضًا تحبين هذا المكان بالذات.

ثم جلس بجانبها.

في فترة ما بعد الظهيرة اختارت مكانًا آخر، ولم يمضِ نصف الساعة حتى وصل السيد ويلكنز إلى تلك الزاوية وهو يهز عصاه بخفة.

قال السيد ويلكنز بلطف:

- من المقدر لنا أن نلتقي في نزهاتنا.

ثم جلس بجانبها.

كان السيد ويلكنز لطيفًا للغاية، ورأت أنها أساءت الحكم عليه في هامبستيد، وكانت هذه هي شخصيته الحقيقية، التي نضجت مثل الفاكهة تحت شمس سان سالفاتوري اللطيفة، لكن روز أرادت أن تظل بمفردها. ومع ذلك، كانت ممتنة له لأنه أثبت لها أنها على الرغم من أنها أثارت ضجر فريدريك، فإنها لا تضجر الجميع، حيث إنها لو فعلت، لما جلس يتحدث معها في كل مناسبة حتى يحين وقت الدخول. صحيح أنه أصابها بالملل، لكن ذلك لم يكن شيئًا مروعًا مثلما كان سيصير لو أنها هي التي تصيبه بالملل. في الواقع، كان غرورها سينزعج على نحو مؤسف حينها. فبعد أن لم تعد روز قادرة على تلاوة صلواتها الآن، هاجمتها كل صورة من صور الضعف: الغرور، والحساسية، وحدَّة المزاج، والميل إلى الشجار... شياطين غريبة وغير مألوفة تأتي وتتزاحم على المرء وتستحوذ على قلبه الخاوي الذي انجرف بعيدًا. لم تكن مغرورة أو حادة المزاج أو ميالة إلى الشجار في حياتها من قبل. هل يمكن أن تكون سان سالفاتوري قادرة على إحداث تأثيرات معاكسة، وأن الشمس نفسها التي أنضجت السيد ويلكنز جعلتها تحمض؟

في صباح اليوم التالي، ولكي تتأكد من أنها وحدها، نزلت، بينما كان السيد ويلكنز لا يزال يتلكأ بسعادة مع السيدة فيشر في أثناء تناول الإفطار، وتوجهت إلى الصخور بجوار حافة المياه حيث جلست هي ولوتي في اليوم الأول. لقد تلقَّى فريدريك رسالتها الآن. واليوم، إذا كان مثل السيد ويلكنز، فقد تتلقَّى منه برقية.

حاولت إسكات ذلك الأمل السخيف بالسخرية منه. ومع ذلك، إذا كان السيد ويلكنز قد أرسل برقية، فلماذا لا يرسل فريدريك واحدة؟ يبدو أن تعويذة سان سالفاتوري كانت كامنة حتى في ورق الرسائل. لم تكن لوتي تحلم بالحصول على برقية، وعندما جاءت في وقت الغداء وجدتها هناك.

سيكون أمرًا رائعًا جدًّا لو أنها عادت في وقت الغداء ووجدت واحدة لها أيضًا...

شبَّكت روز يديها بقوة حول ركبتيها. كم كانت تتوق بشدة إلى أن تصبح مهمة لدى شخص ما مرة أخرى... ليست مهمة فوق المنصات، ولا مهمة بوصفها أحد الأصول في منظمة ما، لكن مهمة بشكل خاص، لشخص واحد فقط، على نحو خاص تمامًا، ولا يعرفه أو يلاحظه أي شخص آخر. لم يبدُ أن ذلك طلب كبير، في عالم مزدحم تمامًا بالناس: أن يحصل المرء على واحد منهم فحسب، واحد فقط من بين كل الملايين، لنفسه. شخص يحتاج إلى المرء، ويفكر فيه، ويتوق إلى المجيء إليه... أوه، أوه كم يتوق المرء بشدة إلى أن يكون عزيزًا لدى أحدهم!

جلست طوال الصباح تحت شجرة الصنوبر بجانب البحر، ولم يقترب منها أحد. مرت الساعات الطويلة ببطء، وبدت هائلة. لكنها لن تصعد قبل الغداء، بل ستمنح البرقية وقتًا للوصول...

في ذلك اليوم، نهضت سكراب من كرسيها ووسائدها، بتشجيع من إقناع لوتي، واعتقدت أيضًا أنها ربما تكون قد أمضت ما يكفي من الوقت وهي جالسة، فانطلقت مع لوتي إلى التلال ومعهما الشطائر حتى المساء. وقد أراد السيد ويلكنز مرافقتهما، لكن بناءً على نصيحة الليدي كارولين، بقي مع السيدة فيشر كي يسلي وحدتها، وعلى الرغم من أنه توقف عن تسليتها في الساعة الحادية عشرة تقريبًا ليذهب للبحث عن السيدة أربوثنوت، كي يسليها هي أيضًا بعض الوقت، وهكذا يقسم وقته على نحو محايد بين هاتين السيدتين المنعزلتين، فإنه سرعان ما عاد وهو يمسح جبينه من العرق، وتابع مع السيدة فيشر حيث توقف، حيث اختبأت السيدة أربوثنوت هذه المرة بنجاح. كما كانت هناك أيضًا برقية لها، لاحظها عندما دخل. ومن المؤسف أنه لم يكن يعرف مكانها.

قال للسيدة فيشر:

- هل يجب أن نفتحها؟

قالت السيدة فيشر:

- لا.

- قد يتطلب الأمر إجابة.

- لا أوافق على العبث بمراسلات الآخرين.

- العبث! يا سيدتي العزيزة...

صُدم السيد ويلكنز. يا لها من كلمة. العبث. كان يكن تقديرًا كبيرًا للسيدة فيشر، لكنه وجدها صعبة إلى حدٍّ ما في بعض الأحيان. كان متأكدًا أنها تميل إليه، وشعر بأنه من المرجح أن تصير عميلة لديه، لكنه خشي أن تكون عميلة عنيدة وكتومًا. من المؤكد أنها كتوم، فعلى الرغم من أنه كان لبقًا ومتعاطفًا لمدة أسبوع كامل، فإنها لم تعطِه حتى الآن أي فكرة عما كان يقلقها بشكل واضح.

قالت لوتي عندما سألها إن كان في إمكانها تسليط الضوء على مشكلات السيدة فيشر:

- يا لها من عجوز مسكينة. إنها تفتقر إلى الحب.

لم يسع السيد ويلكنز إلا أن يردد، وهو يشعر بصدمة حقيقية:

- الحب؟ لكن بالتأكيد يا عزيزتي... في سنها...

قالت لوتي:

- أي حب.

وفي ذلك الصباح تحديدًا، سأل زوجته، لأنه بات يطلب رأيها ويحترمه الآن، إذا كان في إمكانها أن تخبره ما خطب السيدة أربوثنوت، لأنها أيضًا ظلت منعزلة على الدوام، على الرغم من أنه بذل قصارى جهده لإقناعها بالكشف عن أسرارها.

قالت لوتي:

- إنها تريد زوجها.

قال السيد ويلكنز:

- آه.

فها قد أُلقي ضوء جديد على حزن السيدة أربوثنوت الخجول والمتواضع. ثم أضاف قائلًا:

- هذا لائق للغاية.

وابتسمت لوتي قائلة له:

- إن المرء يريد ذلك.

فقال السيد ويلكنز وهو يبتسم لها:

- أيريد ذلك بالفعل؟

فقالت لوتي وهي تبتسم له:

- بالطبع.

سعد بها السيد ويلكنز كثيرًا، وعلى الرغم من أن الوقت كان لا يزال مبكرًا جدًّا في اليوم، وهو الوقت الذي تكون فيه المداعبات قليلة، فقد قرص أذنها.

قبل الساعة الثانية عشرة والنصف بقليل، جاءت روز على مهل عبر العريشة وبين أشجار الكاميليا المتراصة على جانبَي الدرجات الحجرية العتيقة. اختفت زهور الوينكا التي تدفقت عبر الدرجات الحجرية عند بداية وصولها، وظهرت الآن هذه الشجيرات المزهرة على نحو لا يُصدق. زهور وردية، وبيضاء، وحمراء، ومخططة... لمستها وشمتها واحدة تلو واحدة، حتى لا تصل وتصاب بخيبة الأمل سريعًا. ما دامت لم ترَ بنفسها، لم ترَ الطاولة في الردهة خالية تمامًا باستثناء وعاء الزهور، فلا يزال في إمكانها أن تتمنى، ولا يزال في إمكانها الاستمتاع بتخيل البرقية الموجودة عليها في انتظارها. لكن لم تكن هناك رائحة لزهور الكاميليا، كما ذكرها السيد ويلكنز، الذي وقف عند المدخل في انتظارها، والذي كان يعرف ما هو ضروري في مجال البستنة.

فوجئت من صوته، ورفعت نظرها إلى الأعلى.

قال السيد ويلكنز:

- لقد وصلت برقية لك.

حدقت إليه فاغرة فاها.

- لقد بحثت عنك في كل مكان، ولكنني فشلت...

بالطبع، كانت تعرف ذلك. كانت متأكدة من ذلك طوال الوقت. ومض الشباب داخل روز مرة أخرى في تلك اللحظة، مشرقًا وحارقًا. طارت فوق السلالم، وقد تخضبت بمثل حمرة الكاميليا التي كانت تداعبها للتو، وصارت داخل الردهة وهي تمزق البرقية لتفتحها، من قبل أن ينتهي السيد ويلكنز من التفوُّه بعبارته. لكن إذا كان من الممكن أن تسير الأمور على هذا النحو... لم يكن هناك حد لـ... هي وفريدريك... فسيصبحان... مرة أخرى... أخيرًا...

قال السيد ويلكنز، الذي كان قد تبعها:

مكتبة سُر مَن قرأ

- لا توجد أخبار سيئة، على ما أعتقد؟

حيث إنها عندما قرأت البرقية، وقفت تحدق إليها، وشحب وجهها ببطء. بدا من الغريب رؤية كيف شحب وجهها ببطء.

التفتت ونظرت إلى السيد ويلكنز، كما لو أنها تحاول أن تتذكره.

- أوه، لا. على العكس تمامًا...

تمكنت من الابتسام، وقالت وهي تمد يدها بالبرقية:

- سيكون لديَّ زائر.

وعندما تناولها منها، ابتعدت ذاهبة نحو غرفة الطعام، وهي تتمتم بشيء عن كون الغداء جاهزًا.

قرأ السيد ويلكنز البرقية، التي أُرسلت في ذلك الصباح من ميتزاجو، وكُتب فيها:

> أنا مارٌّ في طريقي إلى روما. هل يمكنني إلقاء التحية بعد ظهر هذا اليوم؟
>
> توماس بريجز

لماذا تجعل مثل هذه البرقية السيدة المثيرة للاهتمام تُصاب بالشحوب؟ حيث كان شحوبها في أثناء القراءة لافتًا للنظر إلى درجة أنها أقنعت السيد ويلكنز بأنها تلقَّت ضربة.

سأل وهو يتبعها إلى غرفة الطعام:

– من توماس بريجز؟

نظرت إليه بشرود، وكررت قائلة وهي تجمع شتات أفكارها مرة أخرى:

– مَن؟

– توماس بريجز.

– أوه. نعم. إنه المالك. هذا هو منزله. إنه لطيف جدًّا. سيأتي عصر اليوم.

كان توماس بريجز قادمًا في تلك اللحظة بالتحديد. كان يسرع في عربة عبر الطريق بين ميتزاجو وكاستانييتو، وهو يأمل مخلصًا أن تدرك السيدة ذات العينين الداكنتين أن كل ما يريده هو رؤيتها، وليس على الإطلاق معرفة ما إذا كان منزله لا يزال هناك. شعر بأن المالك الذي يتمتع باللياقة يجب ألا يتطفل على المستأجر، إلا أنه انشغل كثيرًا بالتفكير فيها منذ ذلك اليوم. روز أربوثنوت، يا له من اسم جميل. ويا لها من مخلوقة جميلة، لطيفة ووديعة وأمومية على أفضل نحو، وكان أفضل ما في الأمر هو أنها لم تكن أمه، ولم يكن من الممكن أن تصبح كذلك لو حاولت، لأنه من المستحيل أن يكون للمرء والدان أصغر منه.

علاوة على ذلك، كان سيمر بالقرب من المكان، وبدا من الغريب ألا يقوم بزيارة سريعة فحسب ليرى ما إذا كانت مرتاحة. كان يتوق إلى رؤيتها في منزله، ويتوق إلى رؤيته كخلفية لها، وأن يراها جالسة فوق مقاعده، تشرب من أكوابه، وتستخدم كل أغراضه. هل كانت تضع الوسادة القرمزية الكبيرة المطرزة في غرفة الاستقبال خلف رأسها الصغير ذي الشعر الداكن؟ سيبدو شعرها وبياض بشرتها جميلين أمام

الوسادة. هل رأت اللوحة التي تشبهها على الدرج؟ تساءل عما إذا كانت قد أعجبتها. سيشرح لها اللوحة، وإذا لم تكن ترسم، حيث لم تقل شيئًا يوحي بذلك، فربما لن تلاحظ مدى دقة تشكيل الحاجبين، والخد الغائر على نحو طفيف...

طلب من العربة الانتظار في كاستانييتو، وعبر الساحة، فحيَّاه الأطفال والكلاب الذين يعرفونه جميعًا بعد أن وثبوا فجأة من الفراغ. سار بسرعة عبر الطريق المتعرج، لأنه كان شابًّا نشيطًا لم يتجاوز الثلاثين من عمره بكثير، وجذب السلسلة العتيقة التي قرعت الجرس، وانتظر بلباقة على الجانب اللائق من الباب المفتوح حتى يُسمح له بالدخول.

عند رؤيته، رفعت فرانشيسكا كل جزء من جسدها يمكنها أن ترفعه: حاجبيها وجفنيها ويديها، وثرثرت مؤكدة له أن كل شيء يسير على ما يرام وأنها تقوم بواجبها.

قاطعها بريجز قائلًا:

- بالطبع، بالطبع، لا أحد يشك في ذلك.

ثم طلب منها أن تأخذ بطاقته إلى سيدتها.

سألت فرانشيسكا:

- أي سيدة؟

- أي سيدة؟!

قالت فرانشيسكا، وهي تشتم وجود مخالفة من جانب المستأجرين، لأن سيدها بدا متفاجئًا:

- هناك أربع.

وشعرت بالسعادة، لأن الحياة كانت مملة، والمخالفات تساعدها على الاستمرار ولو قليلًا.

كرر متفاجئًا:

- أربع؟!

ثم تمالك نفسه بعد أن لاحظ تعبيرات وجهها، وقال:
- حسنًا، خُذيها إلى المجموعة بأكملها.

قُدمت القهوة في الحديقة العلوية تحت ظل شجرة الصنوبر. لكن كانت السيدة فيشر والسيد ويلكنز فقط هما من يتناولانها، لأن السيدة أربوثنوت، بعد أن لم تأكل شيئًا، والتزمت الصمت التام في أثناء الغداء، اختفت بعد ذلك مباشرة.

وبينما توجهت فرانشيسكا إلى الحديقة حاملة بطاقته، وقف سيدها يتفحص لوحة السيدة العذراء المعلقة على الدرج، التي رسمها رسَّام إيطالي قديم مجهول الاسم، واشتراها هو في أورفييتو، والتي تشبه مستأجرة منزله إلى حدٍّ كبير. كان غريبًا حقًّا، ذلك الشبه. وبالطبع كانت المستأجرة ترتدي قبعتها في ذلك اليوم في لندن، لكنه كان متأكدًا تمامًا أن شعرها ينمو على ذلك النحو بالضبط فوق جبهتها. كما كان تعبير العينين الجاد والعذب، هو نفسه. سعد عند التفكير بأنه ستكون لديه صورتها على الدوام.

رفع نظره عندما سمع وقع خطوات، فوجدها تنزل الدرج كما تخيلها تمامًا في ذلك المكان، مرتدية ملابس بيضاء.

اندهشت لرؤيته بمثل هذه السرعة، حيث افترضت أنه سيأتي في وقت تناول الشاي تقريبًا، وحتى ذلك الحين كانت تنوي الجلوس في مكان ما خارج المنزل حيث يمكنها أن تكون بمفردها.

راقبها وهي تنزل على الدرج باهتمام شديد. بعد لحظة، ستكون على مستوى صورتها.

قال بريجز:
- إنه حقًّا أمر غير عادي.

قالت روز، عازمة فقط على إظهار الترحيب اللائق:
- كيف حالك؟

لكنها لم ترحب بوجوده. شعرت، ومرارة البرقية لا تزال في قلبها،

بأنه هنا بدلًا من فريدريك، يفعل ما كانت تتوق إلى أن يفعله فريدريك، ويحل محله.

- فلتقفي ساكنة للحظة فحسب.

أطاعته تلقائيًا.

- نعم... هذا مذهل للغاية. هل تمانعين في خلع قبعتك؟

اندهشت روز، وخلعتها بطاعة.

- نعم... ظننت ذلك... أردت التأكد فحسب. وانظري... هل لاحظتِ...

وبدأ يمرر يده في حركات سريعة وغريبة على الوجه في اللوحة، ويقيسه، وينقِّل نظره بينهما.

تحولت دهشة روز إلى شعور بالتسلية، ولم يسعها إلا أن تبتسم. سألته:

- هل أتيت لتقارنني بنسختي الأصلية؟

- هل ترين مدى التشابه بشكل غير عادي...

- لم أكن أعلم أنني أبدو جادة إلى هذا الحد.

- إنك لا تبدين كذلك، ليس الآن. لكنك كنت منذ لحظة، على نفس القدر من الجدية تقريبًا. أوه، نعم... كيف حالك؟

أنهى حديثه فجأة بعد أن لاحظ يدها الممدودة، وضحك وهو يصافحها، وتخضب وجهه - وهي حيلة يتميز بها - حتى جذور شعره الأشقر.

عادت فرانشيسكا، وقالت:

- ستسعد السيدة فيشر بمقابلتك.

سأل روز:

- من تكون السيدة فيشر؟

- واحدة من الأربع اللاتي يتشاركن في منزلك.

- هناك أربع منكن إذن؟

- نعم. لقد وجدت أنا وصديقتي أننا لا نستطيع تحمُّل تكاليف ذلك بمفردنا.

شرع بريجز قائلًا في حالة من الارتباك:

- أوه، عليَّ القول...

لأنه كان يود لو أن روز أربوثنوت - يا له من اسم جميل - لم تضطر إلى تحمُّل تكاليف أي شيء، بل أن تبقى في سان سالفاتوري قدر ما تشاء، بوصفها ضيفته.

قالت روز:

- السيدة فيشر تتناول القهوة في الحديقة العلوية، سوف آخذك إليها وأقدمك لها.

- لا أريد الذهاب. لقد ارتديتِ قبعتك، لذا كنت ذاهبة للتمشية. ألا أستطيع أن آتي أيضًا؟ أود بشدة أن تصطحبيني في جولة بالمكان.

- لكن السيدة فيشر في انتظارك.

- ألن تبقى؟

قالت روز، بتلك الابتسامة التي جذبته بشدة في ذلك اليوم الأول:

- بلى، أعتقد أنها ستبقى في أفضل حال حتى يحين موعد الشاي.

- هل تتكلمين الإيطالية؟

قالت روز:

- لا، لماذا؟

عندها التفت إلى فرانشيسكا، وحدثها بسرعة كبيرة، حيث كان طليقًا في الحديث باللغة الإيطالية، وطلب منها أن تعود إلى السيدة في الحديقة العلوية، وتخبرها بأنه التقى صديقته القديمة السيدة أربوثنوت، وأنه سيذهب للتمشية معها، وسيقدم نفسه لها لاحقًا.

سأل روز عقب انصراف فرانشيسكا:

- هل تدعينني إلى تناول الشاي؟

- بالطبع، إنه منزلك.

- إنه ليس كذلك، بل هو منزلك أنتِ.

ابتسمت قائلة:

- حتى يوم الاثنين من الأسبوع المقبل.

قال بحماس:

- تعالي وأريني كل المناظر.

وبدا من الواضح، حتى بالنسبة إلى روز التي تستخف بنفسها، أنها لا تثير ضجر السيد بريجز.

١٨

استمتعا بنزهة رائعة للغاية، وجلسا كثيرًا في الأركان الدافئة التي تعبق برائحة الزعتر، وإذا كان هناك ما يمكن أن يساعد روز على التعافي من خيبة الأمل المريرة التي لحقت بها في الصباح، فقد كان ذلك الشيء هو رفقة السيد بريجز. ساعدها على التعافي، وحدث نفس ما مرت به لوتي مع زوجها: كلما اعتقد السيد بريجز أن روز فاتنة، ازدادت فتنة.

كان بريجز رجلًا غير قادر على إخفاء شيء، ولا يضيع الوقت أبدًا إذا كان في وسعه ذلك. لم يصلا إلى نهاية الرأس البحري حيث توجد المنارة - حيث طلب منها بريجز أن تريه المنارة، لأنه يعلم أن الطريق المؤدي إليها كان واسعًا بما يكفي ليسير فيه شخصان جنبًا إلى جنب، ومستويًا إلى حدٍّ ما - قبل أن يخبرها بالانطباع الذي تركته لديه في لندن.

وبما أن حتى أكثر النساء تدينًا ورصانة يحببن أن يعرفن أنهن قد تركن انطباعًا، ولا سيما ذلك النوع الذي لا علاقة له بالشخصية أو المزايا، فقد أحست روز بالسعادة. ونظرًا إلى سعادتها، ابتسمت، وعندما ابتسمت صارت أكثر جاذبية من أي وقت مضى. توردت وجنتاها، وتألقت عيناها. سمعت نفسها تتفوَّه بأشياء بدت مثيرة جدًّا للاهتمام، بل وحتى مسلية. فكرت، لو كان فريدريك يستمع الآن، ربما سيرى أنها لا يمكن أن تكون مملة على نحو بائس إلى ذلك الحد في نهاية المطاف، فها هو ذا رجل وسيم المظهر، شاب، وذكي بالتأكيد - بدا ذكيًّا، وكانت تأمل أن يكون كذلك، إذ سيكون

الإطراء أكبر حينها - كان من الواضح أنه سعيد جدًّا بقضاء فترة ما بعد الظهيرة في التحدث معها.

وبالفعل، بدا السيد بريجز مهتمًّا للغاية، وأراد أن يسمع كل شيء عن كل ما فعلته منذ لحظة وصولها إلى هناك. سألها إذا كانت قد رأت هذا وذاك، أو شيئًا آخر في المنزل، وما الذي أعجبها أكثر، وأي غرفة أخذتها، وما إذا كانت تشعر بالارتياح، وما إذا كانت فرانشيسكا تحسن التصرف، وما إذا كان دومينيكو يتولى العناية بها، وما إذا كانت تستمتع بغرفة الجلوس الصفراء، تلك التي تستقبل كل أشعة الشمس وتطل على جنوة.

خجلت روز من ضآلة مقدار ما لاحظته في المنزل، وقلة الأشياء التي شاهدتها من بين ما تحدث عنه بوصفه غريبًا أو جميلًا. غرقت في التفكير في فريدريك، حتى بدا أنها عاشت في سان سالفاتوري وهي عمياء، إلى أن انقضى أكثر من نصف الوقت، وما الفائدة التي جنتها من ذلك؟ كان الأمر كما لو أنها بقيت في هامبستيد هيث، يغلبها الشوق. لا، لم يكن الأمر كذلك، ففي خضم كل أشواقها، أدركت أنها على الأقل في قلب الجمال نفسه، وفي الواقع كان هذا الجمال، وهذا الحنين إلى مشاركته، هو أول ما دفعها إلى ذلك الاشتياق.

مع ذلك، كان السيد بريجز أكثر حيوية من أن تتمكن من تخصيص أي جزء من اهتمامها لفريدريك في هذه اللحظة، وأجابت عن أسئلته بأن أثنت على الخدم، وأثنت على غرفة الجلوس الصفراء من دون أن تخبره بأنها لم تدخلها إلا مرة واحدة، طُردت بعدها على نحو مُخزٍ، وأخبرته بأنها لا تعرف شيئًا تقريبًا عن الفن والتُّحف النادرة، لكنها اعتقدت أنه ربما إذا أخبرها شخص ما عنها فسوف تعرف المزيد، وقالت إنها قضت كل يوم منذ وصولها خارج المنزل، لأن الخارج كان رائعًا للغاية ومختلفًا عن أي شيء رأته على الإطلاق.

مشى بريجز بجانبها عبر طرقاته، التي كانت لا تزال من حسن الحظ ملكًا

لها في تلك اللحظة، وشعر بكل الوهج البريء للحياة العائلية. كان يتيمًا، كما كان طفلًا وحيدًا، وكان يتصف بطبيعة أسرية دافئة. كان سيحب شقيقته، ويدلل والدته، وبدأ في ذلك الوقت التفكير في الزواج، فعلى الرغم من أنه كان سعيدًا للغاية مع حبيباته المختلفات، واللاتي تحوَّلت كل واحدة منهن في نهاية المطاف، على عكس التجارب الشائعة، إلى صديقة مخلصة، فإنه كان مولعًا بالأطفال، وظن أنه ربما وصل الآن إلى السن المناسبة للاستقرار، إذا لم يرغب في أن يكون أكبر مما ينبغي في السن عندما يبلغ ابنه الأكبر سن العشرين. بدت سان سالفاتوري بائسة بعض الشيء مؤخرًا، وتخيل سماع الصدى يتردد وهو يتجول في أرجاء المكان. شعر بأنه وحيد هناك، وحيد للغاية، إلى درجة أنه فضل أن يفوِّت الربيع هذا العام، ويؤجر المكان. كان المكان في حاجة إلى وجود زوجة به. كان في حاجة إلى تلك اللمسة الأخيرة من الدفء والجمال، حيث لم يفكر في زوجته قَطُّ، إلا في سياق الدفء والجمال، وستكون جميلة ولطيفة بالطبع. وجد من المسلي مدى حبه لزوجته الغامضة هذه بالفعل.

تطورت صداقته بسرعة مع السيدة ذات الاسم الجميل، بينما كان يسير عبر الطريق المؤدي إلى المنارة، إلى درجة أنه بات متأكدًا أنه سرعان ما سيخبرها بكل شيء عن نفسه وعن أفعاله الماضية وآماله المستقبلية، ودفعته فكرة هذه الثقة التي تطورت سريعًا إلى الضحك.

نظرت إليه وهي تبتسم، وسألته:

- لماذا تضحك؟

قال:

- الأمر شبيه للغاية بالعودة إلى المنزل.

- لكن مجيئك هنا يعني العودة إلى المنزل بالفعل بالنسبة إليك.

- أعني أنه شبيه بالعودة إلى المنزل حقًّا، إلى... إلى عائلة المرء. لم تكن لديَّ عائلة قَطُّ، فأنا يتيم.

قالت روز بالتعاطف المناسب:

- أوه، هل أنت كذلك بالفعل؟ آمل ألا يكون ذلك منذ مدة طويلة. لا، بل أعني أنني آمل أن ذلك كان منذ مدة طويلة. لا... لا أعرف ما أعنيه، سوى أنني آسفة لذلك.

ضحك مرة أخرى.

- أوه، لقد اعتدت ذلك. ليس لديَّ أحد، لا شقيقات أو أشقاء.

قالت بذكاء:

- أنت ابن وحيد إذن.

- نعم، وهناك شيء ما فيك، يتوافق تمامًا مع فكرتي عن... عن العائلة. وجدت الأمر مسليًا.

نظر إليها باحثًا عن الكلمة، وقال:

- دافئة للغاية.

قالت:

- لن تعتقد ذلك إذا رأيت منزلي في هامبستيد.

وظهرت في ذهنها صورة لذلك السكن المتقشف ذي المقاعد الصلبة، من دون أن يكون فيه أي شيء وثير باستثناء أريكة مدام دو باري المنبوذة والمهملة تلك. فكرت وقد صفا ذهنها لحظة أنه لا عجب أن فريدريك تجنب ذلك، حيث لم يكن هناك أي شيء دافئ فيما يتعلق بعائلته.

قال:

- لا أعتقد أن أي مكان تعيشين فيه يمكن أن يكون أي شيء إلا مثلك تمامًا.

- هل ستدعي بأن سان سالفاتوري مثلي؟

- في الواقع، أنا أدعي ذلك بالفعل. بالتأكيد تعترفين بأنها جميلة؟

قال عدة أشياء من ذلك القبيل، واستمتعت بنزهتها. لم تستطع أن تتذكر أي نزهة ممتعة إلى هذا الحد منذ أيام خطبتها.

عادت لتناول الشاي، وأحضرت معها السيد بريجز، ولاحظ السيد ويلكنز أنها تبدو مختلفة تمامًا عما كانت تبدو عليه حتى ذلك الحين. فكر السيد ويلكنز: «ستثور مشكلات هنا»، وفرك يديه في ذهنه على نحو مهني. تخيل أنه سرعان ما سيُستدعى لتقديم المشورة. من ناحية كان هناك أربوثنوت، ومن ناحية أخرى كان بريجز هنا. ها هي ذي المشكلات تتخلق، وستثور عاجلًا أم آجلًا. لكن لماذا كان تأثير برقية بريجز في السيدة بمنزلة ضربة؟ إذا شحبت من فرط الفرحة، فهذا يعني أن المشكلات أقرب إذن مما كان يعتقد. لم تعد شاحبة الآن، بل باتت أشبه باسمها أكثر من أي وقت شاهدها فيه من قبل. حسنًا، كان هو الرجل المناسب للتعامل مع المشكلات. كان يؤسفه بالطبع أن يتورط الناس فيها، لكن بعد أن يتورطوا، كان هو الرجل المناسب لهم.

انتعش السيد ويلكنز من هذه الأفكار، نظرًا إلى أن حياته المهنية كانت ثمينة للغاية بالنسبة إليه، ثم شرع في الترحيب بالسيد بريجز، سواء بوصفه شريكًا في الملكية المؤقتة لسان سالفاتوري، أم مساعدًا محتملًا للخروج من المصاعب، وبكثير من كرم الضيافة، أشار له إلى مميزات المكان المختلفة، ثم قاده إلى الحاجز ليريه ميتزاجو عبر الخليج.

كما كانت السيدة فيشر أيضًا لطيفة. كان هذا منزل هذا الشاب، أي أنه من أصحاب الأملاك. وكانت هي تحب الأملاك، والرجال من أصحاب الأملاك. كما بدا أيضًا أن هناك ميزة غريبة في كونك رجلًا من أصحاب الأملاك في سن مبكرة جدًّا. كان ميراثًا بالطبع، والميراث أكثر احترامًا من الشراء، حيث يدل على وجود الآباء، وفي عصر يبدو فيه أن معظم الناس يفتقدون وجود الآباء أو لا يريدونهم، أحبت ذلك أيضًا.

وبناءً على ذلك، كانت وجبة ممتعة، وكان الجميع ودودين وسعداء. اعتقد بريجز أن السيدة فيشر عجوز لطيفة، وأظهر أنه يعتقد ذلك، فنجح السحر مرة أخرى، وصارت عجوزًا لطيفة. ونما لديها معه نوع من اللطف،

يكاد يكون مرحًا، وفي الواقع قبل أن ينتهوا من تناول الشاي، قالت له في ملاحظة ذكرتها له: «يا ولدي العزيز».

كانت هذه الكلمات غريبة في فم السيدة فيشر، وهناك شك فيما إذا كانت قد استخدمتها من قبل في حياتها. اندهشت روز. كم كان الناس لطيفين حقًّا. متى ستتوقف عن ارتكاب الأخطاء بشأنهم؟ لم تدرِ بوجود هذا الجانب من السيدة فيشر، وبدأت تتساءل عما إذا كان من المحتمل أن تكون تلك الجوانب الأخرى التي عرفتها بنفسها ناتجة عن سلوك روز المزعج والميال إلى النزاع. كانت كذلك بالفعل على الأرجح. لا بد أن سلوكها كان فظيعًا للغاية إذن. شعرت بالندم الشديد عندما رأت السيدة فيشر تزدهر تحت عينيها في ود حقيقي، في اللحظة التي أتى فيها شخص عاملها بلطف، وكان يمكن أن تبتلعها الأرض من فرط الشعور بالخزي، عندما ضحكت السيدة فيشر بعد قليل، وأدركت من خلال الشعور بالصدمة الذي سببه لها ذلك الأمر، أن الصوت جديد تمامًا. لم يسبق لها أو لأي شخص آخر أن سمع السيدة فيشر تضحك. يا لها من إدانة لهم جميعًا! حيث إنهم ضحكوا جميعًا، بعضهم بدرجة أكبر، وبعضهم أقل، في وقت أو آخر منذ وصولهم، إلا أن السيدة فيشر وحدها لم تفعل ذلك قَطُّ. وبما أنها تعرف كيف تستمتع بنفسها، كما كانت تستمتع بنفسها الآن، فمن الواضح أنها لم تستمتع بنفسها من قبل. لم يهتم أحد بما إذا كانت فعلت ذلك أم لا، ربما باستثناء لوتي. أجل، لقد اهتمت لوتي بها وأرادت لها أن تكون سعيدة، لكن يبدو أن لوتي كان لها تأثير سيئ في السيدة فيشر. أما بالنسبة إلى روز نفسها فلم تقضِ معها خمس دقائق من دون أن ترغب، بل ترغب حقًّا، في استفزازها ومعارضتها.

كم كانت فظيعة للغاية. لقد تصرفت بشكل لا يغتفر. وظهر ندمها في صورة اهتمام خجول ومراعاة تجاه السيدة فيشر، مما جعل بريجز الذي يتمتع بقوة الملاحظة يعتقد أنها أكثر ملائكية حتى، وتمنى للحظة أن يكون

هو نفسه سيدة عجوزًا حتى تتصرف معه روز أربوثنوت بهذه الطريقة. فكر أنه من الواضح أنه لا توجد حدود للأشياء التي يمكنها فعلها بلطف. حتى إنه لن يمانع في تناول الدواء، دواء سيئ حقًّا، لو كانت روز أربوثنوت تنحني فوقه لتناوله الجرعة.

شعرت بعينيه الزرقاوين اللامعتين، اللتين كانتا أكثر إشراقًا لأنه كان مصابًا بحروق الشمس، وقد ثبتت نظرتهما عليها وبهما وميض، فابتسمت وسألته عما يفكر فيه.

لكنه قال إنه لا يستطيع إخبارها بذلك حقًّا، ثم أضاف:

- يومًا ما.

عندها، فكر السيد ويلكنز، وهو يفرك يديه، في ذهنه مرة أخرى: «مشكلات، مشكلات. حسنًا، أنا الرجل المناسب لهما».

قالت السيدة فيشر بلطف:

- أنا متأكدة أنه ليست لديك أي أفكار لا يمكننا سماعها.

قال بريجز:

- أنا متأكد أنني سأخبرك بكل أسراري خلال أسبوع.

قالت السيدة فيشر بلطف:

- سوف تخبر شخصًا آمنًا جدًّا إذن.

تمنت لو أن لها ابنًا كهذا. واصلت قائلة:

- وفي المقابل، أعتقد أنني سأخبرك بأسراري.

قال السيد ويلكنز وهو يتبنى نبرة المزاح اللطيف هذا:

- آه، لا، لا بد أن أحتج. لا بد لي من ذلك حقًّا. لديَّ أحقية سابقة في هذا، لأنني الصديق الأقدم. لقد عرفت السيدة فيشر منذ عشرة أيام، بينما أنت يا بريجز لم تعرفها يومًا واحدًا بعد. أؤكد حقي في أن تخبرني بأسرارها أولًا.

ثم انحنى بشهامة وأضاف قائلًا:

- هذا في حال ما إذا كانت لديها أي أسرار، وهو الأمر الذي أشك فيه.

فكرت السيدة فيشر في تلك الأوراق الخضراء، وهتفت قائلة:

- أوه، بل لديَّ!

كان من المدهش أن تهتف على الإطلاق، لكن أن تفعل ذلك بمرح كان بمنزلة معجزة. لم يسع روز إلا أن تراقبها بتعجب.

قال بريجز بنفس القدر من المرح:

- سأستخلصها منك إذن.

قالت السيدة فيشر:

- لن تحتاج إلى كثير من الجهد لاستخلاصها، حيث إن الصعوبة التي أواجهها هي منعها من أن تنفجر خارجة.

بدا كما لو أن لوتي هي التي تتحدث. عدل السيد ويلكنز من وضع النظارة المفردة التي يحملها معه لمثل هذه المناسبات، وتفحص السيدة فيشر بعناية. نظرت إليها روز وهي غير قادرة على منع ابتسامتها هي أيضًا، نظرًا إلى أن السيدة فيشر بدت مستمتعة للغاية، على الرغم من أن روز لم تكن تعرف السبب تمامًا، وكانت ابتسامتها مترددة بعض الشيء، لأن منظر السيدة فيشر وهي مستمتعة كان جديدًا، لا يخلو من جوانبه المذهلة، وكان لا بد من اعتياده.

ما كانت تفكر فيه السيدة فيشر هو مدى الدهشة التي سيشعرون بها إذا أخبرتهم بإحساسها الغريب والمثير للغاية بأن البراعم ستتفجر من كل مكان في جسدها. سيعتقدون أنها امرأة عجوز سخيفة للغاية، وهذا ما كانت ستعتقده هي نفسها قبل يومين تقريبًا، لكن فكرة البراعم صارت مألوفة بالنسبة إليها، وباتت أكثر مرونة، كما اعتاد العزيز ماثيو أرنولد أن يقول. وعلى الرغم من أنه سيكون من الأفضل بلا شك أن يطابق مظهر المرء أحاسيسه، لكن بافتراض أن ذلك لم يحدث - ولا يمكن للمرء أن يمتلك كل شيء - أليس من الأفضل إذن أن يشعر بالشباب في مكان ما، بدلًا من الشعور بالشيخوخة

في كل مكان؟ فهناك ما يكفي من الوقت للشعور بالشيخوخة في كل مكان مرة أخرى، من الداخل والخارج، عندما تعود إلى تابوتها الحجري في برينس أوف ويلز تيراس.

ومع ذلك فمن المحتمل أنه لولا وصول بريجز، لكانت السيدة فيشر ستظل في حالة من الاضطراب السري داخل قوقعتها. عرفتها الأخريات بوصفها صارمة فحسب، وكان ذلك الاسترخاء المفاجئ أكثر مما يمكن أن تتحمله كرامتها، ولا سيما تجاه الشابات الثلاث. لكن ها قد جاء الآن ذلك الغريب بريجز، وهو غريب شعر بالميل إليها على الفور، كما لم يشعر نحوها أي شاب في حياتها من قبل، وكان مجيء بريجز وتقديره الحقيقي والواضح - حيث فكر بريجز، المتعطش إلى الحياة الأسرية وما يصاحبها، أنه كان يود لو أن لديه مثل هذه الجدة - هما ما حررا السيدة فيشر من قوقعتها، وها هي ذي أخيرًا، كما تنبأت لوتي، سعيدة، ورائقة المزاج، ولطيفة.

عادت لوتي من نزهتها بعد نصف ساعة، وتتبعت الأصوات إلى الحديقة العلوية على أمل أن تجد الشاي لا يزال موجودًا، ورأت على الفور ما حدث، لأن السيدة فيشر كانت تضحك في تلك اللحظة بالذات.

فكرت لوتي: «لقد خرجت من شرنقتها»، ونظرًا إلى أنها كانت سريعة في كل حركاتها، ومندفعة، وأيضًا من دون شعور باللياقة ليقلقها أو يعوقها، انحنت على ظهر كرسي السيدة فيشر وقبَّلتها.

صاحت السيدة فيشر:

- يا إلهي!

وجفلت بشدة، لأن شيئًا كهذا لم يحدث لها منذ أيام السيد فيشر المبكرة، وحتى حينها كان ذلك بحذر فحسب. كانت هذه القُبلة حقيقية، واستقرت على وجنة السيدة فيشر للحظة بعذوبة غريبة وناعمة.

عندما رأت صاحبة القبلة، تضرج وجهها بشدة. قبَّلتها السيدة ويلكنز، وشعرت بالحنان الشديد للقبلة... حتى لو أرادت ذلك، لم يكن في وسعها

في حضور السيد بريجز بادي الامتنان أن تستأنف صرامتها التي نبذتها، وتعاود التوبيخ مرة أخرى، لكنها لم ترغب في ذلك. هل يمكن أن تكون السيدة ويلكنز تحبها، وأحبتها طوال هذا الوقت، في حين كرهتها هي إلى هذه الدرجة؟ تسربت قطرات غريبة من الدفء عبر الدفاعات المتجمدة لقلب السيدة فيشر. هناك شابة قبَّلتها... شابة أر\ادت أن تقبِّلها... تضرج وجهها بشدة، وهي تراقب تلك المخلوقة الغريبة، التي بدا من الواضح أنها لم تكن واعية على الإطلاق أنها فعلت أي شيء غير عادي، وهي تصافح السيد بريجز بعد أن قدمه زوجها، وشرعت على الفور في حديث ودي معه، تمامًا كما لو كانت تعرفه طوال حياتها. يا لها من مخلوقة غريبة، يا لها من مخلوقة غريبة للغاية. ربما كان من الطبيعي أن يخطئ المرء في الحكم عليها، نظرًا إلى كونها غريبة إلى هذا الحد...

قال بريجز للوتي بحماس وكرم ضيافة:

- أنا متأكد أنك تريدين بعض الشاي.

كان يظنها مبهجة، بنمشها، وهيئتها المشعثة بعد النزهة، وكل شيء. وكان يود لو أن لديه مثل هذه الأخت...

قال وهو يتحسس إبريق الشاي:

- هذا بارد، سأطلب من فرانشيسكا أن تعد لك بعض الشاي...

قطع حديثه، وتورَّد وجهه خجلًا، ثم ضحك قائلًا وهو ينظر إليهم:

- لقد نسيت نفسي.

طمأنه السيد ويلكنز قائلًا:

- هذا طبيعي جدًّا، طبيعي جدًّا.

نهضت روز قائلة:

- سأذهب وأخبر فرانشيسكا.

قال بريجز:

- لا، لا. لا تذهبي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم أحاط فمه بيديه وصاح.

صاح بريجز:

- فرانشيسكا!

أتت راكضة، ولم يسبق خلال تجربتهم معها أن أجابت أي استدعاء بهذه السرعة.

علق السيد ويلكنز قائلًا:

- صوت سيدها.

وفكر أن هذا هو المناسب.

أمرها بريجز باللغة الإيطالية:

- فلتعدي لنا شايًا طازجًا. أسرعي... أسرعي...

ثم تدارك نفسه وتورَّد خجلًا مرة أخرى، وطلب العفو من الجميع.

طمأنه السيد ويلكنز قائلًا:

- هذا طبيعي جدًّا، طبيعي جدًّا.

بعد ذلك، شرح بريجز للوتي ما أوضحه مرتين بالفعل، مرة لروز ومرة للاثنين الآخرين، أنه كان في طريقه إلى روما، وفكر أن ينزل في ميتزاجو ويمر في زيارة سريعة فحسب، لمعرفة ما إذا كانوا مرتاحين أم لا، قبل مواصلة رحلته في اليوم التالي، حيث سيقضي الليلة في فندق في ميتزاجو.

قالت لوتي:

- لكن كم هذا سخيف، بالطبع يجب عليك البقاء هنا، إنه منزلك. هناك غرفة كيت لوملي.

التفتت إلى السيدة فيشر وأضافت:

- هل ستمانعين لو حصل عليها السيد بريجز لليلة واحدة؟

ثم التفتت إلى بريجز ثانية، وضحكت وهي تقول:

- كيت لوملي ليست داخل الغرفة، كما تعلم.

ولدهشة السيدة فيشر الشديدة، ضحكت هي أيضًا. كانت تعلم أنه في

أي وقت آخر، كانت ستجد هذه الملاحظة غير لائقة إلى حدٍّ بعيد، ومع ذلك، فقد اعتبرتها الآن مضحكة فحسب.

أكدت لبريجز أن كيت لوملي لم تكن في تلك الغرفة في الواقع. وذلك من حسن الحظ الشديد، حيث كانت إنسانة عريضة للغاية، بينما الغرفة ضيقة للغاية. ربما تتمكن كيت لوملي من دخولها، لكن هذا هو كل ما في الأمر. بمجرد دخولها، ستنحشر بشدة، إلى درجة أنها لن تتمكن من الخروج مرة أخرى أبدًا على الأرجح. كانت الغرفة تحت تصرف السيد بريجز بالكامل، وتمنت ألا يفعل شيئًا سخيفًا مثل الذهاب إلى أحد الفنادق، فهو مالك المكان بأكمله.

استمعت روز إلى هذا الخطاب بعينين متسعتين من الدهشة، وضحكت السيدة فيشر بشدة وهي تلقيه. كما ضحكت لوتي كثيرًا أيضًا، وفي نهايته انحنت وقبَّلتها مرة أخرى، قبَّلتها عدة مرات.

قالت السيدة فيشر:

- لذا، يا ولدي العزيز، يجب عليك أن تبقى هنا، وتمنحنا جميعًا قدرًا كبيرًا من المتعة.

أكد السيد ويلكنز بحرارة:

- قدرًا كبيرًا بالفعل.

كررت السيدة فيشر، وهي تبدو تمامًا مثل الأم السعيدة:

- قدرًا هائلًا جدًّا.

قالت روز عندما التفت إليها بريجز مستفسرًا:

- فلتفعل.

قال بابتسامة عريضة فوق وجهه:

- كم هو لطيف منكم جميعًا، يسعدني أن أكون ضيفًا هنا. يا له من إحساس جديد. ومع ثلاث من...

قطع حديثه وتلفت حوله، ثم سأل:

- أليس من المفترض أن تكون لديَّ مضيفة رابعة؟ قالت، فرانشيسكا إن لديها أربع سيدات.

قالت لوتي:

- أجل، هناك الليدي كارولين.

- أليس من الأفضل إذن أن نعرف أولًا ما إذا كانت ستوجِّه إليَّ الدعوة هي أيضًا؟

شرعت لوتي قائلة:

- أوه، لكن من المؤكد أنها...

قال السيد ويلكنز:

- من غير المرجح أن تكون سليلة آل درويتويتش، يا بريجز، تفتقر إلى حس الضيافة اللائق.

كرر بريجز:

- سليلة آل...

لكنه قطع حديثه فجأة، حيث كانت هناك، في مدخل الباب، سليلة آل درويتويتش بنفسها، أو بالأحرى، رأى قادمًا تجاهه من مدخل الباب المظلم، نحو ضوء الشمس الغاربة، ما لم يسبق أن رآه في حياته قَطُّ، بل حلم به فحسب: مفهومه عن الجمال المطلق.

١٩

وبعد ذلك، عندما تحدثت... هل كانت هناك أدنى فرصة أمام المسكين بريجز؟ قُضي عليه تمامًا. كل ما قالته سكراب عندما قدمه السيد ويلكنز هو: «كيف حالك؟»، لكن ذلك كان كافيًا للقضاء على بريجز تمامًا.

تحوَّل من شاب مرح ثرثار سعيد، يفيض بالحياة والود، وأصبح صامتًا وجادًّا، وعلى صدغيه قطرات من العرق. كما صار أخرق، حيث أسقط ملعقة صغيرة وهو يناولها فنجانها، وأساء التعامل مع حلوى المعكرون، بحيث تدحرجت واحدة على الأرض. لم يستطع إبعاد عينيه عن الوجه الساحر للحظة، وعندما أوضح السيد ويلكنز الأمر نيابة عنه، حيث فشل في توضيح حديثه بنفسه، وأخبر الليدي كارولين بأن بريجز هو مالك سان سالفاتوري، وأنه كان في طريقه إلى روما، لكنه نزل في ميتزاجو، إلى آخره، وأن السيدات الثلاث الأخريات دعونه إلى قضاء الليلة فيما كان في الحقيقة منزله الخاص، بدلًا من فندق، وأن السيد بريجز ينتظر فقط ختم موافقتها على هذه الدعوة، نظرًا إلى كونها المضيفة الرابعة... وعندما أوضح السيد ويلكنز الموقف على هذا النحو لليدي كارولين، وهو يوازن عباراته بوضوح مثير للإعجاب، مستمتعًا بوقع صوته المهذب، جلس بريجز ولم يتفوَّه بكلمة قَطُّ.

غمرت سكراب كآبة عميقة. كانت كل أمارات المتشبث المستجد موجودة هناك ومألوفة للغاية، وكانت تعلم أنه إذا بقي بريجز فيمكن اعتبار أن راحتها العلاجية تلك قد انتهت.

ثم خطرت لها كيت لوملي، وتمسكت بكيت كما تتمسك بقشة.

ابتسمت ابتسامة خافتة لبريجز، حيث لم يسعها إلا الابتسام بدافع من اللياقة، ولو على نحو بسيط على الأقل، لكن حتى تلك الابتسامة البسيطة كشفت عن غمازتها، وصارت عينا بريجز ثابتتين عليها أكثر من ذي قبل وهي تقول:

- كان ذلك سيصبح رائعًا، لكنني أتساءل فحسب، عما إذا كان هناك مكان.

قالت لوتي:

- نعم، يوجد مكان. هناك غرفة كيت لوملي.

بدا لبريجز أنه لم يسمع الموسيقى من قبل حتى الآن، عندما قالت سكراب للسيدة فيشر:

- ظننت أنه من المتوقع وصول صديقتك في الحال.

قالت السيدة فيشر، بما ظنته سكراب هدوءًا غريبًا:

- أوه، لا.

قال السيد ويلكنز:

- إن الآنسة لوملي...

ثم سأل السيدة فيشر:

- أم هل ينبغي لي أن أقول السيدة لوملي؟

قالت السيدة فيشر بنبرة رضا عن النفس:

- لم يتزوج أحد كيت قَطُّ.

- حسنًا، إن الآنسة لوملي لن تصل اليوم على أي حال، يا ليدي كارولين، والسيد بريجز - من سوء الحظ، إذا جاز لي أن أقول ذلك - سيواصل رحلته غدًا، بحيث إن إقامته لن تتعارض بأي حال من الأحوال مع تحركات الآنسة لوملي المحتملة.

قالت سكراب، بما بدا لبريجز كما لو أنه أشد درجة من درجات المودة الساحرة:

- إذن بالطبع أضم صوتي إلى تلك الدعوة.

تلعثم بشيء ما، وتضرج وجهه حتى صار قرمزي اللون، وفكرت سكراب: «أوه»، ثم أشاحت بعيدًا برأسها، لكن ذلك جعل بريجز يتعرَّف على هيئة وجهها الجانبية فحسب، وإذا كان هناك أي شيء أجمل من وجه سكراب الكامل فهو هيئة وجهها الجانبية.

حسنًا، كان الأمر لعصر ومساء اليوم فقط، وسيرحل بلا شك، أول شيء في الصباح، حيث يستغرق الوصول إلى روما ساعات. سيكون الأمر فظيعًا إذا بقي حتى موعد القطار الليلي. كان لديها شعور بأن القطار السريع الرئيسي المتجه إلى روما يمر ليلًا. لماذا لم تصل تلك المرأة كيت لوملي بعد؟ لقد نسيت كل شيء عنها، لكنها تذكرت الآن أنه كان من المقرر أن تُوجه لها الدعوة قبل أسبوعين. ماذا حدث لها؟ هذا الرجل، بمجرد السماح له بالدخول، سيأتي لرؤيتها في لندن، وسوف يرتاد الأماكن التي من المحتمل أن تذهب إليها. رأت بعينها الخبيرة أنه يمتلك مقومات المتشبث اللحوح بشدة.

فكر السيد ويلكنز وهو يراقب وجه بريجز وصمته المفاجئ: «إذا كانت هناك أي علاقة بين هذا الشاب والسيدة أربوثنوت، فستصير هناك مشكلة الآن. مشكلة ذات طبيعة مختلفة عن النوع الذي كنت أخشاه، والتي كان أربوثنوت سيلعب فيها دورًا رئيسيًّا، في الواقع، دور الملتمس، لكنها مشكلة قد تحتاج إلى المساعدة والمشورة مع ذلك، لأنها ليست فضيحة علنية. سوف يطمح بريجز، مدفوعًا بعواطفه وجمالها، إلى سليلة آل درويتويتش، وستصده هي بطبيعة الحال، على نحو لائق. وستُترك السيدة أربوثنوت من دون اهتمام، وستنزعج وتُظهر ذلك. وعند وصوله، سيجد أربوثنوت زوجته تذرف دموعًا غامضة، وعند السؤال عن سببها، سيُقابل بتحفظ بارد. ومن ثَمَّ يمكن توقع مزيد من المشكلات، وسيطلبون المشورة، ويجدونها لديَّ. كانت لوتي مخطئة عندما قالت إن السيدة أربوثنوت تريد زوجها، فما

تريده السيدة أربوثنوت هو بريجز، ويبدو بوضوح أنها لن تناله. حسنًا، أنا الرجل المناسب لهم».

سألت السيدة فيشر، وصوتها مليء بالأمومة:

- أين أمتعتك يا سيد بريجز؟ ألا يجب إحضارها؟

حيث كادت الشمس تغيب في البحر الآن، وبدأت نداوة شهر أبريل ذات الرائحة الطيبة التي تعقب اختفاءها مباشرة تتسلل إلى الحديقة.

جفل بريجز، وكرر قائلًا:

- أمتعتي؟ أوه، أجل... لا بد أن أجلبها. إنها في ميتزاجو. سأرسل دومينيكو. عربتي تنتظر في القرية، يمكنه العودة بها. سأذهب وأخبره.

نهض واقفًا. إلى من كان يوجِّه حديثه؟ إلى السيدة فيشر، ظاهريًّا، لكن عينيه كانتا مثبتتين على سكراب، التي لم تقل شيئًا ولم تنظر إلى أحد.

ثم تدارك نفسه، وتلعثم قائلًا:

- أنا آسف جدًّا... أستمر في نسيان الأمر... سأنزل وأحضرها بنفسي...

قالت روز:

- يمكننا إرسال دومينيكو بسهولة.

أدار رأسه عندما سمع صوتها الهادئ.

ها هي ذي صديقته، السيدة ذات الاسم الجميل، لكن كم تغيرت في هذه الفترة القصيرة! هل كان الضوء الخافت هو الذي جعلها شاحبة إلى هذا الحد، وغامضة الملامح وباهتة جدًّا، تشبه الشبح إلى حدٍّ بعيد؟ شبح طيب ولطيف بالطبع، ولا يزال يحمل اسمًا جميلًا، لكنه مجرد شبح.

تحول عنها إلى سكراب مرة أخرى، ونسي وجود روز أربوثنوت. كيف يمكن أن يهتم بأي شخص أو أي شيء آخر في هذه اللحظة الأولى التي يواجه فيها حلمه وجهًا لوجه؟

لم يكن بريجز يفترض أو يأمل في وجود شخص جميل، يضاهي حلمه بالجمال، ولم يسبق له حتى الآن أن قابل من يداني ذلك حتى.

التقى عشرات النساء الجميلات والفاتنات، وقدرهن كما يجب، لكنه لم يلتقِ قَطُّ بذلك الجمال الحقيقي الرباني نفسه. كان يقول لنفسه: «إذا حدث أن رأيت امرأة كاملة الجمال، فسوف أموت»، لكن على الرغم من أنه التقى الآن من كانت امرأة جميلة على نحو مثالي، وفقًا لأفكاره، فإنه لم يمت، لكنه صار غير قادر على تولي أمر شؤونه الخاصة، كما لو أنه مات بالفعل.

اضطر الآخرون إلى ترتيب كل شيء له. من خلال الأسئلة، استنتجوا منه أن أمتعته كانت في حجرة الملابس بالمحطة في ميتزاجو، وأرسلوا في طلب دومينيكو، وبعد حث وتشجيع من الجميع باستثناء سكراب، التي جلست في صمت ولم تنظر إلى أحد، حثوا بريجز على إعطائه التعليمات اللازمة للعودة بالعربة وجلب أغراضه.

كان من المحزن رؤية مشهد انهيار بريجز. وقد لاحظ الجميع ذلك، حتى روز.

فكرت السيدة فيشر: «يا إلهي، إن الطريقة التي يمكن أن يتسبب بها وجه جميل في تحوُّل رجل مبهج إلى شخص أحمق هي أمر يفوق كل حدود الصبر».

وعندما شعرت بأن الهواء أصبح باردًا، ووجدت منظر بريجز المفتون مؤلمًا، دخلت لتأمر بتجهيز غرفته، وندمت الآن لأنها ضغطت على الفتى المسكين ليبقى.

كانت قد نسيت وجه الليدي كارولين القاتل للبهجة حتى تلك اللحظة، ويرجع هذا بشكل كامل إلى عدم وجود أي آثار سيئة ناجمة عن ذلك على السيد ويلكنز. يا للفتى المسكين. كما أنه فتى لطيف أيضًا، إذا تُرك وشأنه. صحيح أنها لا تستطيع اتهام الليدي كارولين بأنها لم تتركه وشأنه، حيث لم تعِره أي انتباه قَطُّ، لكن ذلك لم يساعد في الأمر. تمامًا مثل الفراشات الحمقاء، كان الرجال، الأذكياء من نواحٍ أخرى، يرفرفون حول الوجه

الجميل الهادئ كشمعة مضاءة. لقد رأتهم يفعلون ذلك، وشاهدت ذلك يحدث كثيرًا. كادت تضع يدها الأمومية على رأس بريجز الأشقر عندما مرت به. يا للفتى المسكين.

بعد أن انتهت سكراب من تدخين سيجارتها، نهضت واتجهت إلى الداخل أيضًا، حيث لم تجد سببًا يدفعها إلى الجلوس هناك لإشباع رغبة السيد بريجز في التحديق. كانت تود البقاء بالخارج فترة أطول، كي تذهب إلى زاويتها خلف شجيرات الدفنة، وتطالع السماء وقت غروب الشمس، وتشاهد الأنوار تُضاء واحدًا تلو واحد في القرية في الأسفل، وتشم رائحة النداوة العذبة في المساء، لكن إذا فعلت ذلك فمن المؤكد أن السيد بريجز سيتبعها.

بدأ ذلك الطغيان القديم المألوف مرة أخرى. انقطع هدوء وتحرر عطلتها، وربما انتهى، فمن يدري ما إذا كان سيرحل غدًا في النهاية؟ قد يغادر المنزل، بعد أن تطرده منه كيت لوملي، لكن لم يكن هناك ما يمنعه من تأجير غرف في القرية، والمجيء كل يوم. يا لهذا الطغيان الذي يمارسه شخص على آخر! وقد خُلقت هي على نحو بائس للغاية، إلى درجة أنها لن تتمكن حتى من العبوس في وجهه من دون أن يُساء فهمها.

شعرت سكراب، التي كانت تحب قضاء هذا الوقت من المساء في زاويتها، بالسخط حيال السيد بريجز الذي حرمها من ذلك، وأدارت ظهرها للحديقة وله، واتجهت نحو المنزل من دون نظرة أو كلمة واحدة. لكن بريجز، عندما أدرك نيتها، قفز واقفًا على قدميه، وانتزع الكراسي التي لم تكن في طريقها للخروج، وركل جانبًا مسند قدم لم يكن في طريقها، وأسرع إلى الباب، الذي كان مفتوحًا على مصراعيه، كي يفتحه لها، وتبعها من خلاله، ومشى بجانبها عبر الردهة.

ما الذي يمكنها فعله مع السيد بريجز؟ حسنًا، كانت هذه ردهته، ولا يمكنها منعه من السير عبرها.

لم يتمكن من رفع عينيه عنها في أثناء سيره، إلى درجة أنه اصطدم بعدة أشياء كان من الممكن أن يتجنبها: زاوية خزانة كتب، وخزانة قديمة منحوتة، وطاولة عليها زهور، تسبب في انسكاب الماء منها، وقال:

- آمل أن تكوني مرتاحة هنا، إذا لم تكوني كذلك، فسوف... سوف أسلخهم أحياء.

اهتز صوته. ما الذي يمكنها فعله مع السيد بريجز؟ يمكنها بالطبع أن تبقى في غرفتها طوال الوقت، وتقول إنها مريضة، ولا تظهر على العشاء، لكن مرة أخرى، يا لهذا الطغيان...

قالت سكراب:

- أنا مرتاحة جدًّا حقًّا.

شرع قائلًا:

- لو أنني تخيلت أنك قادمة...

قالت سكراب وهي تبذل قصارى جهدها لتبدو باردة وبغيضة، لكن من دون أمل كبير في النجاح:

- إنه مكان عتيق رائع.

كان المطبخ في هذا الطابق، وعند المرور ببابه الذي كان مواربًا، لاحظهما الخدم، الذين تبادلوا أفكارهم مع بعضهم عن طريق النظرات، والتي يمكن التعبير عنها على نحو تقريبي من خلال أصوات مثل «آها» أو «أوهو»، وهي أصوات تمثل وتتضمن تقديرهم لما لا مفر منه، ومعرفتهم السابقة بما لا مفر منه، وفهمهم الكامل وموافقتهم عليه.

سألها بريجز عندما توقفت أسفل الدرج:

- هل ستصعدين إلى الطابق العلوي؟

- أجل.

- في أي غرفة تجلسين؟ في غرفة الاستقبال أم الغرفة الصفراء الصغيرة؟

- في غرفتي الخاصة.

لم يكن في وسعه الصعود معها إذن، لذا فكل ما يستطيع فعله هو الانتظار حتى تخرج مرة أخرى.

كان يتوق إلى سؤالها عن أي غرفة كانت غرفتها الخاصة - شعر بسعادة غامرة عندما سمعها تُسمِّي أي غرفة في منزله غرفتها الخاصة - حتى يتصورها بداخلها. واشتاق إلى معرفة ما إذا كانت هي غرفته، بأي حال من الأحوال، التي ستظل ممتلئة بروعتها إلى الأبد، لكنه لم يجرؤ على السؤال. سيكتشف ذلك لاحقًا من شخص آخر... فرانشيسكا، أو أي شخص آخر.

- لن أراكِ مرة أخرى إذن حتى موعد العشاء؟

أتاه جواب سكراب المراوغ وهي في طريقها إلى الطابق العلوي:

- العشاء في الساعة الثامنة.

راقبها وهي تمضي في طريقها.

مرت بجوار السيدة العذراء، لوحة روز أربوثنوت، وبدا أن ذلك الوجه ذا العينين الداكنتين الذي ظنه لطيفًا للغاية قد تحول إلى الشحوب، وذبل تمامًا في أثناء مرورها.

انحرفت عند منعطف الدرج، والتمعت شمس الغروب من خلال النافذة الغربية على وجهها للحظة، فحوَّلتها إلى صورة من البهاء.

اختفت، وغابت الشمس أيضًا، وبات الدرج مظلمًا وخاليًا.

أصاخ السمع حتى خبا وقع خطواتها، محاولًا أن يعرف من صوت إغلاق الباب الغرفة التي دخلت إليها، ثم تجول بلا هدف عبر الردهة مرة ثانية، ووجد نفسه في الحديقة العلوية مرة أخرى.

رأته سكراب هناك من نافذتها، ورأت لوتي وروز جالستين عند طرف الحاجز، حيث تمنت هي أن تكون، ثم رأت السيد ويلكنز يحاصر بريجز، وبدا من الواضح أنه يقص عليه حكاية شجرة الدفلى الكائنة في منتصف الحديقة.

استمع إليه بريجز بصبر على نحو اعتقدت أنه لطيف للغاية، نظرًا إلى

أنها كانت شجرته، وحكاية والده هو. عرفت أن السيد ويلكنز يروي له القصة من خلال حركاته. قص عليها دومينيكو الحكاية بعد وقت قصير من وصولها، كما قصها على السيدة فيشر، التي روتها للسيد ويلكنز. أشادت السيدة فيشر بهذه القصة كثيرًا، وكثيرًا ما تحدثت عنها. كانت تدور حول عصا للمشي مصنوعة من خشب الكرز، تركها والد بريجز في الأرض كتذكير لوالد دومينيكو، وبعد فترة من الوقت - لا أحد يذكر كم من الوقت بعدها - بدأت العصا تنبت، وصارت شجرة دفلى.

وقف السيد بريجز المسكين هناك، والحكاية تُروى له، وهو يستمع بصبر إلى القصة التي لا بد أنه يعرفها منذ طفولته.

ربما كان منشغلًا بالتفكير في شيء آخر. خشيت أنه كان كذلك بالفعل. كم هو مؤسف، كم هو مؤسف للغاية، ذلك التصميم الذي يستولي على الناس ليتشبثوا بالآخرين ويحاصروهم. ليته كان من الممكن دفعهم فحسب إلى الاعتماد على أنفسهم بدرجة أكبر. لماذا لا يمكن للسيد بريجز أن يكون مثل لوتي، التي لم تكن تريد أي شيء من أي شخص، بل كانت تكتفي بذاتها وتحترم اكتفاء الآخرين بذواتهم؟ كان المرء يحب الوجود مع لوتي، حيث يشعر معها بأنه حر، وينعم بالصداقة في الوقت نفسه. كما أن السيد بريجز بدا لطيفًا للغاية، وظنت أنها قد تميل إليه، لو أنه لم يمِل إليها على نحو مفرط.

شعرت سكراب بالحزن. ها هي ذي حبيسة في غرفة نومها، التي كانت خانقة من أثر شمس الظهيرة التي تدفقت إليها، بدلًا من الخروج إلى الحديقة الباردة، وكل ذلك بسبب السيد بريجز.

انفعلت وهي تفكر أن هذا طغيان لا يُطاق. لن تخضع لذلك، بل ستخرج على الرغم من كل شيء. ستهرع إلى الطابق السفلي بينما السيد ويلكنز - كان ذلك الرجل كنزًا حقًّا - يحتجز السيد بريجز ويحكي له عن شجرة الدفلى، وتخرج من المنزل عبر الباب الأمامي، ثم تحتمي بين الظلال

عند الطريق المتعرج. لن يتمكن أحد من رؤيتها هناك، ولن يفكر أحد في البحث عنها هناك.

التقطت دثارًا، حيث لم تكن تنوي العودة قبل فترة طويلة، وربما ليس حتى لتناول العشاء - سيكون هذا خطأ السيد بريجز إذا لم تتناول العشاء وشعرت بالجوع - وبعد نظرة أخرى من النافذة لترى ما إذا كان لا يزال منشغلًا في أمان، تسللت وتوجهت إلى حيث مظلة الأشجار عند الطريق المتعرج، وجلست هناك على أحد المقاعد الموضوعة عند كل منعطف لمساعدة أولئك الذين يعانون ضيق التنفس في رحلة الصعود.

فكرت سكراب بتنهيدة ارتياح: «آه، كم هذا جميل، وكم يبدو الجو باردًا، وكم تبدو الرائحة طيبة». كان في إمكانها رؤية المياه الهادئة للميناء الصغير من خلال جذوع الصنوبر، والأنوار تُضاء في المنازل على الجانب الآخر، بينما تناثر وسط الغسق الأخضر من حولها اللون الوردي لزهور الزنبق بين العشب، وبياض زهور الأقحوان المتزاحمة.

آه، كان هذا جميلًا، وساكنًا للغاية. لا شيء يتحرك... لا ورقة شجر، ولا ساق نبات. كان الصوت الوحيد هو نباح كلب، بعيدًا في مكان ما أعلى التلال، أو عندما فُتح باب المطعم الصغير في الساحة بالأسفل وخرجت موجة من الأصوات، التي سكتت مرة أخرى على الفور عندما تأرجح الباب وانغلق.

سحبت نفَسًا عميقًا وهي مستمتعة. آه، كان هذا...

انقطع النفس العميق في منتصفه. ما هذا؟

انحنت إلى الأمام وهي تصيخ السمع، وكان جسدها متوترًا.

وقع خطوات على الطريق المتعرج. بريجز. سيكتشف مكانها.

هل يجب أن تهرب؟

لا، كانت الخُطى تتجه نحو الأعلى، وليس الأسفل. شخص ما من القرية، ربما أنجيلو، ومعه المؤن.

استرخت مرة أخرى. لكن الخطوات لم تكن خطوات أنجيلو، ذلك الشاب السريع النشيط، بل كانت بطيئة ومدروسة، وظلت تتوقف.

فكرت سكراب: «شخص غير معتاد على التلال».

لم تخطر ببالها فكرة العودة إلى المنزل، حيث لم تكن تخاف أي شيء في الحياة سوى الحب. ولم يكن قُطَّاع الطرق أو القتلة ومن شابههم يخيفون سليلة آل درويتويتش. كانت ستخشاهم فقط في حال ما إذا اعتزلوا السرقة والقتل، وبدأوا يحاولون المغازلة بدلًا من ذلك.

في اللحظة التالية، انعطفت الخُطى عند الركن الذي تجلس فيه من الطريق، وتوقفت.

فكرت سكراب من دون أن تلتفت: «إنه يلتقط أنفاسه».

بعد ذلك، عندما لم يتحرك - افترضت من وقع الخطوات أنه رجل - أدارت رأسها، ونظرت بدهشة إلى شخص رأته كثيرًا في الآونة الأخيرة في لندن، وهو كاتب المذكرات المسلية المعروف، السيد فرديناند أروندل.

حدقت إليه. لم يعد يدهشها أن يتبعها أحدهم، لكن ما أدهشها هو أنه تمكن من العثور عليها هنا، حيث وعدتها والدتها بإخلاص ألا تخبر أحدًا.

قالت وهي تشعر بالخيانة:

- أنت؟ هنا؟

اقترب منها، وخلع قبعته. ندت على جبينه أسفل القبعة قطرات عرق، نتيجة لأنه لم يألف التسلق. بدا خجولًا ومتوسلًا، مثل كلب مذنب لكنه مخلص.

قال:

- يجب أن تسامحيني. أخبرتني الليدي درويتويتش بمكانك، وبما أنني كنت مارًّا في طريقي إلى روما، فكرت أن أنزل في ميتزاجو لزيارة سريعة فحسب، كي أرى كيف حالك.

- لكن... ألم تخبرك والدتي بأنني ذهبت من أجل الراحة العلاجية؟

- بلى، لقد فعلت. ولهذا السبب لم أتطفل عليك في وقت سابق من اليوم. اعتقدت أنك ربما ستنامين طوال اليوم، وتستيقظين الآن تقريبًا لتناول العشاء.

- لكن...

- أعرف، ليس لديَّ عذر لأقدمه، لكنني لم أستطع تمالك نفسي.

فكرت سكراب: «هذه هي نتيجة إصرار والدتي على دعوة المؤلفين لتناول الغداء، وكوني ذات مظهر يبدو أكثر ودية بكثير مما أنا عليه في الواقع».

كانت تعامل فرديناند أروندل بود، وكانت تميل إليه، أو بالأحرى، لم تكرهه. بدا رجلًا مرحًا وبسيطًا، وله عينا كلب لطيف. علاوة على ذلك، على الرغم من أنه كان معجبًا بها، فإنه لم يتشبث بها في لندن. هناك، كان مجرد شخص لطيف الطباع، لا ضرر منه، حديثه مسلٍّ، يساعد على جعل وقت الغداء مقبولًا. لكن بدا الآن أنه هو أيضًا متشبث. تخيل أن يتبعها إلى هنا... وأن يجرؤ على ذلك! لم يجرؤ أي شخص آخر على ذلك. ربما أعطته والدتها العنوان لأنها اعتبرت أنه لا ضرر منه على الإطلاق، واعتقدت أنه قد يكون مفيدًا لها، ويوصلها إلى المنزل.

حسنًا، مهما كان، فلا يمكنه أن يسبب لها المتاعب التي قد يسببها لها شاب يتمتع بالحيوية مثل السيد بريجز. شعرت بأن السيد بريجز المفتون بها سيكون متهورًا، ولن يتوقف عند أي حد، وسيفقد عقله على الملأ. تخيلت السيد بريجز وهو يقدم على فعل أشياء باستخدام السلالم المصنوعة من الحبال، ويغني طوال الليل تحت نافذتها، وهو أمر صعب وغير مريح حقًّا. لكن قوام السيد أروندل لم يكن ليساعده على ارتكاب أي نوع من التهور، حيث عاش فترة طويلة جدًّا، واستمتع بالعيش للغاية. كانت متأكدة أنه لا يستطيع الغناء، ولا يريد ذلك. لا بد أن يكون في الأربعين من عمره على الأقل. كم عدد وجبات العشاء الجيدة التي يمكن أن يكون رجل قد تناولها بحلول عامه الأربعين؟ وإذا قضى وقته خلال تلك المدة جالسًا لتأليف

الكتب، بدلًا من ممارسة التمارين، فمن الطبيعي أن يكتسب القوام الذي اكتسبه السيد أروندل، وهو قوام مناسب للمحادثات، لا للمغامرات.

سكراب، التي راودها الحزن عند رؤية بريجز، راودتها الأفكار الفلسفية عند رؤية أروندل. ها هو ذا موجود هنا، ولا يمكنها أن تصرفه بعيدًا إلا بعد العشاء، حيث يجب أن يتناول الطعام.

وبما أن الأمر كذلك، فمن الأفضل لها أن تستغل الوضع على أفضل نحو ممكن، وأن تفعل هذا بلباقة لا يمكن تجنبها على أي حال. علاوة على هذا، سيكون بمنزلة ملجأ مؤقت لها من السيد بريجز. كانت على الأقل على معرفة بفرديناند أروندل، ويمكنها أن تسمع منه أخبار والدتها وأصدقائها، ومن شأن مثل ذلك الحديث أن يضع حاجزًا دفاعيًّا على العشاء بينها وبين اقتراب ذلك الآخر. وكان ذلك لعشاء واحد فقط، كما أنه لا يستطيع أن يأكلها هي.

لذا أعدت نفسها للتصرف بود، وتجاهلت تعليقه الأخير قائلة:

- سأتناول العشاء في الثامنة، ويجب أن تأتي لتأكل أنت أيضًا. اجلس واسترِح، وأخبرني كيف حال الجميع.

قال وهو يمسح جبهته قبل أن يجلس بجانبها:

- هل يمكنني حقًّا تناول العشاء معكِ؟ بملابس السفر هذه؟

فكر أنها أجمل من أن تكون حقيقية، وكان مجرد النظر إليها لمدة ساعة، ومجرد سماع صوتها، تعويضًا كافيًا عن رحلته ومخاوفه.

- بالطبع. أعتقد أنك تركت عربتك في القرية، وسوف تسافر من ميتزاجو بالقطار المسائي.

- أو سأبقى في فندق في ميتزاجو، وأواصل طريقي غدًا.

ثم أضاف وهو يتأمل الهيئة الجانبية لوجهها الجميل:

- لكن أخبريني عن نفسك. كانت لندن مملة وفارغة إلى حدٍّ غير عادي. قالت الليدي درويتويتش إنك هنا مع سيدات لا تعرفهن. آمل أن يكنَّ

لطيفات معكِ؟ تبدين... حسنًا، كما لو أن علاجك قد فعل كل ما ينبغي أن يفعله العلاج.

قالت سكراب:

- لقد كن في غاية اللطف. عثرت عليهن عن طريق أحد الإعلانات.

- إعلان؟

- أعتقد أنها طريقة جيدة لكسب الأصدقاء. فأنا أحب واحدة منهن أكثر مما أحببت أي شخص منذ سنوات.

- حقًّا؟ من هي؟

- عليك أن تخمن من تكون منهن عندما تراهن. أخبرني عن والدتي، متى رأيتها آخر مرة؟ لقد اتفقنا ألا نكتب لبعضنا إلا إذا كان هناك شيء مهم، حيث أردت قضاء شهر خالٍ تمامًا.

- وها قد أتيت وقطعته. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى خجلي، سواء لأنني أقدمت على ذلك، أم لأنني لم أستطع منع نفسي.

قالت سكراب بسرعة، لأنه لم يكن من الممكن أن يأتي في يوم أفضل من هذا، وهي تعلم أن بريجز المتيم هناك، ينتظرها ويراقبها:

- أوه، لكنني حقًّا سعيدة جدًّا برؤيتك. أخبرني عن والدتي.

٢٠

أرادت سكراب معرفة الكثير عن والدتها، إلى درجة أن أروندل سرعان ما اضطر إلى اختراع الحديث. كان سيتحدث عن أي شيء تتمناه، لو مكنه ذلك من قضاء بعض الوقت معها ورؤيتها وسماعها، لكنه لم يكن يعرف إلا القليل جدًّا في الواقع عن آل درويتويتش وأصدقائهم، فبعيدًا عن مقابلتهم في تلك المناسبات الكبرى التي يكون الأدب أيضًا مُمثلًا فيها، وتسليتهم خلال مآدب الغداء والعشاء، لم يكن يعرف عنهم في الواقع إلا النزر اليسير.

بالنسبة إليهم، ظل دائمًا السيد أروندل، ولم يكن هناك بينهم من يناديه باسم «فرديناند». ولم يكن يعرف إلا القيل والقال المتاح أيضًا لصحف المساء ومرتادي النوادي. لكنه كان ماهرًا في الاختراع، وما إن وصل إلى نهاية المعلومات التي يعرفها معرفة مباشرة، حتى بدأ في الاختراع، للرد على استفساراتها وإبقائها معه هناك. بدا من السهل جدًّا ربط بعض الأشياء المسلية التي كان يفكر فيها باستمرار بأشخاص آخرين والتظاهر بأنها تخصهم. أما سكراب، التي أحست تجاه والديها بتلك المودة التي يزيد من دفئها الغياب، فقد كانت متعطشة إلى أخبارهما، وصارت مهتمة أكثر فأكثر بالأخبار التي نقلها تدريجيًّا.

في البداية، كانت أخبارًا عادية: التقى والدتها هنا، ورآها هناك، بدت في أحسن حال، وقالت كذا وكذا. لكن بمرور الوقت، اتخذت الأشياء التي قالتها الليدي درويتويتش طابعًا غير عادي، وأصبحت مسلية.

قاطعته سكراب بدهشة:

- هل قالت والدتي ذلك؟

وسرعان ما بدأت الليدي درويتويتش تفعل أشياء مسلية، بالإضافة إلى قولها.

سألته سكراب وقد اتسعت عيناها من الدهشة:

- هل فعلت والدتي ذلك؟

تحمَّس أروندل لعمله، ونسب إلى الليدي درويتويتش بعضًا من أكثر الأفكار الممتعة التي راودته مؤخرًا، إلى جانب أي أشياء لطيفة ومضحكة فعلها أحدهم، أو يمكن أن يفعلها أحدهم، لأنه كان في إمكانه تخيل أي شيء تقريبًا.

اتسعت عينا سكراب دهشة وفخرًا حنونًا بوالدتها. كم هو مضحك، تخيل والدتي... يا لها من عجوز عزيزة، هل فعلت ذلك حقًّا؟ كم هو لطيف جدًّا منها. وهل قالت حقًّا... لكن كم هو رائع أن تفكر في ذلك. وما شكل التعبير الذي ارتسم على وجه لويد جورج؟

ضحكت وضحكت، وصارت لديها رغبة شديدة في معانقة والدتها، ومر الوقت، وحل الغسق، حتى حل الظلام تقريبًا، وظل السيد أروندل يسليها، وبلغت الساعة الثامنة إلا الربع، قبل أن تتذكر العشاء فجأة.

وثبت واقفة وهي تصيح:

- أوه، يا إلهي!

قال أروندل:

- نعم، لقد تأخر الوقت.

- سأذهب بسرعة، وأرسل إليك الخادمة. يجب أن أهرع، وإلا فلن أكون مستعدة أبدًا في الوقت المناسب...

وصعدت الطريق بسرعة غزال صغير رشيق.

تبعها أروندل، ولم يرغب في الوصول وهو يشعر بالحرارة بدرجة زائدة

على الحد، لذا كان عليه أن يسير ببطء. ومن حسن الحظ، كان بالقرب من القمة، ونزلت فرانشيسكا من العريشة لإرشاده إلى الداخل، وبعد أن أوضحت له المكان الذي يمكنه الاغتسال فيه، أجلسته في غرفة الاستقبال الفارغة ليستريح بجانب مدفأة الحطب المشتعلة.

ابتعد عن النار قدر استطاعته، ووقف في إحدى فتحات النوافذ العميقة مطلًّا على أضواء ميتزاجو البعيدة. كان باب غرفة الاستقبال مفتوحًا، وكان المنزل هادئًا مع الصمت الذي يسبق العشاء، بينما النزلاء جميعًا في غرفهم يبدلون ملابسهم. كان بريجز في غرفته يلقي بربطة عنق تالفة تلو ربطة، وسكراب في غرفتها تسرع لارتداء فستان أسود، وقد طرأت عليها فكرة مبهمة بأن السيد بريجز لن يتمكن من رؤيتها بوضوح باللون الأسود، بينما كانت السيدة فيشر تثبت شال الدانتيل الذي يحول فستانها النهاري إلى فستان مسائي ليلًا، مستخدمة دبوس الزينة الذي أهداه إليها راسكن عند زواجها، والمكوَّن من زنبقتين من اللؤلؤ مربوطتين معًا بشريط من المينا كُتب عليه باللغة اللاتينية، بأحرف ذهبية: «فليكن دائمًا». وجلس السيد ويلكنز على حافة فراشه يمشط شعر زوجته - حيث تقدم في الأسبوع الثالث إلى ذلك الحد في التعبير عن مشاعره - بينما من جانبها، جلست هي على مقعد أمامه وركبت أزراره في قميص نظيف، وجلست روز أمام نافذتها بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها، تفكر في يومها.

كانت روز مدركة تمامًا لما حدث للسيد بريجز. وإذا كانت لديها أي شكوك بخصوص هذا الشأن، فقد أزالتها لوتي من خلال التعليقات الصريحة التي أدلت بها في أثناء جلوسها هي وروز معًا على الجدار بعد تناول الشاي. سعدت لوتي بدخول مزيد من الحب إلى سان سالفاتوري، حتى لو كان من جانب واحد فقط، وقالت إنه ما إن يصل زوج روز، ولا سيما بعد أن تخلصت السيدة فيشر أيضًا من تزمتها - اعترضت روز على هذا التعبير، فردَّت لوتي

أنه ورد لدى كيتس - لم تكن تعتقد أنه سيكون هناك مكان آخر في العالم يعج بالسعادة أكثر من سان سالفاتوري.

قالت لوتي وهي تؤرجح قدميها:

- قد يصل زوجك إلى هنا قريبًا جدًّا، وربما مساء الغد إذا انطلق في طريقه على الفور، وستكون هناك بضعة أيام أخيرة رائعة قبل أن نعود جميعًا إلى المنزل منتعشين مدى الحياة. لا أعتقد أن أيًّا منا سيعود كما كان مرة أخرى أبدًا، ولن أتفاجأ على الإطلاق إذا انتهى المطاف بكارولين وهي معجبة بذلك الشاب بريجز، فالأمر منتشر في الجو، ويجب أن تحب الناس هنا.

جلست روز عند نافذتها تفكر في هذه الأشياء. تفاؤل لوتي... ومع ذلك، فقد برره السيد ويلكنز، وانظر إلى السيدة فيشر أيضًا. لو أن الأمر تحقق أيضًا فيما يتعلق بفريدريك! حيث إن روز، التي توقفت عن التفكير في فريدريك بين الغداء والشاي، عادت تفكر فيه الآن، بين الشاي والعشاء، أكثر من أي وقت مضى.

لقد كان الأمر مضحكًا ومبهجًا، تلك الفترة القصيرة من الإعجاب، لكن بالطبع لا يمكن أن يستمر الأمر بمجرد ظهور كارولين. كانت روز تعرف قدرها، وكان في إمكانها أن ترى، مثل أي شخص آخر، الجمال غير العادي والفريد الذي تتمتع به الليدي كارولين. ومع ذلك، كم كانت أشياء مثل الإعجاب والتقدير تُشعر المرء بالدفء، وكم تجعله قادرًا على أن يكون جديرًا بها بالفعل، وكم تجعله يشعر بالتميز والتوهج. وبدا أن ذلك يحيي بعض الملكات التي لا يعرف المرء أنه يمتلكها. كانت متأكدة أنها كانت امرأة مسلية تمامًا بين الغداء والشاي، وجميلة أيضًا. كانت متأكدة تمامًا أنها كانت جميلة، حيث رأت ذلك في عينَي السيد بريجز بنفس الوضوح كما في المرآة. فكرت أنها لمدة قصيرة من الوقت، كانت مثل ذبابة خاملة عادت إلى الطنين بمرح بسبب إشعال النار في غرفة

شتوية. كانت مجرد الذكرى لا تزال تشعرها بالطنين والإثارة. كم كان الأمر ممتعًا، أن يكون لديك معجب حتى ولو لفترة قصيرة. لا عجب أن الناس يحبون وجود المعجبين. لقد بدا كأنهم، بطريقة غريبة، يعيدون الحياة إلى المرء.

وعلى الرغم من أن كل شيء قد انتهى، فإنها ما زالت تتوهج به، وتشعر بأنها أكثر بهجة وأكثر تفاؤلًا من أي وقت مضى منذ أن كانت فتاة صغيرة، مثلما تشعر لوتي باستمرار على الأرجح. ارتدت ملابسها بعناية، على الرغم من أنها تعلم أن السيد بريجز لن يراها بعد الآن، فإنه كان من دواعي سرورها أن ترى كم يمكنها أن تجعل نفسها تبدو جميلة، حينما تحاول ذلك. كادت تضع زهرة كاميليا قرمزية في شعرها أسفل أذنها. أمسكتها هناك لدقيقة، وبدت جذابة على نحو يكاد يكون آثمًا، وبدت مثل لون فمها تمامًا، لكنها أزالتها مرة أخرى بابتسامة وتنهيدة، ووضعتها في المكان المناسب للزهور وهو الماء. فكرت أنها لا يجب أن تكون سخيفة. عليها التفكير في الفقراء. وسرعان ما ستعود معهم مرة أخرى، وكيف سيبدو شكل الكاميليا خلف أذنها حينها؟ عجيب جدًّا، بكل بساطة.

لكنها كانت مصممة على شيء واحد: أول شيء ستفعله عندما تعود إلى المنزل هو أن تواجه فريدريك. إذا لم يأتِ إلى سان سالفاتوري فهذا ما ستفعله، أول شيء. كان ينبغي لها أن تفعل هذا منذ زمن طويل، لكن عندما كانت تحاول ذلك، دائمًا ما كان يعوقها حبها الشديد له، وخوفها الشديد من أن يُصاب قلبها البائس الهش بجروح جديدة. لكن فلتدعه الآن يجرحها بقدر ما يريد، وبقدر ما يستطيع، فستواجهه مع ذلك. لا يعني ذلك أنه سبق أن جرحها عامدًا، كانت تعلم أنه لم يقصد ذلك قَطُّ، وكانت تعلم أنه في كثير من الأحيان لم تكن لديه أي فكرة أنه فعل. فكرت روز أنه بالنسبة إلى كونه شخصًا يؤلف الكتب، لم يبدُ أن فريدريك يتمتع بكثير من الخيال. على أي حال، قالت لنفسها، وهي تنهض من طاولة الزينة، لا يمكن أن

تستمر الأمور على هذا النحو. سوف تواجهه. هذه الحياة المنفصلة، وهذه الوحدة الباردة، سئمت منها. لماذا لا تكون سعيدة هي أيضًا؟ لماذا بحق السماء - بدا ذلك التعبير القوي متناسبًا مع حالتها المزاجية المتمردة - لا يحق لها هي أيضًا أن تُحَب، وأن تُحِب؟

نظرت إلى ساعتها الصغيرة. ما زالت هناك عشر دقائق قبل موعد العشاء. سئمت البقاء في غرفة نومها، وفكرت في الذهاب إلى شرفات السيدة فيشر، والتي ستكون خالية في هذه الساعة، كي تشاهد القمر وهو يخرج من البحر.

توجهت إلى الردهة العلوية المهجورة بهذه النية، لكن جذبها في طريقها عبر الردهة وهج النار الذي سطع عبر الباب المفتوح لغرفة الاستقبال.

كم بدت مبهجة. بدلت النار الغرفة: كانت غرفة مظلمة وقبيحة في النهار، وتحولت تمامًا كما تحولت هي بدفء... لن تكون سخيفة، ستفكر في الفقراء، كان التفكير فيهم دومًا ما يعيدها إلى الرصانة في الحال.

اختلست النظر إلى الداخل: وهج النار، والزهور، وخارج الشقوق العميقة للنوافذ تدلى ستار الليل الأزرق. كم بدا ذلك جميلًا. يا له من مكان جميل، في سان سالفاتوري. وزهرة الليلك الرائعة تلك على الطاولة، لا بد أن تذهب وتدفن وجهها بها...

لكنها لم تصل إلى زهرة الليلك قَطُّ. تقدمت خطوة واحدة نحوها، ثم وقفت ساكنة، لأنها رأت الشخص الذي ينظر من النافذة في الزاوية البعيدة، وكان فريدريك.

اندفع كل الدم الموجود في جسد روز إلى قلبها، الذي بدا أنه توقف عن النبض.

فريدريك. لقد أتى.

وقفت ساكنة تمامًا. ولم يسمعها، ولم يلتفت. وقفت تنظر إليه. لقد حدثت المعجزة، وجاء.

وقفت تحبس أنفاسها. كان في حاجة إليها إذن، لأنه جاء على الفور. لا بد إذن أنه أيضًا كان يفكر ويشتاق...

كان قلبها، الذي بدا كأنه توقف عن النبض، يخنقها الآن بالطريقة التي تسارعت بها دقاته. كان فريدريك يحبها إذن... لا بد أنه يحبها، وإلا لماذا أتى؟ هناك شيء ما، ربما غيابها، جعله يلجأ إليها، ويريدها... والآن، سيصبح التفاهم الذي قررت الوصول إليه معه... سيصبح... سهلًا للغاية...

رفضت أفكارها الاستمرار، وتلعثم عقلها. عجزت عن التفكير، وصار في وسعها أن ترى وتشعر فحسب. لم تعرف كيف حدث ذلك. كانت معجزة. يستطيع الرب فعل المعجزات. لقد فعل الرب هذا. الرب يستطيع... الرب يستطيع... يستطيع.

تلعثم عقلها مرة أخرى، وسكت.

حاولت أن تقول: «فريدريك»، لكن لم يصدر أي صوت، أو إذا حدث، فقد غطته طقطقة النار.

يجب أن تقترب. بدأت تتسلل نحوه... بهدوء، بهدوء.

لم يتحرك، ولم يسمعها.

اقتربت أكثر فأكثر، وطقطقت النار ولم يسمع شيئًا.

توقفت للحظة وهي عاجزة عن التنفس. أحست بالخوف. ماذا لو أنه... ماذا لو أنه... أوه، لكنه أتى، لقد أتى.

تقدمت مرة أخرى، واقتربت منه، وخفق قلبها بصوت عالٍ إلى درجة أنها ظنت أنه لا بد أن يسمعه. ألم يمكنه أن يشعر... ألم يكن يعلم...

همست، وهي بالكاد قادرة حتى على الهمس، حيث اختنقت من نبضات قلبها:

– فريدريك.

دار على عقبيه.

صاح وهو يحدق بذهول:

- روز!

لكنها لم ترَ تحديقه، لأنها أحاطت عنقه بذراعيها، ووجنتها ملتصقة بوجنته، وأخذت تتمتم، وشفتاها على أذنه:

- كنت أعلم أنك ستأتي... في قرارة قلبي، دومًا، دومًا ما عرفت أنك ستأتي...

٢١

لم يكن فريدريك رجلًا ليؤذي أي شيء، لو أن له حيلة في الأمر، وعلاوة على ذلك، فقد غلبته الحيرة تمامًا. فلم تكن زوجته هنا فحسب - هنا، من بين جميع الأماكن في العالم - بل إنها تشبثت به كما لم تتشبث به منذ سنوات، وأخذت تغمغم بكلمات الحب وترحب به. إذا رحبت به، فلا بد أنها كانت تنتظره. وعلى الرغم من غرابة ذلك، فقد كان الشيء الوحيد الواضح في الموقف هو نعومة وجنتها على وجنته، ورائحتها الطيبة التي نسيها منذ زمن طويل.

كان فريدريك في حيرة من أمره، لكن بما أنه لم يكن رجلًا ليؤذي أي شيء، لو أن له حيلة في الأمر، فقد أحاطها هو الآخر بذراعيه، وبعد أن أحاطها بهما، قبَّلها أيضًا. وسرعان ما أخذ يقبِّلها بحنان يكاد يضاهي حنانها وهي تقبِّله، وبعد قليل باتت قبلاته بنفس قدر حنان قبلاتها، إلى أن صار يقبِّلها بحنان يفوق حنانها، كما لو أنه لم ينقطع عن ذلك قَطُّ.

غلبته الحيرة، إلا أنه كان لا يزال قادرًا على أن يقبِّلها. بدا من الطبيعي على نحو غريب أن يفعل ذلك. جعله هذا يشعر كما لو أنه في الثلاثين مرة أخرى بدلًا من الأربعين، وأن روز هي روز التي عرفها وهي في العشرين، روز التي عشقها كثيرًا، قبل أن تبدأ في تقييم ما يفعله وفقًا لفكرتها عن الصواب، وانقلب الميزان ضده، وتحولت هي وصارت غريبة وباردة، ومصدومة أكثر فأكثر، وبائسة للغاية. عجز عن الوصول إليها تمامًا في

تلك الأيام، ورفضت أن تفهم، وعجزت عن ذلك. ظلت تُرجع كل شيء إلى ما أسمته «عينَي الرب»: لا يمكن أن يكون هذا صائبًا في عينَي الرب، هذا ليس صائبًا. أما وجهها البائس - بصرف النظر عما أفادتها به مبادئها، إلا أنها لم تجعلها سعيدة - وجهها الصغير البائس الذي التوت قسماته من الجهد الذي تبذله لتتمكن من الصبر، فصار أكثر مما يحتمل رؤيته في نهاية المطاف، فابتعد قدر الإمكان. لم يكن ينبغي لها قَطُّ أن تكون ابنة كاهن بالكنيسة، شيطانًا ضيق الأفق، حيث لم تكن مؤهلة على الإطلاق للوقوف في وجه هذه التنشئة.

ماذا حدث، ولماذا كانت موجودة هنا، ولماذا عادت لتصير روز التي عرفها مرة أخرى؟ تجاوزت كل هذه الأمور قدرته على الفهم، وفي غضون ذلك، إلى أن يتمكن من الفهم، كان لا يزال في وسعه تقبيلها. وفي الواقع، لم يستطع التوقف عن تقبيلها، وبدأ هو الآن يغمغم بكلمات الحب في أذنها، تحت شعرها ذي الرائحة الطيبة للغاية، الذي دغدغه في أنفه، كما تذكر أنه كان يدغدغه من قبل.

وبينما كان يضمها إلى قلبه، وذراعاها ناعمتان حول رقبته، شعر بإحساس لذيذ يتسلل إليه، لم يعرف ما هو في البداية، هذا الدفء الرقيق المنتشر، ثم تعرَّف عليه بوصفه شعورًا بالأمان. نعم، الأمان. لم تكن لديه حاجة الآن إلى الخجل من قوامه، وإلقاء النكات بهذا الشأن لتفادي نكات الآخرين وإظهار أنه لا يمانع في ذلك، ولا حاجة له الآن إلى الخجل من أنه يُصاب بالإرهاق في أثناء صعود التلال، أو لأن يعذب نفسه بتصور كيف يبدو على الأرجح أمام الشابات الجميلات، وكم يبدو سخيفًا لعدم قدرته على الابتعاد عنهن وهو في منتصف العمر. لم تهتم روز بمثل هذه الأشياء. كان آمنًا معها. كان بالنسبة إليها حبيبها، كما كان في السابق، ولن تلاحظ أو تمانع أبدًا أيًّا من التغييرات المخجلة التي أحدثها تقدمه في السن، وسيستمر في إحداث المزيد والمزيد.

لذلك، واصل فريدريك تقبيل زوجته بدفء متزايد وبهجة متزايدة، ومجرد ضمها بين ذراعيه جعله ينسى كل شيء آخر. كيف يمكنه مثلًا، أن يتذكر أو يفكر في الليدي كارولين، على سبيل المثال لا الحصر، كواحدة من التعقيدات التي يزخر بها موقفه، بينما عادت إليه زوجته اللطيفة بأعجوبة، ووجنتها ملتصقة بوجنته وهي تهمس إليه بأشد كلمات الرومانسية الرقيقة عن مدى حبها له، وكم افتقدته بشدة؟ وللحظة وجيزة، لأنه حتى في لحظات الحب توجد لحظات قصيرة من التفكير الواضح، أدرك القوة الهائلة للمرأة الحاضرة بين ذراعيه في الواقع، مقارنة بتلك المرأة الموجودة في مكان آخر، مهما بلغ قدر جمالها، لكن هذا هو أقصى حدٍّ وصل إليه في تفكيره بسكراب، ولم يصل إلى أبعد من ذلك. بدت كالحلم، الذي يهرب أمام ضوء الصباح.

تمتمت روز وفمها على أذنه:

- متى انطلقت في طريقك؟

لم تستطع أن تفلته، ولا حتى للحديث، لم تستطع أن تفلته.

غمغم فريدريك وهو يضمها قريبًا منه:

- صباح أمس.

ولم يستطع أن يفلتها هو أيضًا.

غمغمت روز:

- أوه، على الفور إذن.

بدا الأمر مبهمًا، لكن فريدريك قال وهو يقبِّل عنقها:

- نعم، على الفور.

تمتمت روز وقد أغمضت عينيها من فرط سعادتها:

- كم وصلت رسالتي إليك سريعًا.

قال فريدريك، الذي شعر برغبة في إغلاق عينيه هو أيضًا:

- أليس كذلك؟

إذن كانت هناك رسالة. سرعان ما سيتضح له الأمر، بلا شك، وفي هذه الأثناء، كان الأمر غريبًا جدًّا، ولطيفًا على نحو مؤثر، وهو يضم روز إلى قلبه مرة أخرى بعد كل هذه السنوات، حتى إنه لم يكلف نفسه عناء محاولة تخمين أي شيء. أوه، لقد نعم بالسعادة خلال تلك السنوات، لأن التعاسة لم تكن من طباعه، إلى جانب الاهتمامات المتنوعة التي قدمتها له الحياة، والأصدقاء العديدون، والنجاح الواسع، والكثير من النساء الراغبات في مساعدته على أن ينسى التفكير في زوجته المتغيرة الباردة البائسة الموجودة في المنزل، والتي ترفض إنفاق أمواله، والتي تصدمها كتبه، والتي ابتعدت عنه أكثر فأكثر، وكلما حاول مواجهتها دائمًا ما كانت تسأله بعناد وصبر كيف يبدو في عينَي الرب ما يكتبه ويكسب منه لقمة عيشه، حسب اعتقاده. قالت ذات مرة:

- لا ينبغي لأحد أن يكتب كتابًا لا يرغب الرب في قراءته. هذا هو الاختبار يا فريدريك.

وقد ضحك بشكل هستيري، وانفجر في نوبة عظيمة من الضحك، وأسرع للخروج من المنزل، بعيدًا عن وجهها الصغير الجاد، بعيدًا عن وجهها الصغير الجاد البائس...

لكن روز هذه كانت هي التي عرفها في شبابه، في أفضل وقت من حياته، الوقت الذي راودته فيه كل الرؤى وكل الآمال. كم حلما معًا، هو وهي، قبل أن يقع على فكرة كتابة المذكرات، كم خططا، وضحكا، وأحبَّا بعضهما. عاشا فترة من الوقت في قلب الشعر نفسه. وبعد الأيام السعيدة، جاءت الليالي السعيدة، الليالي السعيدة للغاية، وهي نائمة بالقرب من قلبه، وكانت تظل قريبة من قلبه إلى أن يستيقظ في الصباح، لأنهما بالكاد ما كانا يتحركان في نومهما العميق السعيد. كان من الرائع أن تعود إليه ذكرى كل شيء بمجرد لمسها، والإحساس بوجهها ملاصقًا لوجهه، ومن الرائع أن تكون قادرة على إعادته إلى شبابه.

تمتم وقد غلبته الذكرى، وهو متشبث بها الآن بدوره:

- يا حبيبتي، يا حبيبتي.

همست إليه:

- يا زوجي الحبيب.

يا للنعيم، يا للنعيم المطلق...

دخل بريجز قبل بضع دقائق من دق الناقوس، نظرًا إلى احتمال وجود الليدي كارولين هناك، واندهش للغاية، حيث افترض أن روز أربوثنوت أرملة، وكان لا يزال يعتقد ذلك، لهذا كانت دهشته شديدة.

فكر بريجز بصراحة ووضوح: «يا للهول!»، حيث أذهلته صدمة ما شاهده عند النافذة بشدة، إلى درجة أنه تحرر للحظة من استغراقه المرتبك في أفكاره.

قال بصوت مرتفع، وقد تضرج وجهه بشدة:

- أوه، أستميحكما عذرًا.

ثم وقف مترددًا، وهو يتساءل عما إذا كان ينبغي له العودة إلى غرفة نومه مرة أخرى.

لو لم يقل شيئًا لما لاحظا وجوده هناك، لكن عندما طلب منهما السماح، استدارت روز ونظرت إليه كما ينظر الشخص الذي يحاول أن يتذكر، ونظر إليه فريدريك أيضًا من دون أن يراه على الإطلاق في البداية.

اعتقد بريجز أنه لم يبدُ أنهما يمانعان، أو يشعران بالحرج على الإطلاق. لا يمكن أن يكون شقيقها، فلم يسبق لأي شقيق أن وجَّه تلك النظرة إلى وجه شقيقته. كان الأمر محرجًا للغاية. وعلى الرغم من أنهما لم يكن لديهما مانع، فإنه كان يمانع، حيث أزعجته رؤية عذرائه وهي تنسى نفسها على ذلك النحو.

تمكن فريدريك من سؤال روز بعد لحظة:

- هل هذا أحد أصدقائك؟

حيث لم تحاول تقديم الشاب الذي وقف أمامهما بحرج، بل واصلت النظر إليه بنوع من المودة المشرقة الشاردة.

تعرَّفت عليه روز، وقالت:

- إنه السيد بريجز.

ثم أضافت:

- وهذا زوجي.

وسنح لبريجز ما يكفي من الوقت وهو يصافحه، كي يفكر في كم هو مدهش أن يكون للمرأة زوج وهي أرملة، قبل أن يُقرع الناقوس. ستأتي الليدي كارولين خلال دقيقة. لم يعد قادرًا على التفكير قَطُّ، وأصبح مجرد شيء عيناه مثبتتان على الباب.

دخل من الباب على الفور، فيما بدا له موكبًا لانهائيًّا، أولًا السيدة فيشر، وهي بالغة الأناقة في شالها المسائي المصنوع من الدانتيل ودبوس زينتها، وعندما رأته استرخت على الفور، ووجهت إليه ابتسامات ودودًا، لكنها تصلبت مرة أخرى عندما وقع نظرها على الرجل الغريب، وبعد ذلك دخل السيد ويلكنز، أكثر الرجال نظافة وأناقة وهندامًا على وجه الأرض، ثم تلته السيدة ويلكنز وهي تربط شيئًا على عجل، وبعد ذلك لا أحد.

تأخرت الليدي كارولين. أين هي؟ ألم تسمع الناقوس؟ هل يجب أن يُدق مرة أخرى؟ ماذا لو أنها لم تأتِ لتناول العشاء في نهاية المطاف...

سرت البرودة في جسد بريجز.

قال فريدريك عند دخول السيدة فيشر، وهو يلمس مرفق روز:

- فلتقدميني.

قالت روز وهي تمسك بيده، وقد بدا وجهها رائعًا:

- هذا زوجي.

فكرت السيدة فيشر: «لا بد أن يكون هذا آخر الأزواج الآن، ما لم تخرج الليدي كارولين واحدًا من جعبتها».

لكنها استقبلته بلطف، لأنه كان يبدو بالتأكيد مثل الزوج تمامًا، وليس على الإطلاق مثل أولئك الأشخاص الذين يسافرون إلى الخارج ويتظاهرون بأنهم

أزواج في حين أنهم ليسوا كذلك، وقالت إنها تفترض أنه جاء ليصطحب زوجته إلى المنزل عند نهاية الشهر، وعلقت أن المنزل الآن سيكون ممتلئًا تمامًا. ثم أضافت وهي تبتسم لبريجز:

- لذا سنحصل أخيرًا على مقابل أموالنا.

ابتسم بريجز تلقائيًّا، لأنه كان قادرًا فحسب على إدراك أن هناك من يمازحه، لكنه لم يسمعها ولم ينظر إليها. لم تكن عيناه فقط مثبتتين على الباب، بل انصب تركيز جسده بأكمله عليه.

بعد تقديم السيد ويلكنز بدوره، بدا مضيافًا للغاية، وأخذ يدعو فريدريك بلقب «سيدي».

قال السيد ويلكنز بحرارة:

- حسنًا يا سيدي، ها نحن أولاء، ها نحن أولاء.

وبعد أن أمسك يده بتفهم لم يكن متبادلًا، لأن أربوثنوت لم يكن يعرف بعد ما الذي سيواجهه من المتاعب، نظر إليه كما ينبغي للرجل، في عينيه مباشرة، وترك نظرته تنقل بكل الوضوح الذي يمكن أن تنقله النظرة، أنه سيجد لديه الثبات والنزاهة والموثوقية، وفي الواقع سيجده صديقًا في وقت الحاجة. لاحظ السيد ويلكنز أن السيدة أربوثنوت بدت متوردة للغاية، ولم يسبق أن رآها متوردة على ذلك النحو من قبل. فكر: «حسنًا، أنا الرجل المناسب لهم».

حيَّته لوتي بحرارة، بكلتا يديها، وضحكت قائلة لروز من وراء كتفها بينما فريدريك يصافحها بكلتا يديه:

- ألم أقل لكِ؟

سألها فريدريك، كي يقول شيئًا:

- ماذا قلتِ لها؟

بدت طريقة ترحيب الجميع به مربكة، فمن الواضح أنهم جميعًا كانوا يتوقعون مجيئه، وليست روز فقط.

لم تجِب الشابة اللطيفة التي لها شعر بلون الرمل عن سؤاله، لكنها بدت سعيدة للغاية لرؤيته. لماذا بدت سعيدة للغاية لرؤيته؟

تفوَّه فريدريك بأول ملاحظة خطرت على باله، وقال وهو في حيرة من أمره:

- يا له من مكان مبهج.

قالت الشابة ذات الشعر الذي بلون الرمل، بحرارة حيرته أكثر من ذي قبل:

- إنه برميل من الحب.

وزادت حيرته عند الكلمات التالية التي سمعها، عندما قالت السيدة العجوز:

- لن ننتظر. دائمًا ما تتأخر الليدي كارولين.

لأنه عندها فقط، عندما سمع اسمها، تذكر الليدي كارولين حقًّا كما يجب، وأربكه التفكير فيها إلى أقصى حد.

دخل إلى غرفة الطعام كرجل في المنام. لقد أتى إلى هذا المكان لرؤية الليدي كارولين، وأخبرها بذلك. حتى إنه أخبرها ببلاهته - هذا صحيح، كم كان أبله - أنه لم يتمكن من منع نفسه من المجيء. لم تكن تعلم أنه متزوج، وكانت تعتقد أن اسمه «أروندل». كان الجميع في لندن يعتقدون أن اسمه «أروندل». استخدمه، وكتب تحت ذلك الاسم المستعار فترة طويلة، إلى درجة أنه كاد يعتقد أنه هو نفسه. وفي الفترة القصيرة منذ أن تركته على مقعد الحديقة، حيث أخبرها بأنه أتى لأنه لم يستطع منع نفسه من ذلك، وجد روز مرة أخرى، وتبادلا العناق بشغف، ونسي الليدي كارولين. سيكون من حسن الحظ لو أن تأخُّر الليدي كارولين يعني أنها متعبة أو تشعر بالملل، ولن تأتي لتناول العشاء أبدًا. حينها سيستطيع... لا، لن يتمكن من ذلك. عند التفكير في مثل ذلك الجبن، تضرج بالحمرة على نحو أشد من المعتاد حتى، حيث كان رجلًا سمينًا وبشرته مشوبة بالحمرة على أي حال. لا، لا يستطيع الرحيل بعد العشاء، واللحاق بقطاره والاختفاء في روما، ليس إلا إذا جاءت روز معه. لكن حتى مع ذلك، يا لها من طريقة للفرار. لا، لا يستطيع ذلك.

عندما وصلوا إلى غرفة الطعام، توجهت السيدة فيشر إلى رأس الطاولة. سأل نفسه: «هل هذا منزل السيدة فيشر؟»، لم يكن يعلم، لم يكن يعرف أي شيء. أما روز، التي كانت تتخذ مكانها عند الطرف الآخر من المائدة في الأيام الأولى التي كانت تتحدى فيها السيدة فيشر، لأنه في النهاية لا يمكن لأحد أن يميز من خلال النظر إلى الطاولة أي طرف من الطرفين يمثل رأسها وأيهما يمثل نهايتها، فقد قادت فريدريك إلى المقعد المجاور لها. فكر لو أنه تمكن من الانفراد مع روز فحسب، مجرد خمس دقائق أخرى فقط مع روز على انفراد، حتى يتمكن من سؤالها...

لكنه لم يكن سيسألها شيئًا على الأرجح، بل كان سيستمر في تقبيلها فحسب.

تلفت حوله. كانت الشابة ذات الشعر الذي بلون الرمل تطلب من الرجل الذي أطلقوا عليه اسم «بريجز» أن يذهب ويجلس بجانب السيدة فيشر. هل كان المنزل ملكها إذن، وليس ملكًا للسيدة فيشر؟ لم يكن يعلم، لم يكن يعرف أي شيء. وجلست هي نفسها على الجانب الآخر من روز، بحيث صارت مقابله، مقابل فريدريك، وبجوار الرجل اللطيف الذي قال: «ها نحن أولاء»، في حين كان من الواضح جدًّا أنهما هناك بالفعل.

بجوار فريدريك، وبينه وبين بريجز، كان هناك كرسي فارغ: كرسي الليدي كارولين. لم تكن الليدي كارولين على علم بوجود روز في حياة فريدريك، أكثر مما كانت روز على علم بوجود الليدي كارولين في حياة فريدريك. ما الذي ستعتقده كلٌّ منهما؟ لم يكن يعلم، لم يكن يعرف أي شيء. نعم، كان يعرف شيئًا ما، وهو أن زوجته تصالحت معه، فجأة، وبأعجوبة، وعلى نحو غير مفهوم، وبطريقة رائعة. فيما عدا ذلك، لم يكن يعرف أي شيء. شعر بأنه لا يستطيع التعامل مع الوضع، ولا بد أن يدعه يقوده حيثما شاء، ولن يسعه سوى مسايرته.

تناول فريدريك حساءه في صمت، وشعر بأن العينين الواسعتين المعبرتين

للشابة الجالسة قبالته مثبتتان عليه، وبهما نظرة متزايدة من التساؤل. رأى أنهما عينان ذكيتان للغاية وجذابتان، وإلى جانب التساؤل، كانتا مليئتين بالود. ربما اعتقدت أنه ينبغي له أن يتحدث، لكنها لو عرفت الموقف برمته، لما اعتقدت ذلك. لم يتحدث بريجز أيضًا، وبدا منزعجًا. ما خطب بريجز؟ كما لم تتحدث روز أيضًا، لكن ذلك كان طبيعيًّا. لم تكن متحدثة قَطُّ. علا وجهها أجمل تعبير. كم من الوقت سيدوم بعد دخول الليدي كارولين؟ لم يكن يعلم، لم يكن يعرف أي شيء.

لكن الرجل اللطيف الجالس على يسار السيدة فيشر أخذ يتحدث بما فيه الكفاية للجميع. كان يجب أن يكون ذلك الرجل قسًّا. بدت المنابر هي المكان المناسب لصوت مثل صوته، الذي سيساعده على أن يصبح أسقفًا في غضون ستة أشهر. كان يشرح لبريجز، الذي أخذ يتململ في مقعده - لماذا كان بريجز يتململ في مقعده؟ - أنه لا بد أن يكون قد أتى في القطار نفسه الذي وصل به السيد أربوثنوت، وعندما لم يقل بريجز شيئًا، وتلوى في مكانه باعتراض واضح، أخذ على عاتقه أن يثبت ذلك له، وأثبته له بجمل طويلة واضحة.

سأل فريدريك روز بصوت هامس:

- من هو الرجل صاحب الصوت؟

فأجابته الشابة الجالسة قبالته، التي بدا أن أذنيها تتمتعان بحدة سمع الكائنات البرية:

- إنه زوجي.

تمالك فريدريك نفسه، وقال بلطف:

- إذن، وفقًا لجميع القواعد، يجب ألا تجلسي بجانبه.

- لكنني أريد ذلك. أحب الجلوس بجانبه. لم أكن أفعل ذلك قبل مجيئي هنا.

لم يستطع فريدريك التفكير في شيء يقوله للرد على هذا الأمر، لذلك اكتفى بالابتسام بشكل عام.

قالت وهي تومئ إليه برأسها:

- إنه هذا المكان. إنه يساعد المرء على الفهم. ليست لديك أدنى فكرة عن مدى ما ستفهمه قبل أن ترحل من هنا.

قال فريدريك بحماسة حقيقية:

- آمل ذلك، بكل تأكيد.

ثم رُفعت أطباق الحساء، وقُدم السمك، وبدا بريجز على الجانب الآخر من الكرسي الخالي أكثر قلقًا من أي وقت مضى. ما خطب بريجز؟ ألا يحب السمك؟

تساءل فريدريك إلى أي مدى سيتململ بريجز لو أنه في مثل موقفه. ظل فريدريك يمسح شاربه، ولم يستطع رفع عينيه عن طبقه، لكنه لم يظهر من شعوره قدرًا أكبر من ذلك.

وعلى الرغم من أنه لم يرفع نظره، فإنه شعر بعينيَ الشابة الجالسة قبالته تتفحصانه مثل الأضواء الكاشفة، كما كان يعلم أن عينَي روز عليه أيضًا، لكنهما استقرتا عليه من دون تساؤل، على نحو جميل، كما لو أنها تباركه. إلى متى ستستمر في ذلك، بعد وصول الليدي كارولين؟ لم يكن يعلم، لم يكن يعرف أي شيء.

مسح شاربه من دون ضرورة للمرة العشرين، ولم يتمكن من إبقاء يده ثابتة تمامًا، ورأت الشابة الجالسة قبالته أن يده لم تكن ثابتة تمامًا، فظلَّت عيناها تتفحصانه باستمرار. لماذا تفحصته عيناها بإصرار؟ لم يكن يعلم، لم يكن يعرف أي شيء.

ثم وثب بريجز واقفًا على قدميه. ما خطب بريجز؟ أوه... أجل... بالضبط: لقد جاءت.

مسح فريدريك شاربه ونهض هو أيضًا. سيواجه ورطة الآن. يا له من موقف سخيف وغريب. حسنًا، أيًّا كان ما سيحدث، فلن يسعه إلا أن يساير الأمر... يسايره ويبدو أحمق أمام الليدي كارولين، أحمق تمامًا ومخادعًا

أيضًا. أحمق، وإضافة إلى ذلك وغد، لأنها قد تظن أنه كان يسخر منها في الحديقة عندما قال، بلا شك بصوت مرتجف - غبي وأحمق - إنه جاء لأنه لم يستطع منع نفسه من ذلك. أما بالنسبة إلى كيف سيبدو أمام روز، عندما تقدمه لها الليدي كارولين... عندما تقدمه الليدي كارولين بوصفه صديقها الذي دعته إلى تناول العشاء... حسنًا، الرب وحده يعلم ذلك.

ولهذا، عندما قام، مسح شاربه للمرة الأخيرة قبل وقوع الكارثة.

لكنه لم يضع سكراب في حسبانه.

انزلقت تلك الشابة البارعة الخبيرة إلى الكرسي الذي أمسكه لها بريجز، وعندما انحنت لوتي إلى الأمام بحماس، وقالت قبل أن يتمكن أي شخص آخر من الحديث:

- تخيلي يا كارولين، كم وصل زوج روز إلى هنا سريعًا!

التفتت إليه من دون أدنى أثر للدهشة على وجهها، ومدت إليه يدها وابتسمت كملاك صغير وقالت:

- وهأنذا قد تأخرت، في أول أمسية لك هنا.

سليلة آل درويتويتش...

٢٢

كان ذلك المساء هو مساء اكتمال القمر بدرًا، والحديقة مكان ساحر بدت فيه كل الزهور بيضاء اللون. الزنابق، والدفنة، وزهور البرتقال، وزهور القرنفل البيضاء، والورد الأبيض، كان يمكن رؤيتها كما في وضح النهار، لكن وجود الزهور الملونة اتضح من أريجها فحسب.

جلست الشابات الثلاث على الجدار المنخفض عند نهاية الحديقة العلوية بعد العشاء، وجلست روز بعيدة بعض الشيء عن الأخريين، وشاهدن القمر الهائل يتحرك ببطء فوق المكان الذي عاش فيه شيلي الأشهر الأخيرة من عمره قبل مائة عام فقط. ارتعش البحر عبر مسار القمر، وغمزت النجوم وارتجفت. بدت الجبال خطوطًا زرقاء ضبابية، وتألقت مجموعات صغيرة من الأضواء من تجمعات المنازل الضئيلة. وفي الحديقة، وقفت النباتات ساكنة تمامًا ومنتصبة، من دون أن تتأثر بأصغر هبة من الهواء. من خلال الأبواب الزجاجية، توهجت غرفة الطعام مثل كهف سحري ملون، بطاولتها المضاءة بالشموع، والزهور الرائعة فوقها - كانت زهور «أبو خنجر» وزهور القطيفة في تلك الليلة - وعند النظر إليهم من وسط الصمت، والهدوء البارد الهائل في الخارج، بدا الرجال الثلاثة الذين يدخنون حولها كأنهم شخصيات تتحرك بشكل غريب.

ذهبت السيدة فيشر إلى غرفة الاستقبال، حيث توجد نار المدفأة. ورفعت سكراب ولوتي وجهيهما نحو السماء، ولم تتفوَّها إلا بالقليل،

همسًا. أما روز فلم تقل شيئًا. رفعت وجهها هي أيضًا نحو الأعلى، وأخذت تتأمل شجرة الصنوبر التي تحولت إلى شيء رائع وهي مظللة على خلفية من النجوم. بين الحين والحين، علقت عينا سكراب على روز، وكذلك عينا لوتي، حيث بدت روز جميلة. في أي مكان في تلك اللحظة، وبين كل الجميلات المعروفات، كانت ستُعد جميلة. لم يكن في وسع أحد أن يضعها في الظل أو يطفئ نورها في ذلك المساء، حيث بدت مشرقة على نحو شديد الوضوح.

انحنت لوتي بالقرب من أذن سكراب، وهمست قائلة:

- إنه الحب.

أومأت سكراب، وقالت همسًا:

- أجل.

وكان عليها الاعتراف بذلك. كل ما عليك فعله هو أن تنظر إلى روز، لتعرف أن هذا هو الحب.

همست لوتي:

- لا يوجد شيء يشبهه.

لزمت سكراب الصمت.

همست لوتي بعد فترة من الصمت، راقبتا خلالها وجه روز المرفوع نحو الأعلى:

- إنه شيء عظيم، أن يواصل المرء محبته. ربما يمكنك أن تخبريني عن أي شيء آخر في العالم يصنع مثل هذه العجائب.

لكن سكراب لم تستطع أن تخبرها، وإذا كان في إمكانها ذلك، فيا لها من ليلة لتبدأ فيها الجدال. كانت هذه ليلة لـ...

تمالكت نفسها. الحب مرة أخرى. كان في كل مكان، ولم يكن هناك مفر منه. لقد جاءت إلى هذا المكان لتبتعد عنه، وها هم أولاء جميعًا هنا في مراحله المختلفة. وحتى السيدة فيشر، بدت كأنها قد لامست ريشة

من الريش الكثيف لجناح الحب، وبدت مختلفة على العشاء، ومليئة بالقلق لأن السيد بريجز لم يأكل، وكان وجهها عندما التفتت إليه مليئًا بالحنان الأمومي.

نظرت سكراب إلى شجرة الصنوبر التي ظلت بلا حراك بين النجوم. يدفعك الجمال إلى الوقوع في الحب، ويجعلك الحب جميلًا...

جذبت دثارها حولها بإحكام أشد، في حركة دفاعية للإبعاد والابتعاد. لم تكن تريد أن تصبح عاطفية. بدا من الصعب عدم القيام بذلك هنا، حيث يتسلل الليل الرائع إلى كل شقوق المرء، ويجلب معه، سواء أراد المرء أم لا، مشاعر هائلة... مشاعر لا يستطيع المرء التحكم فيها، مشاعر عظيمة عن الموت والوقت والضياع، أشياء رائعة ومدمرة، باهرة وموحشة، النشوة، والرعب، والشوق الهائل الذي يفطر القلب في الوقت نفسه. شعرت بالضآلة والوحدة على نحو مخيف. أحست أنها مكشوفة، وعزلاء. أحكمت دثارها حولها على نحو غريزي، كما لو أنها تحاول حماية نفسها من الأبدية بقطعة الشيفون هذه.

همست لوتي:

- أعتقد أن زوج روز يبدو لكِ مجرد رجل عادي، لطيف المعشر، في منتصف العمر.

أبعدت سكراب نظرها عن النجوم، ونظرت إلى لوتي للحظة، بينما ذهنها يعود إلى التركيز مرة أخرى.

همست لوتي:

- مجرد رجل ذي بشرة محمرة، وممتلئ القوام نوعًا ما.

أحنت سكراب رأسها.

همست لوتي:

- إنه ليس كذلك، وترى روز ما وراء هذا كله. هذه مجرد زركشة من الخارج، لكنها ترى ما لا نستطيع رؤيته، لأنها تحبه.

دائمًا الحب.

نهضت سكراب، ولفت نفسها بدثارها بإحكام شديد، وتوجهت إلى ركنها النهاري، وجلست هناك بمفردها فوق الجدار، ونظرت عبر البحر الآخر، البحر الذي غابت فيه الشمس، البحر الذي يمتد فيه ظل فرنسا البعيد الخافت.

نعم، الحب يصنع العجائب، وكان السيد أروندل - لم تستطع التعود على اسمه الآخر على الفور - هو الحب نفسه بالنسبة إلى روز، لكنه كان يصنع العجائب المقلوبة أيضًا، ولم يكن يحول الناس دائمًا إلى قديسين وملائكة، كما كانت تعرف جيدًا. بل كان يحدث عكس ذلك، على نحو خطير في بعض الأحيان. وقد حدث لها ذلك في حياتها بشكل زائد. لو أن الحب تركها وشأنها، أو لو أنه كان معتدلًا وغير متكرر على الأقل، فكرت أنها لربما صارت في النهاية إنسانًا لطيفًا وحنونًا، طيب القلب. لكن كيف كانت طباعها، بفضل هذا الحب الذي تحدثت عنه لوتي كثيرًا؟ بحثت سكراب عن وصف عادل. كانت عانسًا مدللة، مفعمة بالمرارة، وشكاكة، وأنانية.

انفتحت الأبواب الزجاجية لغرفة الطعام، وخرج الرجال الثلاثة إلى الحديقة، وتدفق أمامهم صوت السيد ويلكنز. بدا أنه انفرد بالحديث، ولم يقل الاثنان الآخران شيئًا.

ربما كان من الأفضل لها أن تعود إلى لوتي وروز، حيث سيكون من المزعج أن يكتشف السيد بريجز وجودها، ويحاصرها في ذلك الطريق المسدود.

نهضت على مضض، واعتبرت أنه من غير المغتفر أن يجبرها السيد بريجز على التحرك بهذه الطريقة، ويجبرها على الخروج من أي مكان ترغب في الجلوس فيه، وخرجت من بين شجيرات الدفنة وهي تشعر بأنها شخص كئيب وصارم مليء بالاستياء الذي له ما يبرره، وتمنت لو

أنها تبدو كئيبة وصارمة مثلما تشعر، كي تثير النفور في روح السيد بريجز، وتتحرر منه. لكنها كانت تعلم أنها لا تبدو هكذا، مهما بذلت من جهد في المحاولة. في أثناء العشاء، ارتجفت يده وهو يشرب، ولم يتمكن من التحدث معها من دون أن يتخضب حتى يتحول إلى اللون القرمزي، ثم يصبح شاحبًا، وسعت عينا السيدة فيشر وراء عينيها تناشدانها، كمن يطلب ألا يتأذى ابنها الوحيد.

عبست سكراب وهي تفكر بينما هي تخرج من زاويتها، كيف يمكن لإنسان، كيف يمكن لرجل خُلق في صورة الرب، أن يتصرف على هذا النحو؟ وكانت على ثقة من أنه مؤهل لما هو أفضل من ذلك، بشبابه وجاذبيته وعقله. كان يتمتع بالعقل. تفحصته بحذر في أثناء العشاء، كلما أجبرته السيدة فيشر على الالتفات كي يرد عليها، وكانت متأكدة أنه يتمتع بالعقل. كما كان يتمتع بالشخصية أيضًا، وكان ثمة شيء نبيل في رأسه، وهيئة جبينه... كان نبيلًا وحنونًا. وهذا كان يدعو إلى الشعور بالأسف على نحو أكبر، لأنه ترك نفسه يفتتن بمجرد مظهر خارجي، وأهدر قواه وراحة باله وهو يحوم حول امرأة. لو أنه تمكن أن يرى من خلالها مباشرة، عبر بشرتها وكل شيء آخر، فسوف يتعافى، وقد يمكنها الاستمرار في الجلوس بمفردها من دون إزعاج، في هذه الليلة الرائعة.

خلف شجيرات الدفنة مباشرة، التقت فريدريك الذي أتى مسرعًا.

قال:

- صممت على العثور عليكِ أولًا، قبل أن أذهب إلى روز.

ثم أضاف بسرعة:

- أريد أن أُقبِّل حذاءك.

ابتسمت سكراب قائلة:

- أتريد ذلك حقًّا؟ إذن يجب أن أذهب وأرتدي حذائي الجديد، فهذا ليس جيدًا بما يكفي.

شعرت بود كبير نحو فريدريك، فهو لن يتشبث بها بعد الآن، على الأقل، حيث انتهت أيام تشبثه القصيرة والمفاجئة. كان رجلًا لطيفًا وطيبًا، وصارت تميل إليه الآن بكل تأكيد. من الواضح أنه كان في ورطة من نوع ما، وشعرت بالامتنان للوتي لأنها منعتها في الوقت المناسب في أثناء العشاء، من أن تقول شيئًا يعقد الأمور بشكل ميؤوس منه. لكن أيًّا ما كان الذي تورط فيه، فقد تخلص منه الآن، وبدا وجهه ووجه روز متألقين بنفس الضوء.

قال فريدريك:

- سأعشقكِ إلى الأبد الآن.

ابتسمت سكراب وهي تقول:

- حقًّا؟

- كنت أعشقكِ من قبل بسبب جمالك، والآن أعشقك لأنكِ لست جميلة كالحلم فحسب، بل لأنكِ كريمة كرجل.

ضحكت سكراب وهي تجد الأمر مسليًا، وقالت:

- هل أنا كذلك بالفعل؟

واصل فريدريك قائلًا:

- عندما أعلنت تلك الشابة المتهورة، تلك الشابة المتهورة باركها الرب، أعلنت في اللحظة الأخيرة أنني زوج روز، تصرفتِ تمامًا كما يتصرف الرجل مع صديقه.

قالت سكراب، وغمازتها الفاتنة ظاهرة بوضوح:

- أحقًّا فعلت؟

قال فريدريك:

- إنه أندر وأثمن مزيج، أن تكوني امرأة وتحظي بولاء الرجل.

ابتسمت سكراب بحزن بعض الشيء، وقالت:

- فعلًا؟

كانت هذه في الواقع مجاملات رائعة. لو أنها فقط كانت كذلك بالفعل...

- وأريد أن أُقبِّل حذاءك.

سألته وهي تمد إليه يدها:

- ألن يوفر لك هذا تجشم العناء؟

تناولها وقبَّلها على عجل، ثم أسرع في طريقه مرة أخرى، وقال وهو يبتعد:

- فليباركك الرب.

صاحت سكراب خلفه قائلة:

- أين أمتعتك؟

توقف فريدريك وقال:

- أوه، يا إلهي، أجل... إنها في المحطة.

- سأرسل في طلبها.

اختفى بين الشجيرات، وتوجهت هي إلى الداخل لتعطي أوامرها. وهكذا حدث أن وجد دومينيكو نفسه، للمرة الثانية في ذلك المساء، متوجهًا إلى ميتزاجو وهو يتساءل في أثناء ذهابه.

بعد ذلك، بعد أن اتخذت الترتيبات اللازمة لتحقيق السعادة الكاملة لهذين الشخصين، خرجت على مهل إلى الحديقة مرة أخرى، وهي مستغرقة في التفكير بشدة. بدا أن الحب يجلب السعادة للجميع باستثنائها هي. ومن المؤكد أنه سيطر على الجميع هناك، باختلاف أنواعه، باستثنائها هي. وقد استولى على السيد بريجز المسكين أقل نوع من أنواعه رصانة. مسكين، السيد بريجز. كان يمثل مشكلة مزعجة، وخشيت أن رحيله في اليوم التالي لن يحلها.

عندما وصلت إلى الآخرين، كان السيد أروندل - ظلت تنسى أنه ليس السيد أروندل - قد شبَّك ذراعه بذراع روز بالفعل، وانطلق في طريقه معها، متوجهًا على الأرجح إلى الحديقة السفلية حيث توجد عزلة أكبر. لا شك أنه

كان لديهما الكثير ليقولاه لبعضهما. وقع خطب ما بينهما، وجرى تصحيحه فجأة. سان سالفاتوري، كما ستقول لوتي: سان سالفاتوري، تمارس سحرها في نشر السعادة. يمكنها أن تؤمن تمامًا بسحرها. وحتى هي صارت أكثر سعادة هناك مما كانت عليه منذ زمن طويل. الشخص الوحيد الذي سينصرف خالي الوفاض هو السيد بريجز.

مسكين، السيد بريجز. عندما صارت على مرأى من المجموعة، بدا صبيانيًّا للغاية وأكثر لطفًا من أن يُحرم من السعادة. وبدا من غير الملائم أن صاحب المكان، الشخص الذي يدينون له بكل هذا، هو الوحيد الذي سيرحل عنه من دون أن ينال بركته.

استولى على سكراب وخز الضمير. يا لها من أيام ممتعة للغاية قضتها في منزله، مستلقية في حديقته، تستمتع بزهوره، وتحب مناظره، وتستخدم أغراضه، وتشعر بالراحة، وتستريح... وتتعافى، في الواقع. لقد أمضت أكثر الأوقات راحة وسلامًا وتأملًا في حياتها، وكل ذلك بفضله حقًّا. أوه، كانت تعلم أنها دفعت له مبلغًا أسبوعيًّا صغيرًا على نحو مثير للسخرية، لا يتناسب على الإطلاق مع الفوائد التي حصلت عليها في المقابل، لكن ما قيمة ذلك في ميزان الأمور؟ ألم يكن له كل الفضل في أنها صادفت لوتي؟ لم تكن لتلتقي هي ولوتي قَطُّ، ولم تكن لتعرفها قَطُّ.

وضع وخز الضمير يده السريعة الحارة على سكراب، فغمرها الشعور بالامتنان على نحو غريزي، وتوجهت إلى بريجز مباشرة.

غلبها إدراكها المفاجئ لكل ما تدين به له، وشعرت بالخجل من فظاظتها في فترة ما بعد الظهيرة وفي أثناء العشاء، وقالت:

- أنا مدينة لك بالكثير جدًّا.

لكنه بالطبع لم يكن يعلم أنها تتصرف بفظاظة، حيث اختفى ما هو بغيض بداخلها كالمعتاد، وراء مظهرها الخارجي الذي حظيت به عن طريق المصادفة، لكنها كانت تعلم ذلك. كانت فظة، وعاملت الجميع بفظاظة طوال

سنوات. فكرت سكراب أن أي عين ثاقبة، أي عين ثاقبة حقًّا، سوف تراها على حقيقتها: عانس مدللة، مفعمة بالمرارة، وشكاكة، وأنانية.

لذا توجهت سكراب نحو بريجز مباشرة، وقد جعلتها أفكارها هذه تشعر بالتواضع، وقالت بإخلاص:

- أنا مدينة لك بالكثير جدًّا.

نظر إليها بتعجب قائلًا:

- أنتِ مدينة لي؟!

ثم تلعثم وهو يقول:

- لكنني أنا من... أنا من...

أن يراها هنا في حديقته... ولا شيء فيها، ولا زهرة بيضاء، أكثر بياضًا أو أشد روعة.

قالت سكراب بإخلاص أشد:

- أرجوك، هلَّا صفيت ذهنك من كل شيء عدا الحقيقة فحسب؟ أنت لا تدين لي بأي شيء. فكيف ينبغي لك ذلك؟

كرر بريجز قائلًا:

- أنا لا أدين لكِ بأي شيء؟ أنا مدين لكِ بنظرتي الأولى لـ...

قالت سكراب متوسلة:

- أوه، بحق السماء... بحق السماء، من فضلك، تصرف على نحو طبيعي، ولا تكن متواضعًا. لماذا يجب أن تكون متواضعًا؟ من السخافة أن تكون متواضعًا، فأنت تساوي خمسين مني.

فكر السيد ويلكنز، الذي كان واقفًا هناك أيضًا، بينما جلست لوتي على الجدار: «هذا ليس من الحكمة في شيء». اندهش، وأحس بالقلق، وصُدم من أن الليدي كارولين شجعت بريجز على هذا النحو. فكر السيد ويلكنز وهو يهز رأسه: «هذا ليس من الحكمة في شيء، ليس من الحكمة في شيء على الإطلاق».

كانت حالة بريجز سيئة للغاية بالفعل إلى درجة أن المسار الوحيد الذي يجب اتباعه معه هو صده تمامًا، حسب ما رأى السيد ويلكنز. لم تكن أنصاف الحلول لتفيد على الإطلاق مع بريجز، وسيسيء الشاب التعيس تفسير اللطف والحديث الودي. لا يمكن أن ترغب سليلة آل درويتويتش في تشجيعه حقًّا، كان من المستحيل افتراض ذلك. كان بريجز مقبولًا، لكن بريجز ما هو إلا بريجز فحسب، وكان اسمه وحده يثبت ذلك. وعلى الأرجح لم تكن الليدي كارولين تقدر تمامًا تأثير صوتها ووجهها، وكيف أنهما فيما بينهما كانا يجعلان الكلمات العادية تبدو... حسنًا، مشجعة. لكن هذه الكلمات لم تكن عادية تمامًا، وخشي أنها لم تفكر فيها بما فيه الكفاية. في الحقيقة وفي الواقع، كانت في حاجة إلى مستشار، مستشار موضوعي وحكيم مثله. وها هي ذي تقف أمام بريجز، وتكاد تمد إليه يدها. يجب توجيه الشكر إلى بريجز بالطبع، لأنهم قضوا إجازة ممتعة جدًّا في منزله، لكن ليس شكرًا على نحو مفرط، وليس من جانب الليدي كارولين وحدها. في ذلك المساء تحديدًا، كان يفكر في تقديم بيان شكر جماعي له في اليوم التالي عند رحيله، لكن لا يجب أن يتلقَّى الشكر على هذا النحو، تحت ضوء القمر في الحديقة، من قِبل السيدة التي كان مفتونًا بها بشكل واضح.

لذلك، رغبة منه في مساعدة الليدي كارولين على الخروج من هذا الموقف بسرعة على نحو لبق، قال السيد ويلكنز بكثير من الحماس:

- من اللائق تمامًا يا سيد بريجز أن تتلقَّى الشكر، وأرجو أن تسمح لي بأن أضيف تعبيري بالشعور بالامتنان، أنا وزوجتي، إلى تعبير الليدي كارولين. كان ينبغي لنا أن نقترح التقدم بالشكر لك على العشاء، وكان يجب أن نشرب نخبك. وبالتأكيد كان يجب أن يكون هناك بعض...

لكن بريجز لم يعِره أي انتباه قَطُّ، وظل ينظر إلى الليدي كارولين ببساطة،

كما لو أنها أول امرأة يراها على الإطلاق. كما لاحظ السيد ويلكنز أن الليدي كارولين أيضًا لم تعِره أي انتباه، وظلت تنظر إلى السيد بريجز هي الأخرى، على ذلك النحو الغريب الذي يكاد يكون التماسًا. هذا ليس من الحكمة، ليس من الحكمة على الإطلاق.

ومن جهة أخرى، أولته لوتي الانتباه على نحو زائد، واختارت هذه اللحظة التي تحتاج فيها الليدي كارولين إلى الدعم والحماية بشكل خاص، لتنهض من على الجدار وتعقد ذراعها بذراعه وتسحبه بعيدًا.

قالت لوتي في هذه اللحظة وهي تنهض:

- أريد أن أقول لك شيئًا يا ميلرش.

لوَّح لها بيده ليبعدها جانبًا، وقال:

- بعد قليل.

قالت لوتي وهي تسحبه بعيدًا:

- لا... الآن.

ذهب معها على مضض شديد. لا يجب إفساح المجال لبريجز على الإطلاق، ولا لبوصة واحدة.

سأل بنفاد صبر وهي تقوده نحو المنزل:

- حسنًا... ما الأمر؟

لا يجب أن تُترك الليدي كارولين هكذا، عرضة للإزعاج.

أكدت له لوتي، تمامًا كما لو أنه قال هذا بصوت مرتفع، وهو ما لم يفعله بالتأكيد:

- أوه، لكنها ليست كذلك. كارولين بخير تمامًا.

- إنها ليست بخير على الإطلاق. ذلك الشاب بريجز...

- بالطبع هو كذلك، ماذا توقعت؟ دعنا ندخل إلى نار المدفأة، والسيدة فيشر. إنها بمفردها تمامًا.

قال السيد ويلكنز وهو يحاول التراجع:

- لا أستطيع أن أترك الليدي كارولين وحدها في الحديقة.

- لا تكن سخيفًا يا ميلرش، فهي ليست وحدها. علاوة على ذلك، أريد أن أخبرك بشيء.

- حسنًا، أخبريني إذن.

- في الداخل.

بتردد أخذ يتزايد مع كل خطوة، ابتعد السيد ويلكنز أكثر فأكثر عن الليدي كارولين. صار يؤمن بزوجته الآن ويثق بها، لكنه اعتقد أنها ترتكب خطأً فادحًا في هذا الموقف. في غرفة الاستقبال، جلست السيدة فيشر بجوار المدفأة، ومن المؤكد أن السيد ويلكنز، الذي كان يفضِّل الغرف والمدافئ بعد حلول الظلام على الحدائق وضوء القمر، كان يفضِّل الوجود هناك على الوجود في الخارج، إذا كان في إمكانه إحضار الليدي كارولين بأمان معه. لذا بطبيعة الحال، دخل على مضض شديد.

جلست السيدة فيشر ويداها معقودتان في حجرها من دون أن تفعل شيئًا، وأخذت تحدق إلى النار بثبات فحسب. وُضع المصباح على نحو ملائم للقراءة، لكنها لم تكن تقرأ. لم يبدُ أن أصدقاءها الموتى العظماء يستحقون القراءة في تلك الليلة. دائمًا ما صاروا يقولون الأشياء نفسها الآن، مرارًا وتكرارًا، يقولون الأشياء نفسها، ولم يعد من الممكن الحصول على شيء جديد منهم قَطُّ. لا شك أنهم كانوا أعظم من أي شخص آخر الآن، لكن كان لديهم هذا العيب الهائل، وهو أنهم ماتوا. لم يعد من الممكن توقع أي شيء آخر منهم، أما بالنسبة إلى الأحياء فما الذي قد لا يتوقعه المرء منهم؟ كانت تتوق إلى ما هو حي، ويتطور، وقد أرهقها ما تبلور وانتهى. أخذت تفكر في أنها لو كان لديها ابن فحسب، ابن مثل السيد بريجز، ابن عزيز كهذا، لا يزال ينمو ويتطور، حي وحنون، ويعتني بها ويحبها...

اعتصرت تلك النظرة المرتسمة على وجهها قلب السيدة ويلكنز بعض

الشيء عندما رأتها، وفكرت: «يا للعجوز المسكينة العزيزة»، وخطر على ذهنها كل الوحدة التي تصاحب التقدم في العمر، الوحدة الناجمة عن بقاء المرء في هذا العالم فترة أطول من اللازم، وعن كونه موجودًا رغمًا عنه، الوحدة الكاملة للمرأة العجوز التي ليس لديها أطفال، والتي فشلت في تكوين صداقات. يبدو أن الناس لا يمكن أن يكونوا سعداء حقًّا إلا في أزواج - أي نوع من الأزواج، وليسوا بالضرورة عشاقًا فحسب، بل أزواج من الأصدقاء، أو أزواج من الأمهات والأطفال، أو من الإخوة والأخوات - وأين سيُعثر على النصف الآخر من زوج السيدة فيشر؟

فكرت السيدة ويلكنز أنه ربما كان من الأفضل لها أن تقبّلها مرة أخرى. لقيت القبلة عصر ذلك اليوم نجاحًا كبيرًا، وقد علمت ذلك، وأحست برد فعل السيدة فيشر حيال الأمر على الفور. لذا توجهت نحوها وانحنت وقبّلتها وهي تقول بمرح:

- لقد أتينا إلى الداخل...

وهو ما كان واضحًا بالفعل.

هذه المرة، رفعت السيدة فيشر يدها بالفعل ووضعت وجنة السيدة ويلكنز على وجنتها... هذه المخلوقة، المليئة بالمودة، والدماء الحارة المتدفقة. وعندما فعلت ذلك، أحست بالأمان مع تلك المخلوقة الغريبة، وهي متأكدة أن من تقوم بنفسها بأشياء غير عادية على نحو طبيعي تمامًا، ستعتبر هذا الأمر عاديًّا للغاية، ولن تحرجها بإظهار الدهشة.

لم تندهش السيدة ويلكنز على الإطلاق، وبدت مسرورة. ومضت الفكرة في ذهنها: «أعتقد أنني أنا النصف الآخر من الزوج الخاص بها. أعتقد أنه أنا، بالتأكيد أنا. سأصبح صديقة مقربة للسيدة فيشر!».

وعندما رفعت رأسها، ملأت الضحكات وجهها. بدت تلك التطورات التي تنتجها سان سالفاتوري عجيبة للغاية. هي والسيدة فيشر... لكنها رأت أنهما صديقتان مقربتان.

سألت السيدة فيشر:

- أين البقية؟

ثم أضافت قائلة:

- شكرًا لكِ يا عزيزتي.

عندما وضعت السيدة ويلكنز مسندًا للقدمين تحت قدميها، حيث بدا أنها تحتاج إلى مسند للقدمين، إذ كانت ساقا السيدة فيشر قصيرتين.

فكرت السيدة ويلكنز وعيناها تتراقصان: «أرى نفسي على مر السنين، وأنا أُحضر مساند الأقدام للسيدة فيشر...».

اعتدلت قائلة:

- لقد ذهب الزوجان روز إلى الحديقة السفلية، أعتقد أنهما يتغازلان.

- الزوجان روز؟

- الزوجان فريدريك إذن، إذا شئتِ. إنهما مندمجان تمامًا ولا يمكن تمييزهما.

قال السيد ويلكنز:

- لماذا لا تقولين الزوجان أربوثنوت يا عزيزتي؟

- حسنًا يا ميلرش، الزوجان أربوثنوت. أما الزوجان كارولين...

جفل كلٌّ من السيد ويلكنز والسيدة فيشر. وبدا أن السيد ويلكنز، الذي عادة ما يكون مسيطرًا على نفسه تمامًا، قد جفل بشدة أكثر من السيدة فيشر، ولأول مرة منذ وصوله شعر بالغضب من زوجته.

شرع يقول بسخط:

- حقًّا...

- حسنًا يا ميلرش، الزوجان بريجز إذن.

صاح السيد ويلكنز:

- الزوجان بريجز!

وبات الآن غاضبًا بشدة بالفعل، لأن المعنى الضمني بدا بالنسبة إليه

بمنزلة إهانة شنيعة لسلالة آل ديستر بأكملها: آل ديستر الموتى، وآل ديستر الأحياء، وآل ديستر الذين لا يزالون أبرياء لأنهم لم يولدوا بعد.

- حقًّا!

قالت السيدة ويلكنز متظاهرة بالوداعة:

- أنا آسفة يا ميلرش، إذا لم يعجبك الأمر.

- يعجبني! لقد فقدتِ عقلك، فلم يسبق أن شاهدا بعضهما قبل اليوم.

- هذا صحيح، لكن هذا هو السبب في كونهما قادرين الآن على المضي قُدمًا.

- المضي قُدمًا!

لم يسع السيد ويلكنز إلا أن يكرر الكلمات الشنيعة.

قالت السيدة ويلكنز مرة أخرى:

- أنا آسفة يا ميلرش، إذا لم يعجبك الأمر، لكن...

التمعت عيناها الرماديتان، وومض وجهها بذلك النور والقناعة التي أدهشت روز كثيرًا في المرة الأولى التي التقتا فيها.

قالت:

- لا جدوى من معارضة الأمر، ولن أقاوم لو كنت مكانك، لأنني...

توقفت عن الحديث، ونظرت أولًا إلى الوجه الرصين المذعور، ثم إلى الآخر، وومض الضحك والضوء على وجهها ورقصا فوقه.

أنهت السيدة ويلكنز حديثها قائلة:

- أراهما وهما الزوجان بريجز.

خلال ذلك الأسبوع الأخير، أزهر الليلك في سان سالفاتوري، وأزهرت كل أشجار السنط. لم يلحظ أحد عدد أشجار السنط الموجودة حتى امتلأت الحديقة ذات يوم برائحة جديدة، وظهرت تلك الأشجار الرقيقة، الخليفة الجميلة لأشجار الوستارية، وقد تدلت الزهور في كل مكان بين أوراقها المرتجفة. كان الاستلقاء تحت شجرة سنط في ذلك

الأسبوع الأخير، والنظر من خلال الأغصان إلى أوراقها الرقيقة وزهورها البيضاء المرتعشة في مواجهة زرقة السماء، بينما تحرك عطرها أقل نسمة هواء، مصدرًا عظيمًا للسعادة. في الواقع، ارتدت الحديقة بأكملها اللون الأبيض تدريجيًّا قرب النهاية، وتزايد عطرها أكثر فأكثر. كانت هناك الزنابق، قوية كما كانت دائمًا، وزهور المنثور البيضاء، وزهور القرنفل البيضاء، وورد بانسيا الأبيض، والليلك والياسمين، وأخيرًا، عطر السنط الذي توج الجميع. وعندما رحل الجميع في الأول من مايو، وحتى بعد وصولهم إلى أسفل التل ومرورهم عبر البوابات الحديدية إلى داخل القرية، ظل بوسعهم شم رائحة السنط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المؤلفة

إليزابيث فون أرنيم (١٨٦٦-١٩٤١) واحدة من أهم الكاتبات الإنجليزيات، واسمها الحقيقي ماري أنيت بوشامب، وهي ابنة عم الكاتبة كاثرين مانسفيلد. ولدت في أستراليا لعائلة ثرية، وتزوجت أرستقراطيًّا ألمانيًّا حفيدًا للملك فريدريش فيلهلم الأول ملك بروسيا، واستقرت مع زوجها في عزبة عائلته في بوميرانيا، حيث ربَّيا خمسة أطفال ووظفا كلًّا من إ. م. فورستر وهيو والبول مدرسَين للأولاد.

بعد وفاة زوجها، كانت على علاقة عاطفية مع الكاتب هـ. ج. ويلز لمدة ثلاث سنوات. تزوجت بعدها فرانك راسل، الأخ الأكبر للفيلسوف الحائز على جائزة نوبل برتراند راسل، لمدة ثلاث سنوات أيضًا ثم انفصلا. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، انتقلت للإقامة بشكل دائم إلى الولايات المتحدة حتى توفيت. زواجها الأول جعلها الكونتيسة فون أرنيم شلاجنتين، والثاني إليزابيث راسل، الكونتيسة راسل.

نشرت رواياتها الأولى باسم مستعار، ولكن مع نجاح كتبها الكبير استخدمت اسم «إليزابيث فون أرنيم». أصدرت أكثر من عشرين كتابًا، وتُعدُّ روايتها «أبريل الساحر»، التي نُشرت عام ١٩٢٢، من أكثر الكتب مبيعًا في كلٍّ من إنجلترا والولايات المتحدة، ومن أحب أعمالها إلى القرَّاء وأكثرها شهرة.

المترجمة

إيناس التركي مترجمة مصرية. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس. ترجمت لدار الكرمة كتاب «عندما تحب النساء أكثر مما ينبغي: أن تعيشي في انتظار أن يتغير» لروبين نورود، والروايات: «خلف هذه الأبواب» لروث وير، و«جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس» لماري آن شيفر وآني باروز، و«المكتبة المتنقلة» لكريستوفر مورلي.

telegram @soramnqraa

ظلت هذه الرواية المخادعة والذكية والكوميدية من أكثر الكتب مبيعًا منذ صدورها، واقتُبست للمسرح والإذاعة والسينما مرات عديدة.

تحكي عن أربع نساء مختلفات تمامًا، هربن من كآبة لندن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى قلعة إيطالية ساحرة في الريفيرا الإيطالية ليقضين إجازة الربيع. وبعد أن تهدهدهن روح البحر الأبيض المتوسط، يتغيرن تدريجيًّا ويكتشفن الانسجام الذي تاقت إليه كلٌّ منهن، ولكن لم يعرفنه قَطُّ. تجيب رواية إليزابيث فون أرنيم بشكل مقنع عن السؤال الأبدي حول كيفية تحقيق السعادة في الحياة.

رواية عن الصداقة بين النساء والتمكين والحب المتجدد والعشق غير المتوقع.

«على مستوى ما، قد تُعَد هذه الرواية هروبًا من الواقع، ولكن على مستوى آخر فهي مثال لتحرر الروح... هذه الرواية اللذيذة ستسحر الجميع» — الدايلي تليجراف

«هذه الرواية وصف حسي حالم لأمجاد الربيع الإيطالي»
— ميل أون صنداي

الكرمة

ISBN 978-977-96-0303-2
9 789779 603032